

# غرامشي، حياته وأعماله

تأليف: جون كاميت ترجمة: عفيف الرزاز

الإعداد الإلكتروني: جريدة "المناضل-ة" <http://www.almounadil-a.info>

## المحتويات

مقدمة

مدخل

### القسم الاول: السنوات المبكرة

- 1- استهلال في ساردينيا
- 2- سنوات التكون في تورينو
- 3- سنوات الحرب في تورينو

### القسم الثاني: "النظام الجديد"

- 4- "النظام الجديد" و"السوفييتات الايطالية"
- 5- الحركة العمالية التورينية عام 1920
- 6- باتجاه الحزب الشيوعي: الانشقاق النهائي لغرامشي عن القصويين

### القسم الثالث: غرامشي والشيوعية الايطالية

- 7- ليفورنو، كانون الثاني (يناير) 1920: تأسيس الحزب الشيوعي الايطالي
- 8- غرامشي والحزب الشيوعي الايطالي والاممية الثالثة

### القسم الرابع: دفاتر السجن

- 9- طبيعة ومهمة الحزب السياسي
  - 10- الدور التاريخي للمثقفين الايطاليين
- ملحق: غرامشي و"النهضة" الايطالية

الهوامش

المراجع

## مقدمة

بدئ العمل في هذا الكتاب في جامعة كولومبيا كأطروحة للدكتوراه تحت إشراف وتوجيه البروفسور شيبارد ب. كلوف الذي أشعر له بالشكر العميق لنقده المساعد، ولتشجيعه، ولحرارته وإنسانيته، وهي صفات ربما لم تعد شائعة في أرجاء المجتمع الأكاديمي كما كان يجب أن تكون. وفي مرحلة صياغة الأطروحة تلقيت الكثير من النقد المفيد أيضا من البروفسور رينيه البريخت-كارييه والبروفسور مايكل فلورنسكي والبروفسور بيتر غاي والبروفسور الراحل غاريت مايتغلي. إن كرم "معهد الثقافة الإيطالية"، الذي قدم لي منحة من الحكومة الإيطالية، سمح لي بإكمال الجولة الأولى من بحثي في إيطاليا. وفي عام 1960 حظيت أطروحتي بشرف اعتبارها لدى "جمعية الدراسات التاريخية الإيطالية" أفضل مخطوطة غير منشورة في تلك السنة حول التاريخ الإيطالي. وأود أن أشكر الجمعية لتشجيعها الذي قدمه لي هذا الاختيار كأصغر باحث سنا، مازال حديث الولوج إلى سيرته الأكاديمية.

في الخمسينيات، لم يكن هناك إلا القليل مما تم إنجازه، والقليل من الوثائق المتوفرة، مما يلزم لوضع كتاب إعلامي عن غرامشي، ولم يتحقق هذا حتى الستينات. لهذا، فإني أشعر بامتنان عميق لمجلس الأبحاث في جامعة روتجرز، الذي قدم لي منحة صيفية في عام 1964، مما مكنتني من العودة إلى إيطاليا، ومن أن أحظى بالفة بعض الباحثين الأكثر نشاطا في أعمال غرامشي، ومن أن أشتري الكتب والمقالات والميكروفيلم اللازم لتحديث بحثي حول غرامشي. وأثناء وجودي في روما تمكنت من استخدام مرافق "معهد غرامشي"، وأنا عظيم الامتنان للمساعدة والتشجيع اللذين قدمهما لي طاقم الموظفين المخلص والمكرس نفسه للعمل، وخصوصا السنيور فرانكو فيري، مدير المعهد، والسينورا الزافوبيني، رئيسة تحرير طبعة إيناودي من مؤلفات غرامشي.

وكنتيبة لأبحاثي التالية، توسعت كثيرا في المخطوطة الأصلية، واعدت كتابتها بكاملها تقريبا. ولم يكن لأي نجاح قد أكون حققته أن يكون ممكنا من دون مساعدة وتشجيع أشخاص عديدين. وإني شاكر بشكل خاص لأربعة من أصدقائي وزملائي في قسم التاريخ في جامعة روتجرز، وهم: البروفسور يوجين د. جينوفيزي وهربرت ه. روين وترايان ستويانوفيتش ووارن د. سوسمان. لقد كان تشجيعهم من موقع الصداقة، وأحيانا نقدهم القاسي، حافظا أساسيا بالنسبة لي.

وكذلك أذهب بشكري إلى الاقتراحات المساعدة والمناقشات الحافزة والنقد الإيجابي الذي قدمه البروفسور جوليوس بريллер من مدرسة غيليار للموسيقى، والبروفسور نورمان رين من جامعة روتجرز في نيوارك، والبروفسور أ. ويليم سالومون من جامعة روتجرز، ولبروفسور ريتشارد أ. وبستر من جامعة كاليفورنيا في بيركلي، والبروفسور جون وايس من جامعة ولاية وين، وأنا مدين بشكل خاص للبروفسور ويليم ج. بوسنبروك من جامعة ولاية وين، إذ كان تعليمه الجليل الفاعل أول ما جذبني إلى دراسة التاريخ. وقدمت لي الدكتوراة دوريس ميلر مساعدة كريمة لا متناهية في مشاكل أخرى تتعلق بالمخطوطة. وكان الأعم والنقد الحيوي الذي قدمته لي زوجتي، دوريس دي بوديسنا كوميت، أمرا لا بد منه لإتمام هذا العمل.

وأخيرا لا بد لي أن أضيف التتصل التقليدي الذي يحرر أي شخص آخر من مسؤولية النواقص في هذا العمل، والذي يفرض علي قبول هذه النواقص باعتبارها من مسؤوليتي. وفي حالتي، فإن هذه المسؤولية تشمل أيضا الترجمة من الإيطالية إلى النص الإنجليزي.

ج.م.ك

## مدخل

في عام 1947، وبعد مرور عشر سنوات على وفاته، كوفى انطونيو غرامشي بمنحة جائزة "فياريجو" للآداب على ما كتب من "رسائل من السجن". وبين عامي 1948 و 1951 نشرت له أيضا "دفاتر السجن". هذه الكتابات تحمل قدرا من الإنسانية والذكاء يصبح معه الجهل بهذا الرجل حتى ذلك التاريخ، وحتى في إيطاليا، أمرا مثيرا للدهشة، خصوصا وأنه ساهم في تأسيس الحزب الشيوعي الإيطالي عام 1921، وكان زعيمه المعترف به حتى اعتقاله في تشرين الثاني (نوفمبر) 1926. على العموم، منذ عام 1947 بدأت تتدعم سمعة غرامشي كقائد سياسي وكناساني ومفكر. وفي إيطاليا، أصبحت الأدبيات الغرامشية واسعة الانتشار، وهناك اهتمام متزايد في البلدان الناطقة بالإنجليزية أيضا بأفكار غرامشي، بالرغم من أن الباحثين لم يفعلوا إلا القليل لتلبية هذا الاهتمام<sup>(\*)</sup>.

في إيطاليا لم يظهر غلام مؤلفان عامان فيهما نية البحث، أحدهما لجوزيبي تامبورانو (1963) والآخر لفرانشيسكو رومانو (1965)<sup>(\*\*)</sup>: الأول جدلي بعض الشيء ولم ينجح في تقديم عرض متوازن لحياة غرامشي وأفكاره، أما الثاني، فهو ملائم وكثيرا ما يكون عميق الملاحظة فيما يتعلق بغرامشي الشاب حتى عام 1921، ولكنه لا يحاول معالجة "دفاتر السجن" ويكرس صفحات قليلة فقط لدور غرامشي في الحزب الشيوعي الإيطالي. والمقدمة المنورة التي كتبها جانسيرو فيراتا لآخر مقتطفات ظهرت لأعمال غرامشي (1964) تشكل بالتأكيد إشارة إلى أن الباحثين الإيطاليين -الذين كانت أعمالهم الأخيرة داعية للإعجاب في ميادين أخرى كثيرة من التاريخ الإيطالي المعاصر- سرعان ما سوف يقدمون لنا دراسات أفضل عن هذا الرجل غير العادي وإنجازاته. وحتى ذلك، علينا أن نوافق الباحث الفرنسي الشاب روبرت باريس في أنه "من الصعب تقديم أو "ترجمة" مؤلف مثل غرامشي في غياب دراسات متينة وضعت عنه في وطنه".

هذا الكتاب، لا يقصد به أن يكون سيرة حياة كاملة بالرغم من أنه يتضمن معلومات من هذا النوع عن كل مرحلة من حياة غرامشي، لأنه حتى الآن لم ينجز إلا الجزء الأساسي من العمل الذي يجب القيام به لجعل كتابه مثل سيرة الحياة هذه ممكنة، وما زالت هناك ثغرات كثيرة. ولهذا الكتاب هدف أكثر محدودة، وهو تقديم وتحليل أفكار غرامشي الرئيسية في ميادين السياسة والتاريخ خلال فترتي إبداعه الأكبر. الفترة الأولى: كزعيم حركة "النظام الجديد" في تورينو سنتي 1919-1920، والفترة الثانية: كشخصية رئيسية في الشيوعية الإيطالية، بدءا بارتقائه إلى قيادة الحزب الشيوعي الإيطالي في سنة 1923 وانتهاء بكتابته "دفاتر السجن"، التي كتب الجزء الأكبر منها بين 1929 و 1934.

وحتى بهذه المحدودية، وبثراء المادة التي أصبحت الآن متوفرة، فإن دراسة من هذا النوع تواجه المشاكل. في القسم الأول من الكتاب كانت المشكلة هي اكتشاف قدر الإمكان- تأثير طفولة غرامشي الساردينية وشبابه في تورينو، أو لا كطالب في الجامعة ثم كداعية اشتراكي ومنظم عمالي، على أفكاره الناضجة. في القسم الثاني، كانت المهمة الرئيسية هي اختيار وتنظيم الأفكار الأكثر أهمية الواردة فيما يزيد عن 200 مقالة كتبها غرامشي لصحيفة "النظام الجديد" خلال سنتين من صدورهما، وهي مادة، بالرغم من ثرائها، كتب بسرع العمل اليومي، ولم يكن يقصد بها أن تشكل مساهمة دائمة في تاريخ الأفكار. وفي القسم الثالث. الذي يرسم ارتقاء غرامشي إلى موقع السيطرة في الحزب الشيوعي الإيطالي، كانت المشكلة هي تبيان كيفية شق غرامشي لطريق خاص به بين التطرف اليساري لأميديو بورديغا وتحذيرات ونصائح الكومنترون المتمركز في موسكو.

وربما كانت المهمة الأصعب بين الجميع هي اختيار المعالجة الملائمة، في القسم الرابع، للكمية الهائلة من المادة الموجودة في "دفاتر السجن"، وهو يتطلب مكتبة بحالها من التحليلات لسبر عمقها. وفي النهاية، بدا لي أن الأفضل هو قصر البحث على آراء غرامشي النهائية حول مشكلتين رئيسيتين للنظرية والتاريخ الإيطالي الحديث كانتا قد شغلنا غرامشي منذ البداية، وهما: طبيعة ومهمات الحزب السياسي، والدور التاريخي للمتقنين الإيطاليين. الكثير من الكتابات الأخرى في الدفاتر له أهمية، ويعضه عميق، ولكن غرامشي كان أكثر سخاء على هذين الموضوعين بالذات بما اكتسب من حكمة خلال مسيرته السياسية.

(\*) في العالم العربي، بدأ الاهتمام بترجمة كتابات غرامشي منذ مطلع السبعينات، نقلا عن الاهتمام الغربي به، ولكن "أبحاث" عن فكر غرامشي لم تظهر حتى الآن بالعربية، ربما تبعا لقلّة

الإطلاع على هذه الأفكار، بالرغم مما هنالك من تشابه بين الشروط التاريخية التي مرت بها إيطاليا في عهد النهضة (1860) وما تلاه حتى النصف الأول من القرن الحالي، والشروط السائدة حاليا بالوطن العربي، من الناحيتين القومية والطبقية على السواء. وهذا التشابه قد يشكل دافعا يحفز الباحثين العرب على اطلاع أوسع على فكر غرامشي في المستقبل، لا للنقل الآلي عنه، بل لتوسيع آفاق الفكر الباحث في المستقبل العربي (المعرب).

(\*\*) هذا الكتاب صدر في طبعته الإنجليزية الأولى عام 1967، وبالتالي فإن أية إشارة إلى "الآن" أو "حتى الآن" إنما تشير إلى تلك السنة (المعرب).

## القسم الأول السنوات المبكرة

### 1- استهلال في ساردينيا

"كدت لا أعرف أبداً إلا المظهر الأكثر سوءاً من الحياة، ولكنني نجحت دوماً في العثور على طريقي. بالشكل الحسن أو السيء".

غرامشي -3 تشرين الأول (أكتوبر) 1932

خلال سنوات سجنه الطويلة، كثيراً ما فكر انطونيو غرامشي بكتابة قصة حياته، وكان غرامشي قد تساءل، بتواضع المميز، ما الذي يمكن أن يبهر كتابه سيرة حياته! وشعر بأن الاعتزاز أو الفخر لا يشكل مبرراً، ففخر الإنسان يفترض ضمناً أن حياته المختلفة عن حياة الآخرين قد تجعل سيرة حياته غير ذات قيمة للفارئ. من ناحية أخرى، كان يمكن لسيرة حياة "سياسية" أن تكون مبررة: "نحن نعرف أن حياة أي إنسان تماثل حياة ألوف الآخرين، ولكنها اتخذت لنفسها بالصدفة- مسلماً لم تستطع ألف حياة أخرى أن تتخذها، وهي -في الواقع- لم تفعل". ويمكن لسيرة الحياة أن توحى بالأمر التي قادت إلى "الحدث" والتي حددت اتجاه مسار حياة الكاتب، وبذلك فإنها قد تساعد "رجالاً آخرين على التطور بطرق معينة وبتجاهات معينة"<sup>(1)</sup>.

والمثير للأسف هو أن غرامشي لم يكتب أبداً سيرة حياته، ولكن لتشيده على "المصادفات الحديثة" أصولاً عميقة في تجربته. فقد تأثرت حياته، وبعمق، بالعديد من المصادفات أو من الأحداث العرضية التي كان بعضها مؤسفاً وكان بعضها الآخر مؤاتياً. وكان سالفاتوري فرانثيسكو رومانو قد صنف غرامشي مؤخرًا بين القادة السياسيين القلائل الذين كان لتجاربه الشخصية والفكرية تأثير تفريري على الأهمية التاريخية لفكرهم ولأعمالهم<sup>(2)</sup>.

ولد غرامشي يوم 22 كانون الثاني (يناير) 1891، في أليس، وهي بلدة زراعية صغيرة في جزيرة ساردينيا. وكان والده فرانثيسكو سليلًا، من جهة أبيه، لألبانيين أتوا إلى إيطاليا من ابيروس في عام 1821، خلال الحرب اليونانية من أجل الاستقلال<sup>(3)</sup>، أما من جهة أمه فكان سليلًا لواحدة من العائلات الإيطالية-الاسبانية الموجودة في جنوب إيطاليا. وكانت أم انطونيو، جوزيبيا مارشاس، من أصل سارديني صاف<sup>(4)</sup>.

وكان جد غرامشي، جينارو غرامشي، عقيداً في الدرك البوربوني في مملكة الصقليتين القديمة<sup>(5)</sup>. وولد فرانثيسكو، والد انطونيو، في بلدة غاييتا في أرض إيطاليا القارية، عام 1860. وبعد أن انتهى فرانثيسكو دراسته أرسل إلى ساردينيا موظفًا صغيراً في بيروقراطية الدولة. وكانت أم انطونيو ترتبط برابط القرابة مع عائلة كورياس، وهي إحدى أكثر العائلات اجتذاباً للاحترام في تلك المنطقة من ساردينيا. وبالرغم من خلفيته، يبدو أن فرانثيسكو غرامشي كان رجلاً فاشلاً غير ذي فاعلية. وقد كتب انطونيو بعد سنوات عديدة يقول:

"كان أبي وأمي منمكين دوماً في وضع جبال من المشاريع والفرضيات. ولكنهما كانا ينسيان النقطة الأساسية، وكانت مشاريعهما كلها تفشل.. اعتقد أن لهما قدرات عظيمة في الأعمال التجارية، وكانا يبنيان دوماً قصوراً كبيرة في الهواء وينتقدان بقية الساردينيين لأنهم بلا مبادرات. وطبعاً، لم يتحقق شيء من مشروعاتهما، وكان اللوم يقع دوماً على آخرين، كما لو أن أحداً لم يوجد قبلاً، وأن أحداً ما كان يجب أن يؤخذ في الاعتبار منذ البداية"<sup>(6)</sup>.

وعاشت العائلة من عام 1894 وحتى عام 1897 في سورغونو، وهي بلدة تقع في قلب ساردينيا قرب جبال جينارجينتو، حيث أرسل انطونيو وأخواته إلى مدرسة للحضانة تديرها جماعة دينية. وفي هذه الفترة حصلت "المصادفة" الكبرى الأولى في حياة غرامشي: عندما كان في الرابعة من عمره، سقط غرامشي من بين ذراعي إحدى الخادمتين وتدرج حتى أسفل الدرج. واعتقدت العائلة أنه قد مات، بل أنها حضرّت من أجله تابوتاً وكفنوا. ولكن عمته قامت بتدليك قدميه بزيت مأخوذ من قنديل مكرس لخدمة العذراء، ونسبت شفاؤه فيما بعد إلى هذا العلاج<sup>(7)</sup>. وعاش انطونيو، ولكن الثمن كان علة صحية دائمة وظهراً مقوساً محدودياً. وكان لذلك أثراً نفسياً لا بد منها، أحدها كان إدراكه الأول "لوجوده كإنسان له جسد" (كما ذكر بحس مرهف فيما بعد)<sup>(8)</sup>.

في عام 1897، وبينما كان الأب فرانثيسكو يعمل كموظف في مكتب عقاري في سورغونو، اعتقل بتهمة "الغش الإداري" وحكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات<sup>(9)</sup>. وبقيت زوجته وحيدة تحمل عبء تنشئة سبعة أطفال (كان انطونيو الطفل الرابع للعائلة والابن الثاني لها). بعد ذلك مباشرة، انتقلت عائلة غرامشي إلى غيلارتسا، وهي بلدة أكبر قليلاً، قريبة من السكة الحديدية التي تربط كالياري بسانساري، مدينة جزيرة ساردينيا الرئيسية. ويبدو أن المكان كان غير صحي أبداً، وكان مملوءاً بوباء الملاريا، وليست فيه شبكة مجاري أو شبكة لمياه الشرب<sup>(10)</sup>. ولم يكن في بيت غرامشي مياه جارية، ولا مراحيض، ولا إنارة باستثناء شمعة واحدة كانت والدة غرامشي تحتاج إليها في عملها كخياطة<sup>(11)</sup>. كانت حياة صعبة، وكان غرامشي يشعر دوماً بفضل أمه في إعالة العائلة. "لو كانت امرأة أخرى، من يعرف أية نهاية كارثية كنا سنصل إليها نحن الأطفال؟ ربما لم يكن أي منا على قيد الحياة اليوم!"<sup>(12)</sup>.

وكتب غرامشي أن أمه، ككل الساردينيين، كانت تشعر بعمق بالروابط والمسؤوليات العائلية<sup>(13)</sup>، وكانت ذات إرادة قوية "كورياس كورياتسو" (وهو ما يعني باللهجة المحلية أن أفراد عائلة كورياس شجعان)، وهي التورية الكلامية التي استخدمها غرامشي نفسه<sup>(14)</sup>. كانت الأم أيضاً ذكية سريعة الخاطر، وكانت رواية جيدة للحكايات. وكان انطونيو معجباً بهذه الصفات التي لوالدته، ولم يمنعه اغترابه فيما بعد عن أصوله أبداً من التعبير عن العرفان بجميلها:

"لا تستطيعين أن تتصورتي كم هي الأحداث التي أذكر والتي كنت تبدين فيها، دوماً، كقوة خيرة مليئة بالاهتمام بنا.. ولأن كل ما نذكره منك هو الطيبة والقوة تلك القوة التي أظهرتها في تنشئتها- فقد كسبت لنفسك الجنة الحقيقية التي هي بالنسبة للأمم -على ما اعتقد- في قلوب أطفالها"<sup>(15)</sup>.

وكانت اهتمامات مثل هذه الأم بأطفالها من عائلة غرامشي لا تقدر بثمن، خصوصاً عندما بدأ الأطفال الذهاب إلى المدرسة. في الواقع، كتب انطونيو يقول: "كانت عائلتنا مشهورة في غيلارتسا"<sup>(16)</sup>. وكان انطونيو وأخته الأصغر تيريزينا قارئان شريان. وتراه يذكر شقيقته في عام 1930 "كم كان تعصبنا للقراءة والكتابة"<sup>(17)</sup>، وذكرت تيريزينا فيما بعد أن سيدة في البلدة أورتت انطونيو مجموعة كبيرة من الكتب التي كانت تضم، فيما تضم، "روبنسون كروزو"، و"كوخ العم توم"<sup>(18)</sup>. وربما كان الصبي انطونيو كثير

الثقة بقدراته، ففي السنة الثانية من دراسته الابتدائية، وكان في التاسعة من عمره، طلب تقديم "امتحانات المغادرة"، وهي الامتحانات التي يقدمها التلاميذ عادة في نهاية السنة الثالثة من الدراسة الابتدائية (وكان في تلك الأيام تشكل عاملاً أساسياً في الحق بالتصويت). وكان غرامشي يريد الانتقال مباشرة إلى السنة الرابعة من الدراسة الابتدائية<sup>(19)</sup>: "كنت متأكد من أنني أستطيع ذلك، ولكنني عندما تقدمت إلى المدير لتقديم طلبتي الرسمي، سئلت بقسوة: "هل تعرف المادة الرابعة والثمانين من النظام الداخلي؟"، ولم أكن قد فكرت أبداً في هذه المواد. كنت قد اقتصرت على دراسة "حقوق وواجبات المواطن" في الكتب المدرسية"<sup>(20)</sup>. ويمر غرامشي بهذه الحادثة على أساس أنها حادثة طريفة، ولكننا نعرف من مقال كتبه في عام 1915 أنه كان لهذه الحادثة أهمية كبيرة بالنسبة إليه: "الصبي المسكين الذي سحقه ذلك السؤال بدأ يرتجف، وعاد إلى البيت غارقاً في الحزن ليتخلى عن أية فكرة لتقديم الامتحانات في ذلك الوقت"<sup>(21)</sup>، في السنوات التالية، كثيراً ما ثار غضب غرامشي ضد سوء استخدام المربين للسلطة الموكلة إليهم في تثبيط همة وطموحات التلاميذ.

لم يقتصر التعليم المبكر لغرامشي على الدراسة الرسمية، فقد كانت قصص "روبنسون كروزو" و"قصص سالغاري الرومانسية حول المعارك البحرية للقرصنة من قراءاته المفضلة عندما كان طفلاً"<sup>(22)</sup>. إلى هذا، كان غرامشي يكن حباً كبيراً للطبيعة، وخصوصاً للحيوانات، التي كان يراها، في آن معاً، كما هي في الواقع وكما هي في مخيلته. من هذا الخليط من التجربة المباشرة ومن الخيال ظهرت قصصه الرائعة التي كتبها عن الحيوانات لأطفاله عندما كان في السجن<sup>(23)</sup>. كانت هناك واجهة محل في تورينو تعرض طيوراً مصبرة وحية، وكان هذا مكان التوقف المفضل عند غرامشي. ليونيدا ريباتشي، التي عرفت غرامشي في أيام "النظام الجديد"، تخبرنا قائلة: "كان له ميل خاص إلى الطيور. ولست أستطيع أن أنسى عيني غرامشي العطفين والممتلئين بحلم ناعم عندما كان ينظر إلى تلك المخلوقات الحية والميتة"<sup>(24)</sup>. ويستذكر غرامشي نفسه قائلاً: "عندما كنت صبياً ربيت طيوراً عديدة وحيوانات أخرى: صقوراً، وبومات حظائر، ووقاويق، وعقائيق، وغرباناً، وحساسين، وعصافير الكناري، وصفانج(عصافير مغردة)، وعصافير السنونو.. وكذلك حية صغيرة، وابن عرس وبعض القناذل والسلاحف"<sup>(25)</sup>.

وبالنظر لأذواق واهتمامات غرامشي الناضج الفكرية، والتي تركزت أساساً على الفلسفة والتاريخ والأدب واللغات، يبدو مثيراً للدهشة أنه كان لديه، عندما كان صبياً يافعاً، انجذاب خاص إلى الرياضيات والعلوم<sup>(26)</sup>. وتشير نتائج "امتحانات المغادرة"، التي قدمها أخيراً في 24 تموز (يوليو) 1901، إلى تفوق أكيد في الرياضيات. فقد حصل غرامشي على الدرجة الأعلى الممكنة، أي درجة عشرة، في "الحساب النظري والعملية". وكانت علاماته الأخرى: 9 في الإنشاء والإملاء والقراءة والتاريخ والجغرافيا و"حقوق وواجبات المواطن"، و8 في حسن الخط<sup>(27)</sup>.

هذه البداية الواعدة انقطعت نتيجة "الحادث" مرُ آخر، فقد قرر والد انطونيو أن ليس باستطاعة العائلة تحمل عبء إرسال الولد إلى مرحلة دراسة الـ"جينايزيو" (وهي قريبة من مرحلة الإعدادية الآن في العالم العربي 'المعرب') في سانتو لوسورجو على بعد أحد عشر ميلاً. ونظراً لأن انطونيو كان الولد الذكر الثاني فقد كان مسؤولاً، بموجب التقاليد، عن خير وسعادة نساء العائلة. لذلك، فقد أرسل الصبي وهو في الحادية عشرة من عمره إلى العمل في المكتب العقاري الذي يعمل فيه أبوه<sup>(28)</sup>. كان الصبي يعمل عشر ساعات يومياً ولا يرتاح إلا نصف يوم في الأسبوع، مقابل أجر لا يتجاوز تسع ليرات شهرياً (أقل من دولارين أمريكيين يومياً). وكان دخله هذا يعني تأمين رطلين إضافيين من الخبز يومياً لعائلته<sup>(29)</sup>.

كان انطونيو مستاء وممتعضاً لفقدانه ما بدا له يوماً فرصته الوحيدة للتغلب على محدودية إمكانات مستقبله وعلى إعاقته الجسدية. وقد لاحظ في وقت لاحق أن "الكبار لم يعودوا قادرين على تذكر طفولتهم، لأنهم يجدون من الصعب عليهم فهم طريقة التفكير وردود الفعل التي نمت في عقول الأطفال الذين عليهم التعامل معهم"<sup>(30)</sup>. وفي مناسبة أخرى، وبالإشارة إلى الحادثة نفسها، لاحظ غرامشي أنه لم يكد يعرف "أبداً إلا المظهر الأكثر سوءاً من الحياة"<sup>(31)</sup>.

ومن الملاحظ أن غرامشي في كل مراسلاته (التي تبلغ ألف صفحة من الرسائل التي نشرت حتى الآن) لم يورد كلمة واحدة من الإطراء أو التوبيخ بحق أبيه، ولا أورد أية إشارة مباشرة إلى عواطفه تجاه الرجل. وقد تذكر غرامشي في ما بعد أن العلاقات بين الكبار والأطفال في ساردينيا كانت علاقات قاسية عموماً. في أحد الأيام، وكان غرامشي صبياً، رافق امرأة من غيلارتسا إلى مستودع للمهمات خارج البلدة. وفي إحدى زوايا المكان كان هناك ما يشبه زريبة الخنازير، بارتفاع أربعة أقدام وبلا نوافذ. فتحت المرأة الباب فواجهها صوت شبيه بعواء الحيوان:

"كان ابنها في الداخل، وكان شاباً قوياً في حوالي الثامنة عشر من عمره، ولم يكن يستطيع الوقوف، فانهدر من مقعده باتجاه الباب، بقدر ما سمحت له بالحركة سلسلة مربوطة إلى خصره ومثبتة في حلقة بالجدار. كان الولد مغطى بالقاذورات، وكانت عيناه محمرتان كأعين الحيوانات الليلية. رمت أمه بمحتويات سلنتها، التي كانت عبارة عن خليط من علف الماشية وبقايا طعام البيت، في جرن حجري، وملأت جرناً آخر بالماء، ثم غادرنا المكان"<sup>(32)</sup>.

هذه الحادثة جعلت انطونيو يشعر بالاشمئزاز، ولكنه لم يذكرها لأحد... "حتى عندما كان الناس يتحدثون عن مآسي تلك المرأة المسكينة لم أكن أتكلم لأذكرهم بسوء حظ هذا الإنسان المسكين المنبوذ الذي حُلت عليه لعنة أم كهذه". وكان الصغار أيضاً قساة مع الكبار. وقد حاولت امرأة صبية عرفها غرامشي في سانتو لوسورجو أن تدخل أمها السليمة العقل، وإن كانت خرفة بعض الشيء، إلى مستشفى للمجانين مدى الحياة<sup>(33)</sup>.

وكانت القسوة المستخدمة ضد الأطفال وضد المسنين سواء بسواء، تأتي بشكل رئيسي من الجيل الذي يسميه غرامشي "الجيل المتوسط"، أي الجيل الذي يتراوح عمره بين العشرين والخمسين. الكثير من أبناء ذلك الجيل كان قد هاجر. أما من تبقى منهم يكدح بمشقة ليكسب رزقه فقد أصبح يتسم بالمرارة والأناكية، وكثيراً ما كان هؤلاء يصبون المرارة التي يشعرون بها على أطفالهم وعلى أقاربهم المسنين غير المنتجين<sup>(34)</sup>.

وشعر غرامشي أنه ضحية هذه المعاملة: "كنت مجبراً على تقديم تضحيات كثيرة. ولأن صحتي كانت بهذا السوء، أقنعت نفسي بأنني كنت شيئاً هناك تسامح ما في وجوده، وبأنني دخيل على عائلتي نفسها. مثل هذه الأمور لا تنسى بسهولة، وهي تترك الكثير من الآثار الأعمق مما نعتقد"<sup>(35)</sup>.

قطع غرامشي لدراسته أدى به إلى أن يشعر بالغيظ من الأغنياء والمميزين في مجتمعه، وتراه يتحدث عن "غريزة الثورة ضد الأغنياء. لم أكن أستطيع الذهاب إلى المدرسة، أنا الذي كنت أحصل على درجة عشرة في كل المواد في المدرسة الابتدائية، ومع

ذلك، كان أبناء اللحام والصيدلي وبنات الأقمشة يفعلون<sup>(36)</sup>. ورأى غرامشي علاقة مباشرة بين تجربة الطفولة هذه وربط نفسه سياسياً فيما بعد بالطبقات الأدنى.

ولكن غرامشي لم يترك الدراسة إلا سنتين، لحسن الحظ، جمعت أمه وأخواته خلالهما ما يكفي من المال لإرساله إلى الـ"جينازيو" في سانتو لوسورجو. وذلك من مكاسبهن القليلة كخياطيات. (وسرعان ما بدأ غرامشي يساهم في تمويل دراسته إذ صار يعمل ككاتب حسابات خارج أوقات الدراسة)<sup>(37)</sup>. ونظراً لأن المدرسة كانت تبعد أحد عشر ميلاً عن بيته، وكانت وسيلة المواصلات الوحيدة عبارة عن عربة بطيئة، فقد اتخذ انطونيو لنفسه مسكناً في بيت فلاحي قريب من المدرسة. وكان يدفع خمس ليرات شهرياً مقابل غرفة وأغطية السرير ووجبات متواضعة<sup>(38)</sup>. وكثيراً ما كان يقضي عطلة نهاية الأسبوع في غيلارستا، إذ كان يعود إلى البيت يوم السبت، سيراً على الأقدام أحياناً، ليغادره مجدداً صباح الاثنين<sup>(39)</sup>. كانت مدرسة الـ"جينازيو" بائسة، إذ كانت تمولها البلدية بدلاً من الدولة. وكانت هيئتها التعليمية تتألف من "ثلاثة يسمون أساتذة"، أي منهم "لا يساوي أكثر من تينة بابسة"، وكان هؤلاء مسؤولون عن تدريس سنوات الدراسة الخمس في تلك المرحلة الدراسية<sup>(40)</sup>. وهنا انتهت اهتمام غرامشي بالعلوم والرياضيات<sup>(41)</sup>.

بين عامي 1908 و1911، تابع غرامشي دراسته في ثانوية جوفاني ماريا دينوري في مدينة كالياري عاصمة ساردينيا، على بعد حوالي خمسة وسبعين ميلاً عن غيلارستا. واختار غرامشي فرع اللغة الإغريقية بدلاً من الرياضيات، أملاً أن يصبح أستاذاً للآداب. ولم يرو لنا غرامشي إلا قليلاً عن حياته في كالياري، ربما نتيجة لتجاربه غير السارة هناك. وقال في رسالة كتبها في وقت لاحق إلى أخيه كارلو:

"ربما كنت قد حسدنتي أحياناً لأنه أمكنني أن أذهب إلى المدرسة. ولكنك حتماً لا تعرف ما مررت به من أجل الدراسة. سأكتفي هنا بالإشارة إلى ما حدث لي في السنوات بين 1910 و1912. في عام 1910، ولأن نانارو (هو جينارو شقيق انطونيو الأكبر) كان موظفاً في كالياري، ذهبت لأسكن معه. وتسلمت مصاريف الشهر الأول ثم لا شيء بعد ذلك. كنت في عهدة نانارو كلية، ولم يكن يكسب أكثر من مئة ليرة في الشهر. غيرنا مكان سكننا، وسكنت أنا غرفة صغيرة تساقطت كسوة جدرانها بسبب الرطوبة. كان للغرفة نافذة واحدة صغيرة تفتح على منور كان أقرب إلى المرحاض منه إلى الفناء. وعرفت فوراً أنه لم يكن باستطاعتنا الاستمرار بتلك الطريقة نظراً لمزاج نانارو السيء. كان يلومني على أي شيء. وبدأت بعدم تناول قهوة الصباح، ثم صرت أوجل وقت طعام الغذاء شيئاً فشيئاً لكي أستغني عن العشاء. بهذه الطريقة كنت أكل مرة واحدة في اليوم على مدى ثمانية أشهر. وأنهيت سنتي الثالثة في المدرسة الثانوية وأنا في حال جدية تماماً من سوء التغذية\*"

مواقف غرامشي السياسية في المستقبل بدأت تأخذ شكلها الواعي في كالياري. في تشرين الأول (أكتوبر) 1910، وفي موضوع بعنوان "المضطهدين والمضطهدين"، نجده يمدح "النضال المتواصل" للجنس البشري ضد استبداد "الرجل الواحد، أو الطبقة الواحدة، أو حتى شعب بكامله"<sup>(42)</sup>. هذا الموضوع، بكل ما فيه من سذاجة، يستيق مباشرة الكثير مما كتبه فيما بعد عن السياسة والنضال الطبقي: "عندما يشعر الرجال بقوتهم ويدركون مسؤوليتهم وقيمتهم، فإنهم لا يريدون من رجل آخر أن يفرض إرادته على إرادتهم وأن يسيطر على أفكارهم وأعمالهم". وبعد الاحتجاج على تأليه كل إيطالي لغالبياردي دون أن يقيم أي من الإيطاليين مثاليته العالية، ينتهي غرامشي بموضوعه إلى فقرة راديكالية تستعيد ذكرى فيكرو: "لقد ألغت الثورة الفرنسية الكثير من الامتيازات ورفعت مستوى العديد من المضطهدين، ولكنها اقتصرت على إحلال طبقة في السلطة محل أخرى. ومع ذلك، فإنها علمت درساً عظيماً هو أنه يمكن التغلب على الامتيازات والتبانيات الاجتماعية نظراً لأنها منتجات اجتماعية وليست طبيعة المجتمع"<sup>(43)</sup>.

ويبدو أن دراسة الإغريقية في كالياري قد أيقظت اهتمام غرامشي بفقهاء اللغة (الفيلولوجي) الذي أصبح موضع اهتمامه الدائم مدى الحياة. وكان غرامه باللغات كثيفاً، وربما كان هذا في بعضه نتيجة لأن غرامشي، مثل كل المثقفين الساردينين، كان مضطراً لتعلم لغتين: الساردينية والإيطالية. وكانت اللغة الساردينية لغة طفولته، وكان في ما بعد سعيداً بذلك. ثم صار غرامشي يعتقد أن إهمال اللهجة المحلية، وهو إهمال يتميز به العديد من العائلات البورجوازية في جنوب إيطاليا، يعيق الخيال الإبداعي عند الأطفال ويمنعهم من التعبير عن أنفسهم بواقعية ودقة، حتى بالإيطالية<sup>(44)</sup>. وفي عام 1927، كتب غرامشي إلى شقيقته تيريزا حول ابنها يقول: "أي لغة يتكلم؟ أمل أن تدعيه يتكلم الساردينية، وألا تجعل الأمور صعبة بالنسبة له في هذا المجال. في رأيي أنه كان من الخطأ عدم السماح لادميا (ابنة جينارو) بتكلم الساردينية بحرية كطفلة. كان هذا مسيئاً لتطورها الفكري ووضع قيوداً على خيالها. عليك ألا ترتكبي هذا الخطأ مع أطفالك.. وإلى هذا، فإن الإيطالية التي ستعلمه إياها ستكون لغة فقيرة ومسطحة، مكونة فقط من كلمات وجمل قليلة من محادثاتك معه.. ولن يكون له اتصال بالعالم المحيط به، وسينتهي إلى تعلم رطانتين ولا لغة.. إني أحتك بقوة على عدم ارتكاب هذا الخطأ، بل دعي أطفالك يمتصون كل (اللغة) الساردينية التي يريدون ودعيهم ينشئون عفوية في البيئة الطبيعية التي ولدوا فيها"<sup>(45)</sup>.

هذا الطلب لا يوحى بمعرفة بنفسية الأطفال فحسب، بل ببعض الشعور بالوطنية الساردينية أيضاً. في الرسالة نفسها يشير غرامشي إلى حثه لزوجه الروسية على تعليم ابنهما بعض الأغاني الشعبية الساردينية، بالرغم من أن ساردينيا لم تكن إلا قليلاً "البيئة الطبيعية" للولد، نظراً لأنه لم يعيش هناك أبداً. واعترف غرامشي أيضاً أنه أيد ذات مرة استقلال ساردينيا: "كم من المرات رددت هذه الكلمات: ليذهب كل سكان القارة إلى البحر!"<sup>(46)</sup>. طبعاً، هذا العداء تجاه "سكان الفارة" الإيطاليين لم يكن أكثر من تعميم لشعوره المبكر بـ"غريزة الثورة ضد الأغنياء". وكسارديني، كان غرامشي ينظر إلى الدولة الإيطالية باعتبارها المضطهد الرئيسي والسبب الأساسي لحالة التخلف التي تعيشها الجزيرة<sup>(47)</sup>.

لا يعرف إلا القليل عن نشاطات انطونيو السياسية السابقة لذلك. وتذكر شقيقته تيريزينا أنه تلقى وهو في الرابعة عشر من اشتركا في صحيفة "أفانتي" (إلى الأمام)، اليومية التي يصدرها الحزب الاشتراكي، وربما كان الاشتراك قد أتاه من جينارو، وتذكر تيريزينا كذلك أن انطونيو سأل ساعي البريد "أن يسلمه الجريدة مباشرة، لأن ملاحظاتي أبي وتأنيباته كانت تزعبه"<sup>(48)</sup>. مهما كان مغزى هذه الحادثة، فالمؤكد أن انطونيو كان متعاطفاً مع الأفكار الاشتراكية منذ وقت مبكر يعود إلى عام 1910\*. في تلك السنة، كان انطونيو بالفعل من القراء المدمنين على قراءة "ال فياندانتي". وهي مطبوعة اشتراكية تصدر في ميلانو، وتضم بين كتابها اشتراكيين وراديكاليين مثل أرتورو لابريولا وانطونيو غراتسيادي وج.م. سيراتي وتشيزاري سبيلانزون. ولم تكن هذه مطبوعة رسمية للحزب ولكنها كانت معادية للإصلاحية بقوة، وكانت تعارض الاتجاه الموالي لجولييتي داخل الحزب، وهو موقف راسخ في كل أفكار

غرامشي<sup>(49)</sup>. ومع ذلك، كان انطونيو بعيدا عن كونه اشتراكيا ملتزما في تلك السنوات المبكرة. ويشهد هو نفسه بأن قراءته المبكرة "للأشياء التي كتبها ماركس" لم تكن من فضول فكري<sup>(50)</sup>.

كانت جزيرة ساردينيا في أيام شباب غرامشي منطقة متخلفة بشكل غير معقول، حتى قياسا بجنوب إيطاليا. وكان النظام الإقطاعي لملكية الأراضي قد بقي قائما فيها حتى عام 1835، أي لوقت طويل بعد توقيفه في مناطق أوروبا الأخرى (باستثناء روسيا). ولم يكن إلغاء الإقطاع قد غير إلا القليل في ساردينيا. في المناطق الأخرى أدى إلغاء الإقطاع إلى بروز مبادرات الطبقة الوسطى، ثم إلى الوطنية الثورية "القومية"، أما في ساردينيا فلم يحدث شيء من هذا. كانت الجزيرة معزولة جغرافيا واجتماعيا وثقافيا. وكان لطبقتها الحاكمة ولنبلاء الأرض فيها ترابط هوية ضئيل مع إيطاليا أو مع ساردينيا باعتبارها ساردينيا. وربما كان بعض السبب في أنه لم يكن للجزيرة أي تقليد ثقافي خاص بها يعود إلى أن السيطرة الإسبانية كانت أكثر استمرارا وديمومة على ساردينيا منها على أي من مناطق إيطاليا الأخرى. واستنادا إلى غرامشي فإنه "كان للصقليين تقاليد عظيمة وكانوا موحدين بقوة، أما في ساردينيا فلا شيء من هذا القبيل"<sup>(51)</sup>.

اقتصاديا، كان يمكن مقارنة الأوضاع السائدة في الجزيرة بأكثر الأقاليم تخلفا في جنوب إيطاليا القارية. وكان الفقر والجريمة من الأمراض المستوطنة فيها. وفي أيام غرامشي كان في ساردينيا سرقات وحوادث احتيال أكثر مما في أي إقليم آخر من إيطاليا<sup>(52)</sup>. ومن أصل سكان كان عددهم 34055 نسمة، وهذا الرقم يتضمن 15000 رجل يعملون في مناجم الرصاص والزنك في اغليسياس، وفي أقصى الركن الجنوبي الغربي للجزيرة<sup>(53)</sup>، ولم تنتج "غرف العمل" المحلية في تنظيم أكثر من 2790 عاملا، وهكذا كانت الحركة العمالية الساردينية ما زالت في أيام الطفولة، وكانت الاشتراكية الساردينية غير موجودة تقريبا.

في عام 1910 نجح عمال مناجم إقليم اغليسياس أخيرا، وبقيادة منظمين من إيطاليا القارية، في تكوين نقابة عمالية لها بعض الأهمية، ولكن النقابة لم تحقق غير تقدم ضئيل جدا تجاه مقاومة الفلاحين المحليين الذين كانوا يخشون أن يكون لعمال المناجم خطة ما تجاه ممتلكاتهم<sup>(56)</sup>. وبالرغم من الحجم الصغير الذي كانت عليه هذه الحركة، فقد اعتبرها غرامشي دوما مهمة. وفي عام 1917، طلب غرامشي من أنجيلو كورسي أن يكتب بضع مقالات عن "البروليتاريا الساردينية" في صحيفة "ال غريجو ديل بوبولو" (صحيفة الشعب)، وهي أسبوعية تورينو الاشتراكية، لكي يطلع قراء الصحيفة على "ساردينيا الجديدة" وللمساهمة في "تدعيم التضامن الطبقي للبروليتاريا الإيطالية"<sup>(57)</sup>.

كان للحياة في هذا المجتمع الساكن نسبيا تأثيرها العميق على غرامشي. ولم يضع غرامشي قدما خارج ساردينيا قبل أن يصبح في العشرين من عمره.. الواقع أنه نادرا ما خرج عن حدود محافظته كالياري. وبعد سنوات استذكر غرامشي "جهده المستمر لتجاوز تلك الطرق المتخلفة للحياة والتفكير التي كانت من خصائص الساردينيين في مطلع القرن". وتحدث غرامشي عن حاجته إلى استبدال معالجته الضيقة للأمور بمعالجة "قومية" و"أوروبية"<sup>(58)</sup>.

عندما كان صبيا، كان غرامشي يشعر أنه غير محبوب، وكان يشعر بالعزلة وبالإهانة. وفي رسائل كتبها إلى زوجته بين عامي 1923 و1926 أشار إلى "بالوعة ماضي"<sup>(59)</sup>، وإلى العيش ك"دب في كهف" وإلى إخفاء مشاعره خلف "قناع قاس أو ابتسامة ساخرة.. لمنع الآخرين من معرفة حقيقة ما أشعر به"<sup>(60)</sup>. وبالرغم من أنه أراد أن يكون اجتماعيا كانت علاقته مع الآخرين شديدة التعقيد. وبدا لغرامشي أنه... "أن أكون محبوبا هو استحالة مطلقة تكاد تكون قدرية"، وشعوره هذا تابع اجتياحه أحيانا حتى في السنوات اللاحقة<sup>(61)</sup>. هذه المشاعر قد تساعد في توضيح رغبته الطويلة عن الالتزام بالحركة الاشتراكية وتردده اللاحق في استلام منصبه الذي يستحق كزعيم وطني للحركة. "كم من مرة تساءلت فيها عما إذا كان لرجل ما أن يربط نفسه بالجمهير في حين أنه لم يحب أحدا في حياته، ولا حتى والديه، وعما إذا كان بإمكان المرء أن يحب جماعيا إذا لم يكن قد أحب بعمق مخلوقا إنسانيا واحدا"<sup>(62)</sup>. ولم يكن رد فعل غرامشي على هذه الجراح النفسية سلبيا ولا شعورا بالشفقة على الذات، بل اقتناعا بأنه لا يستطيع الاعتماد على غير نفسه. وكتب انطونيو إلى أخيه كارلو يقول: "لا تتوقع شيئا من أحد، وهكذا تستطيع أن تتجنب خيبات الأمل. علينا أن نفعل فقط ما نعرف أننا نستطيع فعله، وأن نتجه في سبيلنا"<sup>(63)</sup>. ومرة أخرى: "كدت لا أعرف أبدا إلا المظهر الأكثر سوءا من الحياة، ولكني نجحت دوما في العثور على طريقي، بالشكل الحسن أو السيء"<sup>(64)</sup>.

وكان لإرث غرامشي الساردينية جانبه الإيجابي أيضا على العموم. فمن ناحية ساعده هذا الإرث على فهم المشاكل الاجتماعية والاقتصادية لمنطقة جنوب إيطاليا أكثر بكثير مما فعل معظم رفاقه في الشمال. وقام غرامشي بين عامي 1914 و1926 بمحاولات عديدة لتوثيق العلاقات السياسية بين الحركة العمالية في الشمال ومنظمات الفلاحين في الجنوب. وفي نهاية مسيرته السياسية الناشطة، في عام 1926، ساهم غرامشي مساهمة أساسية في الأدبيات التي وضعت حول مشكلة جنوب إيطاليا في مقالته "بعض موضوعات المسألة الجنوبية". وكان الكثير من كتاباته في "دفاتر السجن" على علاقة بالمشكلات الفلاحية، مثل: الثغرة الواسعة التي تفصل بين الجنوبيين المتعلمين والفلاحين، والتباينات اللغوية بين الفلاحين والانتلجنسيا ودلالاتها الطبقيّة، ومشكلة "الإيطاليين الاثنين": المتقدمة أحدهما نسبيا والمصنعة في الشمال، والأخرى المتخلفة شبه الكولونيالية في الجنوب. ويبدو كذلك أن اهتمامه بماكيا فيلي كان ينبع في بعضه من برنامج ماكيا فيلي لإشراك الفلاحين في ميليشيا أوجدت للدفاع عن فلورنسا<sup>(65)</sup>.

وخلفت ساردينيا أيضا أثرها على شخصية غرامشي وقيمه. وما الذي كان يمكن أن يشكل لأستاذ ديالكتيك المستقبل دافعا أكثر من البورجوازية الصغيرة في أصوله؟ لقد ووجه غرامشي منذ سني حياته المبكرة جدا بتناقضات أساسية بين طموحاته وشبه استحالة تحقيق هذه الطموحات، وبين عقله المتسائل والباحث دوما واللاحرورية الأبدية في محيطه. في النهاية، كان تعليمه وكانت إنجازاته كلها إيطالية، ولكن الدوافع التي قادت إليها كانت ساردينية<sup>(66)</sup>.

بعد التخرج من ثانوية كالياري في أيلول (سبتمبر) 1911، غادر غرامشي ساردينيا إلى جامعة تورينو. وبالرغم من أنه لم يكن باستطاعة غرامشي أن يعرف ذلك، فقد كان لتورينو أن تصبح مدينته بالتبني، كطالب أولا، ثم كزعيم للحركة العمالية التورينية الشابة والسريعة النمو.



## 2- سنوات التكون في تورينو

"شاركنا كليا أو جزئيا في حركة الإصلاح الأخلاقي والفكري التي أطلقها بينيديتو كروتشي في أيطاليا.."  
غرامشي -17 آب (أغسطس) 1931

### السياسة والثقافة الايطاليتان عام 1911

في الأشهر الأولى من عام 1911 كانت ايطاليا ما قبل الفاشية قد وصلت الأوج بطرق مختلفة كثيرة. ففي سنواتها الخمسين كمملكة مستقلة، وخصوصا في السنوات العشر الأخيرة، كانت ايطاليا قد حققت تقدما مذهلا في الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية<sup>(1)</sup>. وكان "المعرض الصناعي الدولي" الذي أقيم في تورينو بين نيسان (أبريل) وتشرين الثاني (نوفمبر) من عام 1911 رمزا ملموسا لهذا النمو وللتفاؤل السطحي الذي رافقه. وقد زار المعرض 260000 شخص وغادره الجميع مقتنعين تماما ب"تقدم التقدم"<sup>(2)</sup>.

ولم يكن نجم جوفاني جوليتي، حكم السياسة الايطالية بين عامي 1903 و1914، أكثر بريقا منه في تلك الفترة. وكانت سياسته في تحويل الاشتراكية الايطالية من حركة ثورية إلى حركة تستهدف تحسين موقع الطبقة العاملة داخل النظام الرأسمالي أثبتت نجاحها التام في الظاهر. ولكن حالات الخلل الأساسية في البنية الاقتصادية الايطالية لم تكن إلا لتجد تعبيرها السياسي، والسنوات القليلة التالية أنضجت تغيرات بعيدة المدى في السياسة الايطالية أربكت حتى "الثعلب البيونتي" العجوز (جوليتي)، بالرغم من فهمه السياسي المتفوق. وحققت التطرف نجاحات دراماتيكية سواء في اليمين أم في اليسار. وفي عام 1910، أنشأ المتطرفون القوميون الايطاليون لأنفسهم حزبا، كان أحد شعاراته الديماغوجية يصور "ايطاليا البروليتارية" متراصة ضد أمم أوروبا "البلوتوقراطية"<sup>(3)</sup>. أما بالنسبة للحزب الاشتراكي الايطالي، فقد كان جوليتي أعلن أمام البرلمان في 8 نيسان (أبريل) 1911 أن "كارل ماركس قد وضع على الرف"<sup>(4)</sup> (وهو ما يعني أن الإصلاحيين المعتدلين صارت لهم السيطرة الكاملة على الحزب)، ولكن، وبالرغم من ذلك، فقد عاد الجناح الثوري في الحزب بعد سنة واحدة إلى السيطرة على القيادة، ولم يتمكن المعتدلون أبدا بعد ذلك من الحصول على الأكتية داخل الجسم الرئيسي للاشتراكية الايطالية.

والمثير للسخرية أن الحرب الليبية 1911-1912، التي شنتت شبه الانسجام الذي كان يسود ايطاليا قبل الحرب، كانت إلى حد كبير من عمل جوليتي نفسه<sup>(5)</sup>. ودفعت الحرب معظم الحركة الاشتراكية باتجاه النقد الراديكالي لمجمل النظام الجوليتي، وزادت من قوة القوميين. وكانت الحرب مسؤولة إلى حد ما عن الأزمة الاقتصادية الايطالية 1911-1913<sup>(6)</sup>. وفي عام 1913، عندما جرت أول انتخابات على أساس الاقتراع العام للذكور، كان موقع جوليتي من الضعف بحيث أنه لم يستطع البقاء في السلطة إلا بموافقة الكاثوليك. بالرغم من هذا، كانت أصوات الاشتراكيين قد تضاعفت في هذه الانتخابات، وبعد ذلك بقليل قرر جوليتي الاستقالة، وحل محله انطونيو سالانديرا، الممثل الرئيسي لليمين.

وكانت الثقافة الايطالية كذلك في أزمة في عام 1911، وكانت أزمة الثقافة أكثر وضوحا بكثير من أزمة السياسة الايطالية<sup>(7)</sup>. وكانت الايجابية، أي محاولة تطبيق طرق العلوم الطبيعية على كل مظاهر الواقع، قد فقدت سطوتها بين المفكرين الايطاليين. وفي التعامل مع "الأنواع" المجردة أو الحقائق المعزولة فحسب، وليس مع الواقع الملموس والمدرک تطوريا، وكذلك في طرح أسئلة مثل أي من صيغ التنظيم السياسي والاجتماعي هو الأكثر "طبيعية" بالنسبة للإنسان، لم تكن الايجابية على اتصال لا مع الطموحات الاشتراكية للييسار ولا مع الطموحات القومية لليمين.

ومع تراجع الايجابية، ظهرت جملة من الإيديولوجيات اللاعقلانية مثل: "عبادة الشخصية"، وتضخيم الشعور الصافي أو العمل الصافي كضد للتفكير، وتمجيد العنف. وفي نيسان (أبريل) 1914 تحدث الزعيم المستقبلي فيليبو مارينيتي أمام "جمعية دانتي أليغيري" في تورينو. ولقي ترحيبا بملاحظاته التالية: "بالنسبة لنا، نحن المستقبلين، فإن كلمة ايطاليا تعني لنا شيئا فوق الأحزاب، إنها تعني عبقرية العرق اللاتيني، وهي أكثر تألقا من كلمة الحرية... والحرب هي ضرورة تطهيرية. إنها الطهارة الصحية. فالحياة تقوم على النضال"<sup>(8)</sup>. وكان التعبير الايطالي الأكثر تميزا للغياب الراهن للتوجه الفلسفي هو الشك العميق. وفي الميدان الأدبي اتخذ هذا الشك لنفسه صيغة السوداوية والانهزامية وحب الجمال الذي لم يكن يرى في غير الحادثة أو الصورة المتلاشية أمرا حقيقيا يستحق الاهتمام.

كانت هنالك فلسفات أكثر شمولية سارية في ايطاليا عام 1911، وعلى رأسها المثالية التاريخية لبينيديتو كروتشي وجوفاني جنتيلي والمادية الديالكتيكية الماركسية. وكلتا هاتان الفلسفتان هاجمتا الايجابية وكانتا مسؤولتان جزئيا عن تراجعهما.

### جامعة تورينو

كانت جامعة تورينو قبل الحرب العالمية الأولى متخلفة بعض الشيء عن بقية الجامعات الايطالية في تشربها للتيارات الفكرية الجديدة. ولم تكن الماركسية ولا المثالية قد مترست هناك بقوة<sup>(9)</sup>. وكان أكيلي لوريا، أستاذ الاقتصاد السياسي في تورينو يعتبر نفسه ماركسيا، ولكنه كان ماركسيا شديدا الانحراف عن الماركسية إذا قبلنا حكم فريدريك أنجلز المزدرى له<sup>(10)</sup>. وكانت مثالية كروتشي قد حققت أول انتصار أساسي لها فينورينو مع تعيين أمبرتو كوزمو أستاذا للأدب الايطالي في عام 1913<sup>(11)</sup>. ومعظم الأساتذة الذين بقوا في أماكنهم أيام غرامشي (في الجامعة) بقوا مخلصين للطريقة الايجابية أو على الأقل لأفضل العناصر في تلك الطريقة، أي الدقة والعناية والمستويات المتشددة للتوثيق. بعض الأساتذة الآخرين اعتنقوا مبادئ أخلاقية رومانطيقية تقريبا. ويشهد على ذلك الوصف الذي أعطاه لآرتورو فارينيلي، أستاذ الأدب الألماني، أحد تلامذته:

"كان هنالك شيء بركاني في محاضراته.. بين الحين والآخر كان يدير رأسه باتجاه النافذة إلى يساره، وكان الضوء الذي يسقط عليه، مع ضحكته، وخصلات شعره الجعدة على جبهته، يعطيه مظهرا غريبا، مظهر الملاك أو الشيطان الذي كان يدلنا على السبيل. كانت أخلاقية جديدة تلك التي يدرسنا إياها، قوانينها العليا هي الصدق مع أنفسنا، والتخلي عن الأعراف، والتضحية في سبيل القضية التي كرسنا حياتنا من أجلها"<sup>(12)</sup>.

ولكن الجامعة كانت -على العموم- واحدة من أنشط الجامعات سياسيا في إيطاليا. وخلال الحركة الكبرى "باتجاه الاشتراكية" لعام 1890 انضم الكثيرون من أساتذة الجامعة ومفكرون في تورينو إلى الحزب الاشتراكي، وفي عام 1893 أنشأ الكاتب ادموندو أميتشيس الحلقة الاشتراكية في جامعة تورينو<sup>(13)</sup>. صحيح أنه كان لمعظم اشتراكيي الجامعة أفكار غاية في الغموض والعاطفية حول طبيعة الاشتراكية، وأن الكثير منهم ترك الحزب بعد عام 1900، ولكن الأكتريية العظمى من هؤلاء بقيت على ديمقراطية ثابتة وأصبحت من الليبراليين الناشطين. وفي تلك الأيام أعطى هؤلاء الأساتذة جامعة تورينو، بما لهم من مستويات دراسة عليا ومن ليبرالية ناشطة، سمع "التصلب السياسي والثقافة المناضلة"<sup>(14)</sup>.

وكان من بين الذين وجدوا في الجامعة مع غرامشي بين عامي 1911 و 1913 القادة الشيوعيون فيما بعد باليرو تولياتي وأوميرتو تيرانتشيني وأنجيلو تاسكا، والقادة الاشتراكيون في ما بعد أومبرتو كالوسو وجوزيبي روميتا، ومناضلون ليبراليون في المستقبل مثل ببيرو غوييتي وكارلو ليفي وماريو لامبرتي. واستمر الشيوعيون في انتقاء العديد من أهم قادتهم -وبينهم لوجي لونغو وفيليتشي بلاتوني- من صفوف تلاميذ جامعة تورينو<sup>(15)</sup>. وقال تولياتي أن "النظام الجديد"، الصحيفة التي أسسها غرامشي بعد الحرب العالمية الأولى، "كانت قد ولدت في جامعة تورينو"<sup>(16)</sup>.

وصل غرامشي إلى تورينو بلا موارد مالية. وجاء إنقاذه عن طريق صندوق الجامعة للمنح الخاصة الذي أنشئ قبل ذلك بسنوات من أجل الطلبة المعوزين والمولودين في المحافظات القديمة لمملكة ساردينيا. وكان امتحان المسابقة صعبا، بل كان أصعب بكثير من الامتحانات المطلوبة قبل التخرج في الشهادة الثانوية الإيطالية، ولكن الطلبة الفائزين كانوا يكافأون براتب محترم يبلغ سبعين ليرة في الشهر، على مدى تسعة أشهر في السنة، لكل سنوات الدراسة في الجامعة أو طالما حصل الطالب على درجات جيدة وتابع المحاضرات بشكل منتظم<sup>(17)</sup>. وجاء ترتيب غرامشي الخامس في الامتحان وحصل على إحدى المنح<sup>(18)</sup>. وكان أحد المتسابقين الناجحين هو بالميرو تولياتي، وهو شاب نحيل جدي من مقاطعة بيومنتي كان قد تابع أيضا دراسته الثانوية في ساردينيا. وسرعان ما أصبح الاثنان صديقين.

في الجامعة تابع غرامشي دروسا في الإيطالية واللاتينية والأدب الإغريقي والألسنيات واللغات الرومانسية واللغة الألمانية والجغرافية والتاريخ الحديث وتاريخ الفلسفة والفلسفة النظرية<sup>(19)</sup>. هذا المنهج لا يعكس مستوى التشديد الإيطالي على الكلاسيكيات فحسب، بل يعكس أيضا اهتمام غرامشي الخاص باللغات والألسنيات. وعندما كان غرامشي ما زال طالبا قدم مساهمات عديدة في هذا الميدان إلى صحف اختصاصية<sup>(20)</sup>. وكان ماتيو بارتولي، أستاذ غرامشي في الألسنيات، يتوقع له أشياء عظيمة في هذا المجال، وخصوصا في محاربة "القواعديين الجدد"، الذين انحدروا بالألسنيات إلى مستوى التحليل الشكلي بدلا من دراسة اللغة في إطارها الاجتماعي والتاريخي<sup>(21)</sup>. بل إن بارتولي اختار غرامشي لكي يساعده في تحضير منهج وببيلوغرافيا الدروس التي يعطيها في الألسنيات للسنة الدراسية 1912-1913<sup>(22)</sup>. وكان مما خيب آمال بارتولي أن غرامشي تخلى في النهاية عن فكرة امتهان الألسنيات، ولكن خبرته في المادة أثبتت كونها ذات أهمية في دراساته عن المجتمع والثقافة.

وكانت عادات غرامشي في الدراسة دقيقة جدا. كان يوزج كل هام يقرأه. وملا دفاتر كثيرة منظمة حسب الموضوع حول قراءته، بل أنه احتفظ بأرشيف بالبطاقات لمقالات الصحف التي أثار اهتمامه<sup>(23)</sup>. والإشارات الكثيرة في "دفاتر السجن" إلى المقالات التي ظهرت أيام شباب غرامشي تشهد على تنظيمه الذهني. وعندما كان طالبا، كان سريعا في الاعتراف بمحدودية المعرفة الفيلولوجية المستقاة من الكتب، كما نرى في موضوع ساخر كتبه عام 1913، هو عبارة عن أطروحة هامة حول "تاريخ" مسمار صديء معين منذ أيامه الأولى في العوارض الرئيسية لبرج السفينة وحتى وصوله إل موطنه الحالي في جيب غرامشي<sup>(24)</sup>. ومع ذلك، فقد كان غرامشي يكن احتراما لأفضل الفيلولوجيين، وخصوصا لعدم تقهيمهم بالأحكام السطحية والذاتية: "علي اليوم أن أدافع بشدة عن الثقافة الكتابية التقليدية القديمة ضد الضحالة السطحية أو البوهيمية التي أدت، وما زالت تؤدي، إلى الكثير من الويلات"<sup>(25)</sup>.

الأستاذ الآخر الذي أثر في غرامشي كان أمبرتو كوزمو، الذي أوصلت محاضراته عن دانتلي الطلاب إلى أعمال الناقد الأدبي الكبير فرانثيسكو دي سانكتيس (1817-1883)، وعبر دي سانكتيس إلى فلسفة هيغل وكروتشي. وأصبحت المثالية الجديدة - كما سنرى- عنصرا من عناصر القوة في فكر غرامشي إلى درجة أنه وصف في ما بعد كل توجهه الثقافي بأنه "كروتشيانى إلى درجة ما"<sup>(26)</sup>. وكان غرامشي على علاقة شخصية وثيقة بكوزمو وبقي كذلك لسنوات بعد مغادرته الجامعة<sup>(27)</sup>. وكان كوزمو سياسيا ليبراليا. والأستاذان الليبراليان الأخران اللذان حظيا بتقدير غرامشي كانا لوجي ايناودي وفرانثيسكو روفيني، وكان أولهما يحاضر في الاقتصاد السياسي الإيطالي والثاني في العلاقات بين الكنيسة والدولة<sup>(28)</sup>.

خلال سنوات الدراسة الجامعية كان غرامشي يعمل بدأب، وكانت بنيته الضعيفة قد أجهدت كثيرا. وفي عام 1916 كتب إلى أخته أنه لا يذكر يوما واحدا مر عليه في السنوات الثلاث الماضية ولم يعان فيه من الصداع أو الدوار أو الآم المعدة<sup>(29)</sup>. ولم يستطع أن يقدم أيا من الامتحانات التي كانت في برنامجه لخريف 1913 حتى الربيع التالي<sup>(30)</sup>. وبالرغم من هذه الصعوبات فقد أجاد غرامشي في الامتحانات الجامعية السبعة التي قدمها بين تشرين الثاني (نوفمبر) 1912 وتشرين الثاني (نوفمبر) 1914<sup>(31)</sup>. وقد حصل في الألسنيات على العلامة التامة (30 نقطة) مع امتداح خاص.

وبالرغم من ذلك، فإنه لم يستكمل أبدا ما هو مطلوب للحصول على الشهادة الجامعية. وقد تسجل متأخرا جدا (في 30 كانون الثاني/يناير 1915) في سنته الجامعية الأخيرة، وبدأ الدوام وهو يبدو فاتر الهمة وقلقا<sup>(34)</sup>. ورآه أنيبالي باستوري، أستاذ الفلسفة النظرية الذي تابع غرامشي محاضراته في عام 1915، أكثر ابتعادا عن القضايا الفكرية البحتة وأكثر توقا إلى النشاط العملي. وكان اهتمامه الرئيسي في سنته الجامعية الأخيرة، استنادا إلى البروفيسور باستوري، على "الكيفية التي يفود فيها الفكر إلى العمل...، وكيف يمكن للفكر أن يجعل الأيدي تتحرك، وكيف ولماذا يمكننا أن نعمل بواسطة الأفكار"<sup>(33)</sup>. هذا الاهتمام بالعمل الناشط، مترافقا مع نشاطه الأخير في "منظمة الشباب الاشتراكي" جعله يتساءل ما إذا كان عليه أن يستمر في عمله الجامعي أو أن يدخل بكل قلبه في الحياة السياسية الناشطة<sup>(34)</sup>. وحلت المعضلة بالنسبة له عندما أعلنت الحرب ضد النمسا-المجر يوم 23 أيار (مايو) 1915.

تعزل جبال الألب البحرية وجبال الأبنين منطقة بيمونتي عن البحر الأبيض المتوسط، وهي المنطقة البعيدة عن المراكز الثقافية الإيطالية التاريخية. وهي من أكثر المناطق الإيطالية "إقليمية"، أي من أقلها إيطالية، بالإضافة إلى أنها أكثر المناطق الإيطالية "أوروبية" لأن روابطها في الماضي كانت وثيقة مع فرنسا<sup>(35)</sup>. وهي إلى ذلك، ولأسباب اقتصادية وتاريخية متميزة، تشكل مركزا صناعيا هاما.

بعد حوالي عام 1900، عرفت أكبر مدن بيمونتي، وخصوصا مدينة تورينو، تطورا صناعيا سريعا وشاملا بشكل غير اعتيادي، بينما استمرت البلدات الأصغر ومناطق الريف في طريقة حياتها التقليدية<sup>(36)</sup>. وترافق هذا التطور بتحريك واسع للسكان من البلدان الصغيرة والريف باتجاه المدن الأكبر. وبينما بقي عدد سكان بيمونتي ثابتا تقريبا بين عامي 1901 و1911، فإن عدد سكان مدينة تورينو وحدها ازداد بنسبة تفوق 27 بالمائة، وارتفع من 338 ألف نسمة إلى 430 ألفا<sup>(37)</sup>.

وكان سكان تورينو نفسها ينقسمون أساسا إلى طبقتين: البروليتاريا الصناعية والبورجوازية الرأسمالية. ولم يكن في المدينة حرفيون يذكرون. وكان فيها القليل جدا من الطبقة الوسطى من كسبة الأجور يعملون في نشاطات كالخدمات الحكومية والتجارية. وكان لهذه الأوضاع عدد من الأسباب التاريخية. أحد الأسباب هو أنه عندما نقلت عاصمة إيطاليا من تورينو إلى فلورنس في عام 1865 انتقلت إليها أيضا نسبة كبيرة من الموظفين الحكوميين<sup>(38)</sup>. والسبب الآخر هو أن النكبات المصرفية الكبيرة التي وقعت بين عامي 1880 و1890 كانت كارثية بالنسبة إلى الطبقات الوسطى في تورينو غير المرتبطة بالصناعة<sup>(39)</sup>. ولكن السبب الأهم كان، على العموم، طبيعة الاقتصاد في منطقة بيمونتي، إذ أن التقاليد الحرفية والصيغ الأقدم من التجارة كانت قليلة الأهمية في بيمونتي المتخلفة منها في أي مكان آخر من شمال ووسط إيطاليا<sup>(40)</sup>. ومعظم صناعة بيمونتي بدأت كصناعة حديثة.

وكانت صناعة بيمونتي الجديدة تميل إلى أن تكون كبيرة، ومنها "فيات" و"أوليفتي"<sup>(41)</sup>. وأصبحت "فيات" مع مرور الزمن ضخمة إلى حد مكن ببيرو غوبيتي من وصفها بأنها "دولة صغيرة مطلقا لها أوتوقراطية الخاصة بها"<sup>(42)</sup>. هذه الصناعات صارت تسيطر على الحياة الاجتماعية والسياسية لتورينو، وبمرور الزمن كانت لها الغلبة على ما تبقى من الطبقات الوسطى في المدينة<sup>(43)</sup>. وخلافا لمثيلاتها في ميلانو وفلورنس، بقيت الطبقات الوسطى في تورينو محافظة أو هي كانت ليبرالية على طريقة جوليتي، وكان هنالك متطرفون قائلون سواء يمينا أو يسارا. وفي الجامعة فقط، حيث تعرضت السياسات الحوليتية والمحافظة لانتقادات واضحة، كان هناك دعم ملموس من الطبقة الوسطى للاشتراكية الملترزمة لدى الطبقات الأدنى<sup>(44)</sup>.

### الحركة العمالية الإيطالية في عام 1900

في عام 1901، كانت الصناعة الإيطالية توظف حوالي أربعة ملايين شخص أعمارهم فوق التاسعة، أي حوالي 23,8 بالمائة من الإيطاليين الموظفين توظيفا مربحا<sup>(45)</sup>. وكانت هذه النسبة أدنى بكثير من مثيلاتها في أوروبا الغربية<sup>(36)</sup>. وأكثر من ذلك، فإن إحصاء عام 1901 حدد الصناعة بكونها "نشاطا يهدف إلى إنتاج السلع"، وجرى تعداد حوالي مليون ونصف المليون من العمال باعتبارهم حرفيين، وغازلين وحائكين مستقلين، وآخرين يعملون في نشاطات غير مرتبطة بالرأسمالية الصناعية الحديثة. وفي مسح أجري في عام 1905، واستثنى الحرفيين وعمال البناء، ظهر أن هنالك ما مجموعه 1412000 عامل يعملون في 117000 "منشأة صناعية"<sup>(37)</sup>. وإذا أضيف عدد عمال البناء الوارد في إحصاء 1901، والبالغ 552000 عامل، يصبح مجموع عدد العمال الصناعيين حوالي مليونين، وهو رقم صغير نسبيا. وأكثر من ذلك، فإن حوالي 40 بالمائة من هذين المليونين كان يتألف من النساء والأطفال والمراهقين.

ولم يكن العاملون في الصناعة الإيطالية يشعرون بالتضامن الطبقي الذي كان يميز البروليتاريا الأوروبية. وكانت هنالك نسبة عالية من الهجرة من الريف إلى المدينة، وحافظ الكثير من العمال على صفاتهم الفلاحية وكانوا يعملون في وظائف زراعية جزئية الدوام. إضافة إلى هذا، فإن معظم المنشآت كانت تدار على أساس المستوى الصغير جدا من الإنتاج. هذه العوامل أدت إلى مستوى عام منخفض من المهارة لدى العمال "الصناعيين" الإيطاليين. ولم تكن إيطاليا ككل تقتفر إلى العمال المهرة، ولكن معظم هؤلاء كانوا يعملون لحسابهم الخاص في نشاطات حرفية قبل صناعية، وقد قاومت التقاليد الحرفية في إيطاليا، وبضراوة، تأسيس الصناعة الحديثة. ولم يكن في إيطاليا عمليا أية درجة وسطية بين العمال غير المهرة والعمال ذوي المهارة العالية، "بين الحرفي والفلاح الذي تحول عاملا يدويا بلا أية مهارات سوى شبابه وقوة ذراعه. وكان "العامل العادي"، ذلك النوع المميز من العمال في أكثر مراحل التطور تقديما، العامل ذو المستوى من التعليم والمهارات المهنية، قليل الظهور"<sup>(48)</sup>.

وكان العمال الإيطاليون في عام 1900 منظمين في إطار نوعين أساسيين من المؤسسات: النقابات (الاتحادات المهنية) و"غرف العمل". وكانت النقابة مفتوحة أمام كل العمال، أو على الأقل أمام كل العمال المهرة في صناعة ما. ولكن النقابات الإيطالية، كانت تعكس تقاليد حرفية وكوربوراتيفية عميقة الجذور، تشدد على التراتبية الهرمية للمهارات والخبرات المهنية داخل النقابة بأكثر مما يحصل في البلدان الأخرى<sup>(39)</sup>. وكان عامل المعادن لا يفكر بنفسه كعامل معادن بل كسباك أو نحاس أو مجلخ.

وكانت كل النقابات الإيطالية تقريبا قد أسست كأجهزة "للمقاومة"، أي كممثلة للعمال ملتزمة بالنضال الطبقي ضد رأس المال. ولكن هذه النقابات، بما كانت عليه من ضعف في تلك السنوات المبكرة، كانت بالضرورة أقل اهتماما بالثورة الاجتماعية من اهتمامها بمجرد الحصول على الاعتراف بها. وكان معظم هذه النقابات قد تشكل بين عامي 1900 و1904، وحتى عام 1911 لم يكن عدد المنتسبين إلى النقابات يتجاوز 219408 عمال<sup>(50)</sup>.

وبالرغم من أن النقابات الإيطالية المبكرة كانت ضعيفة، فإنه لم يكن من الممكن تجاهل الحركة العمالية الإيطالية ككل. وكان أحد مصادر قوتها هو "غرفة العمل"، وهي منظمة محلية مؤسسة لتضم كل العمال في بلدية أو محافظة معينة. وكانت هنالك منظمات مشابهة في البلدان الأوروبية الأخرى، مثل ال Trades Councils في بريطانيا، وال Kartelle في ألمانيا، وال Bourses de travail في فرنسا. وهذه الأخيرة أنشئت على نموذج الغرف الإيطالية الأولى، التي أسست في التسعينيات من القرن التاسع عشر، أي قبل عشر سنوات من تأسيس أول نقابة وطنية رئيسية. وكانت الغرف المبكرة قد عملت كمكاتب توظيف، وكانت تقدم المرافق الترفيهية والتعليمية، ولهذا فإنها كانت كثيرا ما تتلقى معونات من الحكومات المحلية<sup>(51)</sup>. وكانت الغرف كذلك تحمي مصالح العمال ضد رأس المال، وخصوصا من خلال التحكيم. وكان أكثر توجهها اقتصاديا بحثا، وكان العديد من هذه الغرف، ومن بينها غرفة تورينو، يمنع أية اجتماعات ذات "طابع سياسي أو ديني"<sup>(52)</sup>.

بنويوا، كانت "غرف العمل" أقل ملائمة من النقابات لأوضاع الصناعة الحديثة. وكانت عضويتها تتألف من العصابات والاتحادات المحلية، التي كانت تصنيفاتها للعمال تميل إلى أن تكون أكثر تشددا وأكثر دقة من تصنيفات الاتحادات المهنية. وكانت "غرف العمل" تعترف عادة بالنقابات المفردة المنضمة إلى الاتحادات. وعلى سبيل المثال، فإن عامل المخرطة كان يصنف كعامل معادن في الاتحاد الإيطالي لعمال المعادن، ولكنه كان يصنف كعامل مخرطة فحسب في "غرفة العمل" المحلية<sup>(53)</sup>. (في غرفة تورينو فقط شكل عمال المعادن قسما منفردا، ربما لأن الصناعة الكبيرة كانت أكثر انتشارا في تورينو، ولم تكن الاختلافات بين المهن ملموسة إلى حد كبير). ونظرا للقاعدة الإقليمية التي تقوم عليها غرف العمل، فإن لجانها التنفيذية كانت تعكس تنوعا ملحوظا في المهن، وكثيرا ما كانت هذه الغرف -بالتالي- أقل انسجاما من أن تكون فاعلة.

لكل هذه الأسباب، كان قادة النقابات العمالية يأملون في أن تستبدل "غرف العمل" كليا بالاتحادات النقابية الوطنية<sup>(54)</sup>. وكان هذا هو أحد أسباب تأسيس "سكرتارية المقاومة" في تشرين الثاني (نوفمبر) 1902، وفي التكوين النهائي لـ "الاتحاد العام للعمل" في تشرين الأول (أكتوبر) 1906.

ولكن "غرف العمل" كانت تتمتع بميزات تفتقر إليها الاتحادات. فبتجميعها لكل العمال في منطقة معينة كانت هذه الغرف في النهاية مجبرة على أن تأخذ في اعتبارها المشاكل السياسية والإنسانية العامة، وليس مواضيع الخبز والزبدة فقط. وفي الواقع، كانت "غرف العمل" تشكل، من نواح عدة، أجهزة للحكم الذاتي الشعبي. وبشكل عام، كانت الغرف تعكس أوضاع التاريخ الاقتصادي والسياسي الإيطالي بأفضل مما تفعل الاتحادات بكثير. وبشكل خاص، كانت "غرف العمل" حذرة في تقبل توجه طبقي معين. "في بلد كإيطاليا، ذات صناعة حديثة متطورة ضئيلة وحركة عمالية تبرز تدريجيا من ديمقراطية مرحلة النهضة (Risorgimento)، فإن التوجهات الطبقة والنقابية تهدد بعزل الأنوية العمالية عن جماهير "الشعب" الواسعة وبتفكيك التضامن الثوري والشعبي القائم على أساس المثاليات الديمقراطية القديمة"<sup>(55)</sup>.

ويرى جوليانو بروكاتشي أن التخلف الشديد للحركة العمالية الإيطالية، وخصوصا في "غرف العمل"، كان قد جنب هذه الحركة الوقوع في "شرك المرحلة النقابية" للتطور الاقتصادي، كما حصل للحركات النقابية في الأمكنة الأخرى. في إيطاليا، لم يكن من الممكن التفريق بوضوح بين النضالات النقابية والسياسية وبين مطالب الطبقة العاملة والمطالب الديمقراطية. وكانت المشكلة الأساسية أمام الحركة -في رأي بروكاتشي- هي "تأمين تلك الشروط العامة للديمقراطية والمجتمع المدني التي يمكن من خلالها لحركة (عمالية) ما أن تتطور إلى عنصر عضوي من عناصر المجتمع الحديث"<sup>(56)</sup>. وكان أحد هذه "الشروط العامة" هو وضع حد لقسوة الشرطة التي كثيرا ما أدت، حتى في أيام حكم جوليتي، إلى القتل المجاني للعمال والفلاحين. "وفي أحد عشر حادثا من هذا النوع وقعت بين سنتي 1901 و1904 توفرت عنها الإحصاءات، قتل حوالي 32 شخصا وجرح 212"<sup>(57)</sup>.

وباستمرار، كان عدد أعضاء "غرف العمل" أكبر بكثير من أعضاء الاتحادات النقابية. وفي عام 1911، مثلا، كانت أرقام العضوية 485 ألفا و219 ألفا على التوالي. وكان التباين الآخر جغرافيا. فقد كان وجود اتحادات النقابات يقتصر على الشمال، باستثناء اتحاد عمال السكك الحديدية، بينما كان للغرف قاعدة صلبة في جنوب إيطاليا، وخصوصا في نابولي وباليرمو وكاتانيا. وبالتالي فقد كانت الغرف أكثر تمثيلا على المستوى الوطني<sup>(58)</sup>.

وكان التكتيك الفريد والخاص بالحركة العمالية الإيطالية -على الأقل في كثرة تردده- هو القيام بالإضرابات العامة في المدن، التي تحولت فيما بعد إلى إضرابات وطنية عامة. وكانت هذه الإضرابات -كما يقول بروكاتشي- عبارة عن خليط من الإضرابات التقليدية للطبقة العاملة و"الصيغ التقليدية للاحتجاج الجماهيري"<sup>(59)</sup>. ونظرا لأن هذه الإضرابات كانت سياسية في الأساس، فلم يكن لغير "غرف العمل" أن تقودها. وكان أول إضراب عام مدني في إيطاليا قد جرى في تورينو في شباط (فبراير) 1902. وكما سنرى، فقد ساهمت المدينة بهذه الصيغة الإيطالية المميزة في الاحتجاج العمالي.

### الحركة العمالية في بيمونتي وتورينو

من المؤكد أن قوة الطبقة العاملة في تورينو لم تكن كبيرة في عام 1900. وكانت ميلانو وإقليم اميليا -رومانيا أكثر تقدما في التنظيم العمالي، وكذلك فإن بلدات في بيمونتي نفسها، مثل بيبلا وألساندريا، ساهمت مساهمة أكثر أهمية في الحركة العمالية<sup>(60)</sup>. وبالرغم من أن عدد سكان مدينة تورينو كان قد وصل فعلا إلى حوالي 300 ألف نسمة، فقد كان حوالي 60 ألفا من هؤلاء السكان يعملون في المحال التجارية والمنازل، وكان نصف هؤلاء، وأغلبهم من النساء، يعملون في صناعة الألبسة. ولم يكن في تورينو بعد منشأة صناعية حديثة، وكانت ست من مؤسساتها فقط تدار بما يشبه النطاق الواسع<sup>(61)</sup>. وهكذا، فإن العيوب الأساسية للحركة العمالية الإيطالية في عام 1900 ظهرت، في تورينو على الأقل، بالقوة نفسها كما في الأماكن الأخرى: نسبة عالية من النساء والأطفال في القوة العاملة (نظرا لأهمية صناعة الألبسة) وعدد محدود من "العمال العاديين" بالمقارنة مع الحرفيين والعمال الصناعيين.

خلال العقد الأول من القرن العشرين، عكست مؤسسات الطبقة العاملة في تورينو حالة التخلف هذه في أوضاعها. وكانت الصحيفة الأسبوعية الاشتراكية المحلية "ال غريديو ديل بوبولو" (صيحة الشعب) قد شكت من أن "ما من مدينة عملها بهذه اللامبالاة تجاه القوى التي تعمل من أجل رفاههم. ومن بين 120 أو 130 جمعية للعمال في تورينو ليس هناك أكثر من ثلاث جمعيات مقاومة". وبالرغم من أن غرفة عمل تورينو أسست في 1 أيار (مايو) 1891 -وهي إحدى أول غرف إيطاليا- فقد بقيت لوقت ما أصغر من غرف كل من ميلانو وروما ونابولي ومدن أخرى<sup>(63)</sup>. أما عضوية الفرع الاشتراكي في تورينو فقد أسست في 15 تشرين الثاني (نوفمبر) 1892. وبقيت قليلة إلى حد يكاد يكون غير قابل للتصديق لسنوات عديدة. وفي مؤتمر المحافظة الحزبي، في أيلول (سبتمبر) 1906، لم يحضر أكثر من 1328 عضوا<sup>(64)</sup>. وفي عام 1910، بعد ثلاث سنوات من تراجع الالتزام النضالي بين العمال، أصبح عدد الاشتراكيين في تورينو 600 شخص فقط<sup>(65)</sup>.

على النقيض من ذلك، كان عمال تورينو تقدميين بشكل ملحوظ في ميادين التعاون والمعونة المشتركة. وفي وقت مبكر يعود إلى عام 1885 كان في تورينو جمعيات معونة متبادلة أكثر مما في أية منطقة في إيطاليا<sup>(66)</sup>. والواقع أن أكبر مؤسسات الطبقة العاملة في إيطاليا كانت "الجمعية العامة للعمال" (في تورينو) (AGO). وكانت هذه قد تأسست في عام 1850، ثم حملت هذا الاسم منذ 1865، وكان عدد أعضائها قد أصبح آنذاك 10 آلاف عضو، وبلغ رأسمالها 250 ألف ليرة إيطالية. وكانت هذه الجمعية تقدم لأعضائها

المعونة الطبية، وتدفع لهم أيام الانقطاع عن العمل بسبب المرض، والرواتب التقاعدية... وأصبحت أول تنظيم عمالي يمارس في إيطاليا بيع التجزئة التعاوني<sup>(67)</sup>. وفي عام 1899، اندمجت "الجمعية العامة للعمال" مع "تعاونية عمال السكك الحديدية"، وكان هذان التنظيمان هما "القوة الحقيقية للحركة العمالية" في تورينو، ونجم عن ذلك الاندماج "التحالف التعاوني التوريني" (ACT)، الذي لعب فيما بعد دورا هائلا الأهمية في حياة تورينو السياسية<sup>(68)</sup>.

وكان اشتراكيو تورينو قد حققوا نجاحات مرضية، هم أيضا، في العمليات الانتخابية. فمنذ عام 1897 كانت مقاطعة بيمونتي هي المقاطعة التي يحظى فيها الاشتراكيون بالأصوات الأكثر<sup>(69)</sup>. وفي عام 1904 تقدمت عليها مقاطعة إيميليا -رومانيا فقط في نسبة أصوات الاشتراكيين<sup>(70)</sup>.

ومنذ حوالي عام 1900، بدأ عمال تورينو يتطورون باتجاه أكثر نضالية والتزام صارمين، خلافا لمنظماتهم، وبما يتعارض معها. وحصل أول إضراب مدني عام في تاريخ إيطاليا في مدينة تورينو بالذات في شباط (فبراير) 1902<sup>(71)</sup>. وكان مما حرض على هذا الإضراب العام استخدام الجنود للحلول محل عمال الغاز المضربين، وجاء الإضراب العام عفويا وبلا تخطيط مسبق، ولم يلق أكثر من تأييد متحفظ من قبل "غرفة العمل". ومرة أخرى، وفي أول إضراب عام وطني (في أيلول/سبتمبر 1904)، كان العديد من عمال تورينو قد نزلوا إلى الشوارع قبل أن تعلن "غرفة العمل" تأييدها للإضراب. وفي مرة ثالثة، أعلن الإضراب العام في تورينو، في تشرين الأول (أكتوبر) 1907، ضد النصائح الصريحة التي قدمتها "غرفة العمل" بالامتناع عن الإضراب. وأخيرا، وفي 12 تشرين الأول (أكتوبر) 1909، دعا عمال المعادن إلى إضراب عام على شرف فرانيسكو فيري، المفكر الإسباني والثوري المحكوم. هذه الحركة أيضا لم تتبعها قيادة "غرفة العمل" والحزب الاشتراكي إلا بعد تردد وتحفظ. وكان جوليو كازيني، وهو زعيم اشتراكي إصلاحي، قد اشكى من أن "بروليتاريا تورينو لا تتمتع بقوة واسعة، فهي وفيرة ولكنها غير ناضجة. ولم تكن المظاهرة من أجل فرانيسكو فيري منظمة ولا صامته، كما كان يجب أن تكون"<sup>(72)</sup>.

هذه الأحداث توضح إحدى أكثر الصعوبات جدية من بين تلك التي كانت تواجهها الحركة العمالية في تورينو آنذاك، ألا وهي الثغرة القائمة بين النزعة الإصلاحية الجوليتية لدى قادة الحركة والاتجاهات العنيفة لدى الجماهير. ولم تقم علاقة وطيدة بين القادة وجماهير العمال إلا بعد إضراب عمال المعادن عام 1912. ولسنوات، كان فرع الحزب في تورينو يهتم بشكل رئيسي بالنشاط التعاوني والتأمينات. بل أن الفرع أعلن في آذار (مارس) 1902 أن ليس للحزب أية علاقة بالنضالات الاقتصادية للعمال<sup>(73)</sup> وقد بذلت جهود ملحوظة للسيطرة على إدارة البلدية، كما جرى في ميلانو<sup>(74)</sup>. ولكن، بالرغم من كثافة الأصوات الاشتراكية، فإن هذا الهدف لم يتحقق، وبشكل رئيسي نتيجة لصعوبة إقامة التحالفات السياسية مع الطبقات الاجتماعية الأخرى في المدينة.

في تلك السنوات المبكرة كان كل زعماء الحزب الاشتراكي الإيطالي من اللومبارديين أو الإيميليانيين أو الرمانولييين، أو من الجنوبيين. وكان بينهم واحد مهم فقط من مقاطعة بيمونتي، هو أودينو مورغاري، صاحب فكرة "التكاملية" (integralism) القائلة بمحاولة التوفيق بين الإصلاحية والقصوية (maximalism)؛ وهما إيديولوجيتا الجناحين اليميني واليساري على التوالي داخل الحزب الاشتراكي<sup>(75)</sup>. هذه الدعوة إلى "الوحدة في التعددية" كانت في الواقع -كما وصفها سبريانو- "حالة ذهنية" عاطفية أكثر منها ذرية تكتيكية. وقد حدد مورغاري التكاملية باعتبارها "توليفا بين الإمكانات الراهنة وآمال المستقبل الاشتراكية، بين المثالية والعملية، بين العمل المباشر والعمل الرمزي، بين معاداة الدولة وشرعية الدولة، بين الثورة والقانونية، بين النقابية ومعاداة النقابية، بين التصلب والتعاون"<sup>(76)</sup>.

وقد ارتبط ارتفاع اشتراكية تورينو إلى دور أكثر إبداعا، وبشكل مباشر، بالتوسع الكبير للصناعات المعدنية في المدينة، وخصوصا صناعة السيارات التي نمت بسرعة بعد عام 1904. وكانت شركة "فيات"، وهي أول منشأة حقيقية لصناعة السيارات في إيطاليا، قد أسست في 11 تموز (يوليو) 1899، وقام بتأسيس رهط من رواد صناعة المحركات في بيمونتي، وأنتجت أولى سياراتها في تشرين الثاني (نوفمبر) من العام ذاته. وسيطر الطابع الرياضي على هذه الصناعة في سنواتها المبكرة، مثل سباق السيارات، والسباق الدولي مع فرنسا، وبدعة امتلاك الجديد في عالم الصناعة. في تلك الأيام كان عمال السيارات، عادة، من ذوي المهارات العالية والأجور المرتفعة، وكانوا معزولين عن الحركة العمالية عموما، وكانت العضوية النقابية بينهم نادرة.

وعلى العموم، بحلول عام 1905 كانت صناعة السيارات قد أصبحت "الحقيقة الأكثر بروزا... في هذا العقد"<sup>(77)</sup>. وكانت الصناعة الإيطالية تتمتع بفرصة نادرة لمنافسة أكثر البلدان تصنيعا في إنتاج السلع التي عليها إمكانية طلب هائلة<sup>(78)</sup>. وكانت تورينو تتمتع بامتيازات خاصة في هذه الصناعة الجديدة، إذ كانت المياه والقوة الكهربائية المائية متوفرة بسهولة، وكان يمكن لصناعة السيارات أن تجتذب إليها رؤوس الأموال من فرنسا وسويسرا المجاورتين، كما كان في المدينة عدد من عمال المعادن القادرين (على العمل في صناعة السيارات). ومنذ عام 1905 وحتى ربيع 1906 كانت موجودات شركة "فيات" قد ازدادت من أربعة ملايين إلى تسعة ملايين ليرة إيطالية، وسجلت أعمال السيارات الأخرى في تورينو أرباحا مثيلة<sup>(79)</sup>. وبحلول عام 1907 كانت هنالك 66 شركة للسيارات تعمل في إيطاليا، منها عشرين -بينها الأكبر من هذه الشركات- موجودة في تورينو. وكان في المدينة أيضا ست من أصل تسع عشرة منشأة لصناعة هياكل السيارات، وكذلك معظم المنشآت التي تصنع قطع غيار السيارات<sup>(80)</sup>.

وتسبب النقص الهائل في اليد العاملة والأجور الأعلى في صناعة السيارات "بهجر العمال الأكثر ذكاء في المدينة للمنشآت القديمة والاتحاق بالصناعة الجديدة"، في حين ملئت الوظائف القديمة بالمهاجرين من الريف<sup>(81)</sup>. منذ ذلك الحين، وخصوصا في السنوات الحرجة 1907-1906 و1912-1913، استلم قيادة الحركة العمالية عمال المعادن ونقاباتهم المسماة "اتحاد موظفي وعمال المعادن" (Fiom). وكان هذا الاتحاد قد أسس في ليغورن في حزيران (يونيو) 1901، ولكن سرعان ما اتخذت قيادة من تورينو مقرا لها، وكان معظم قيادتها المسؤولين إما من تورينو أو -على الأقل- من مقاطعة بيمونتي<sup>(82)</sup>.

وكان الانتصار الأول الذي حققه "اتحاد موظفي وعمال المعادن"، والذي ساهم فيه نقص اليد العاملة، هو عقد شركة "فيات" الموقع في آذار (مارس) 1906، الذي اعترف بيوم العمل من عشر ساعات كأمير "عادي" والذي قبل بمبدأ تمثيل العمال في المصنع. وكان للنزاعات أن تعالج من قبل الإدارة ولجنة تشكل لهذا الغرض وتتألف من خمسة عمال يختارهم زملاؤهم العاملون في الشركة. هذه "اللجنة الداخلية" -التي يمكن مقارنتها عموما بالممثلين النقابيين داخل المصانع في الولايات المتحدة- لم يكن الصناعيون

يعتبرونها كمؤسسة دائمة، بل كانت الفكرة تقوم على أساس اختيار لجنة جديدة لكل نزاع<sup>(83)</sup>. ولكن، كان للعمال فكرة أخرى، وكان للجهد الذي بذل لجعل هذه اللجان دائمة أهمية كبيرة في النزاعات الكبرى التي تلت الحرب العالمية الأولى<sup>(83)</sup>.

في ربيع 1906، أضرب عمال النسيج في تورينو مطالبين بيم عمل من عشر ساعات، وحظوا بتأييد كل الطبقات العاملة في المدينة. وبعد أن جرح ثمانية من المضربين بنيران رجال الشرطة، دعت "غرفة العمل" في تورينو إلى إضراب عام على المستوى الوطني، وقد نفذ هذا الإضراب عمليا في معظم مدن الشمال الكبرى<sup>(85)</sup>. وأخيرا تم التوصل إلى أهداف إضراب عمال النسيج في تورينو، ولكن بعد أن ارتفع صناعو المدينة إلى مستوى الشعور بوحدهم كجماعة. وفي 20 تموز (يوليو) 1906 أسست "عصبة صناعة تورينو". وكانت هذه في البداية تمثل أكثر من 200 شركة، وكان هدفها الأخير هو أن تضم كل الصناعيين في المنطقة. وشاركت في عضويتها كل الشركات الكبيرة في حقول الكيمياء والنسيج والكهرباء والسيارات (باستثناء "إيتالا"). وكان رئيسها المنتخب هو لويس كرابوني، وهو صانع حرير من أصل فرنسي. وكانت هذه العصبة هي الأولى من نوعها في إيطاليا<sup>(86)</sup>.

بعد ثلاث أشهر، وفي تشرين الأول (أكتوبر) 1906، أسس "الاتحاد العام للعمل" (CGL). واختيرت مدينة تورينو مقرا لقيادة الاتحاد، وأصبح رينالدو ريغولا، وهو نجار أثاث من بيمونتي، أول رئيس له. وفي تورينو أيضا أسست أول منظمة للعمال الكاثوليك (عصبة العمل)، ولكنها لم تجتذب إليها غير 300 عامل، إذ كان معظم عمال تورينو أبعد يسارا عن الإنجيل الاجتماعي للكنيسة<sup>(87)</sup>. وفي تلك السنوات كانت "غرفة العمل" قد أصبحت قوة تمثيلية حقيقية في تورينو، وانتقل عدد أعضائها من 8800 في عام 1906 إلى 15600 في أيار (مايو) 1907، وازدهر "التحالف التعاوني التوريني" أكثر من أي وقت مضى<sup>(88)</sup>.

وكان نجاحات العمال في تورينو قد وصلت الذروة مع توقيع العقد بين شركة "إيتالا" و"اتحاد موظفي وعمال المعادن" في 27 تشرين الأول (أكتوبر) 1906. وقد نص العقد على إقامة هيئة تمثيلية للعمال داخل المصنع ونظام للرقابة ولجنة داخلية دائمة، مقابل تعهد بعدم الإضراب لثلاث سنوات هي مدة سريان العقد. وكان الاصلاحيون من اشتراكيي تورينو والمجموعة الجوليتية في الصحيفة اليومية "لا ستامبا" (الصحافة) من المؤيدين بشدة لهذا العقد، ولكنه ووجه كذلك بمعارضة صاخبة هائلة. وثار "عصبة صناعة تورينو" ضد شركة "إيتالا" لتوصلها إلى الشروط الواردة في العقد من دون موافقة العصبة، بينما رأى النقابيون الثوريون في التعهد بعدم الإضراب خيانة<sup>(89)</sup>.

وعادت الموجة في عام 1907. ففي نيسان (أبريل) من تلك السنة أعلن عمال شركة "سافاليانو" لصناعة المعادن في غرب بيمونتي الإضراب مطالبين بيوم عمل من عشر ساعات وباللجنة الداخلية. وعندما امتد الإضراب إلى منشأة "سافاليانو" في تورينو قرر "اتحاد موظفي وعمال المعادن" أن يعلن مقاطعة المؤسسات (وهي أول مقاطعة ينفذها تنظيم عمالي إيطالي). وكانت الأمثلة الأجنبية قد شجعت سكرتارية "اتحاد موظفي وعمال المعادن" على الأمل بأن تتسامح شركات صناعة المعادن الأخرى في تورينو مع هذه المقاطعة رغبة منها في الاستفادة على حساب شركة "سافاليانو"<sup>(90)</sup>. ولكن ظهر أن هذا الأمل لم يكن مبررا. بل أن انحسارا شديدا لم يكن يتوقعه اشتراكيو تورينو بتاتا أصاب الاقتصاد. ونظرا لأن السيارات الإيطالية كانت منتجات ترف فحسب، فإن صناعتها كانت ذات هشاشة خاصة في مواجهة الكساد<sup>(91)</sup>. وسقطت أسهم شركة "فيات" المضافة من 445 إلى 80 ثم إلى 40. وأدى تسريح الألوف من عمال السيارات في أواخر أيلول (سبتمبر) عمليا إلى إنهاء المقاطعة.

الهزيمة الأخرى التي واجهتها الحركة العمالية التورينية جاءت مرتبطة بالإضراب الوطني العام الذي أعلن في ميلانو، في 11 تشرين الأول (أكتوبر) 1907، ردا على مقتل وجرح عمال مضربين على يد رجال "الكارابينييري" في المدينة. وسرعان ما استجابت معظم المدن الكبرى في شمال ووسط إيطاليا إلى الدعوة التي وجهتها "غرفة العمل" في ميلانو. في تورينو، قام نزاع بين العناصر الإصلاحية وتلك النقابية داخل "غرفة العمل" مما منع الإعلان عن الإضراب حتى 13 تشرين الأول (أكتوبر) عندما حصل النقابيون أخيرا على أكثرية ضئيلة. ولكن توقفت الإضراب الذي كان قد انتهى في ميلانو. واستمرار معارضة الإصلاحيين أدبا إلى فشله التام. ولم يستجب للدعوة إلى الإضراب إلا عمال المعادن. وأكثر من ذلك، فإن عصبة الصناعة اختارت هذه اللحظة بالذات لتتابع هجومها وتعلن إغلاق المعامل في المدينة لمدة 48 ساعة. واستجابت معظم الشركات الكبرى وبقي حوالي 30 ألف عامل خارج مصانعهم. ورد النقابيون الثوريون بإعلان إضراب عام في المدينة لمدة 72 ساعة، خلافا لنصائح "غرفة العمل". وفضل الإضراب فشلا ذريعا عندما ساهم فيه ما لا يزيد عن خمسة آلاف عامل<sup>(92)</sup>.

ولم يتردد الصناعيون في تثبيت امتيازاتهم. ففي آذار (مارس) 1908، وتحت رعاية "عصبة صناعة تورينو"، أسس "الاتحاد الصناعي البيمونتي"، برئاسة كرابوني نفسه، وتآلف الاتحاد الجديد من 500 شركة هامة توظف معا أكثر من 100 ألف عامل<sup>(93)</sup>. وفي تورينو كبرت عصبة الصناعة في عام 1908-1909 فصارت تضم 291 شركة توظف 48 ألف عامل. وبدأت العصبة سلسلة من الاتفاقيات مع شركات في جنوة وميلانو وتيرني تنص على موافقة الشركات الموقعة على عدم توظيف أي عامل مضرب خلال فترة الإضراب وثلثه أشهر بعده<sup>(94)</sup>. وفي أيار (مايو) أسست في تورينو جمعية أكبر هي "الاتحاد الإيطالي للصناعة"، مما أكد هبة رأسمالية تورينو الصناعية في كل أنحاء إيطاليا. وكانت أنظمة الاتحاد الجديد مبنية على أساس أنظمة "عصبة صناعة تورينو"، وانتخب كرابوني كالعادة- رئيسا لهذا الاتحاد أيضا<sup>(95)</sup>. وحتى شهر تشرين الأول (أكتوبر) صار الاتحاد يضم 2100 شركة توظف حوالي 250 ألف عامل.

في تلك الأثناء، ألغى أصحاب شركة "إيتالا" عقدهم مع "اتحاد موظفي وعمال المعادن" الذي وقع في تشرين الأول (أكتوبر) 1906 بحجة اشتراك عمال "إيتالا" في عام 1907 بإضراب عام. والتحققت منشآت أخرى بهذا الخط، واختفت بين سنتي 1908 و1911 فوائد كثيرة كان قد حققها العمال في سنتي 1906 و1907. وكانت تلك هي "سنوات الصمت شبه المطلق" في عالم تورينو العمالي<sup>(96)</sup>. وفقدت "غرفة العمل" نصف أعضائها في عام 1909، أما عدد أعضاء الفرع الاشتراكي فانخفض في عام 1910 إلى 600 عضو، وكان عدد أعضاء "اتحاد موظفي وعمال المعادن" عام 1911 يزيد قليلا عن 1000 من أصل 30 ألف عامل في المعادن في المدينة<sup>(97)</sup>. وكان واضحا أن النقابية والحزب فقدتا تقريبا كل اتصال لهما بالعمال داخل الورشات.

ومع اقتراب نهاية عام 1911 عاد الازدهار إلى الاقتصاد، وانتعشت الحركة العمالية. وكان كساد 1907 قد أزال من الوجود كل شركات السيارات ما عدا الأكثر فاعلية من بينها (فيات، سبا، إيتالا، سكات، لانشا)، تلك التي كانت قادرة على إنتاج النماذج الأرخص سعرا. وفي عام 1911، تم إنتاج عدد من السيارات يساوي ثلاث أضعاف ما أنتج منها عام 1907<sup>(98)</sup>. وعاد الطلب كبيرا

على العمال، وخصوصا المهرة منهم، وتمتعوا بسلم أجور عال نسبيا<sup>(99)</sup>. ومع ذلك، فإن طول ساعات العمل (10-11 ساعة يوميا لسنة أيام أسبوعيا) والعمل الكثيف والمرهق، ما كانا ليؤديا إلى السلام الصناعي في المدينة.

في عام 1911، كان المطلب الرئيسي لـ"اتحاد موظفي وعمال المعادن" هو تقصير أسبوع العمل من 60 إلى 57 ساعة دون تخفيض الأجور، وذلك باعتماد "يوم السبت الانكليزي" أو ما يعني عمل سبع ساعات فقط يوم السبت<sup>(100)</sup>. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) 1911، وبعد أن حقق الآلاف من عمال السيارات هذا الهدف، رد صانعو السيارات في تورينو بتشكيل "تجمع مصانع السيارات" الذي ضم الشركات السبع الرئيسية، التي توظف قوة عاملة تقرب من 6500 عامل<sup>(101)</sup>. وطالب التجمع الشركات الأعضاء فيه بالطاعة التامة، وطلب من كل من الأعضاء وضع تأمين بشكل شيك موقع على بياض. وبهذا تأمنت وحدة العمل بين صانعي السيارات، فقدم التجمع إلى العمال عقدا جديدا يطبق على الصناعة بأسرها. ومقابل التعهد بعدم الإضراب والاتفاق على حل اللجان الداخلية وافق الصناعيون على يوم السبت الانكليزي (وإن بأجر أقل للساعات الإضافية في ذلك اليوم) وعلى زيادة نسبتها أربعة في المائة في أجر الساعة. واقترح الصناعيون كذلك تقسيم العمال إلى فئتين للأجر: فئة العمال المهرة الذين كانوا عادة أعضاء في "اتحاد موظفي وعمال المعادن" وتتلقى أربعين سانتا أو أكثر في الساعة، وفئة العمال غير المهرة وغير المنتظمين وتتلقى أقل من ذلك. وكما في عام 1906، اختير "اتحاد موظفي وعمال المعادن" باعتباره أفضل ضامن للاستقرار العمالي، وفي كانون الأول (ديسمبر) 1911 وافق التجمع و النقابة على الشروط المذكورة أعلاه. وبالإضافة إلى هذا، وافق التجمع على الاعتراف بالنقابة وعلى تطبيق نظام الرقابة، ولكنه رفض، على العموم، جعل عضوية النقابة إجباريا.

وعلى غير ما كان متوقعا، رفض العمال غير المنتظمين قبول العقد الجديد، وأعلنوا أن زيادة الأجور غير مرضية (زيادة الأربعة في المائة لا تعوض نقص ساعات العمل)، كما أعلنوا رفضهم لتقسيم العمال إلى فئتين. وفي أيام 10-12 كانون الثاني (يناير) 1912 أسس حوالي ألفين من هؤلاء العمال نقابة جديدة هي "النقابة الحرة لعمال السيارات". عندئذ سحب التجمع عرضه المقدم إلى "اتحاد موظفي وعمال المعادن" على أساس أن العمال أثبتوا عدم قدرة الاتحاد على المساومة باسمهم<sup>(104)</sup>.

النقابيون الثوريون –والذين لم يعودوا موجودين عمليا في تورينو بعد عام 1907- أرسلوا مبعوثا إلى النقابة الجديدة من حصنهم في إيميليا، وسرعان ما أصبحت المنظمة تحت سيطرتهم المطلقة. وفي 17 كانون الثاني (يناير) أعلنت النقابة الجديدة إضرابا عن العمل يستمر حتى يوافق أرباب العمل على التفاوض معها. ومع أن "اتحاد موظفي وعمال المعادن" تجاهل هذه الدعوة في البداية فإن الأكثرية العظمى من العمال بقيت خارج المنشآت. وبالرغم من هذا الدعم فقد أثبتت النقابة كونها أمرا مؤسفا وفاجعا، فرئيسها بوليفيو زوكي (عضو في "غرفة العمل" في بولونيا) لم يقدم غير الكلمات الفارغة:

"إن الإضرابات التي تحقق كسبا بهذا القدر في يوم واحد للعمال تصلح لألمانيا وانكلترا وبلدان الشمال، حيث تختلف الطبائع الوطنية فيها عن طبائنا وحيث الجماهير منظمة من شعر رأسها وحتى أسفل أقدامها. نحن شعب مندفع وحماسي. وكل منا يشعر بإرادة التضحية، والبروليتاريا الثورية تراقبنا!"<sup>(103)</sup>

وأعلن الصناعيون بدورهم إقبال مصانعهم بعد أن نظموا صندوقا للتأمين ضد الإضراب. وكان العمال غير المنتظمين عاجزين عن تنظيم مقاومة فعالة لهذا التكتيك، فانهيار إضرابهم في 21 آذار (مارس). وهكذا لم تؤد الجهود التي بذلت طول 65 يوما إلا إلى فقدان العقد الجديد بما فيه من اعتراف باتحاد موظفي وعمال المعادن، وإلى العودة إلى أسبوع العمل من ستين ساعة في معظم المصانع.

بعد ذلك بعدة أشهر ظهرت نضالية ملتزمة جديدة في صفوف المنظمات الاشتراكية سواء على المستوى الوطني أو على المستوى المحلي. وفي المؤتمر الوطني الثالث عشر للحزب (الذي عقد في ريجو إيميليا بين 7 و12 تموز/يوليو 1912) حصل الجناح الثوري، بدعم من وفد تورينو، على الأكثرية، ومن ثم انقضى على الجناح البيميني الإصلاحية، الذي كان قد أيد الحرب ضد ليبيا، وطرده أعضاءه من الحزب. في تورينو أيضا حقق الجناح اليساري للحزب انتصارا كاملا. ومنذئذ أصبح كل من الحزب و"التحالف التعاوني الثوري" مؤيدين صليبين للعمال في نزاعاتهم الصناعية. واستعاد "اتحاد موظفي وعمال المعادن" شجاعته وبدأ الاستعداد لإضراب جديد، هذه المرة تحت قيادة برونو بوتززي. وكانت عضوية الاتحاد قد ارتفعت في المدينة إلى أكثر من ألفين، وفي خريف 1912 تمت الموافقة على البرنامج الجديد للاتحاد من قبل الأكثرية الساحقة للعمال. ودعا هذا البرنامج إلى تخفيض ساعات العمل الأسبوعية من 60 إلى 54 ساعة مقابل الأجر الأسبوعي نفسه، وإعادة النظر في برنامج العمل بالقطعة، وإلى الاعتراف الكامل بالنقابة واللجان الداخلية. وانتخبت لجنة تحريض مؤلفة من ثلاث عمال من كل منشأة، وضمت هذه اللجنة بعض أعضاء من النقابة التي كانت قد فقدت كل مصداقية لها. وهكذا كان المسرح قد جهز للإضراب الكبير لعمال المعادن عام 1913<sup>(104)</sup>.

في مطلع شهر آذار (مارس) قدم "اتحاد موظفي وعمال المعادن" مطالبه إلى التجمع فرفضت كليا، وبدأ الإضراب يوم 19 آذار (مارس). وتلقى "اتحاد موظفي وعمال المعادن" الأطمعة والمال من "التحالف التعاوني الثوري" و"الاتحاد العام للعمل" والعديد من "غرف العمل"، وحتى من الاتحاد الألماني لعمال المعادن. وفي 20 آذار (مارس)، وفي محاولة لقطع هذه المعونة الخارجية، اتخذ كرابوني إجراء متطرفا بالدعوة إلى إغلاق كافة المصانع في كل الصناعات المعدنية، مما كان يعني تسريح 17000 عامل آخر في المدينة. وكان كرابوني بخطوته هذه قد أخطأ جديا في حساب نوايا الحكومة. وكان جوليبيني (رئيس الحكومة) قد تحول بشكل ملحوظ باتجاه اليمين منذ عام 1911، ولكنه لم يكن ذلك الرجل الذي يترك لمقاومة الإرادة أن تشل الاقتصاد كله بهدف التخفيف من مطالب العمال. وقام الفريديو فراساتي، رئيس تحرير صحيفة "لا ستامبا" وأحد المقربين من جوليبيني، بتوبيخ كرابوني قائلا أن منطجه يتطلب إغلاق المصانع في ميادين الصناعة الإيطالية للتغلب على إضراب واحد. وهاجم جوليبيني نفسه كرابوني باعتباره مشاغبا أجنبيا<sup>(105)</sup>. وأعلن حاكم مدينة تورينو أنه في حال الإغلاق العام للمصانع، فإنه لا يمكن الاعتماد على الشرطة في حماية ممتلكات الصناعيين. واهتز التجمع لهذه المؤشرات عن عدم موافقة الحكومة، واضطر كرابوني إلى الاستقالة من رئاسة التجمع، ولم ينفذ إغلاق المصانع<sup>(106)</sup>.

ولم يوافق الصناعيون التفاوض مع العمال إلا بعد أن استمر إضراب هؤلاء 75 يوما وصوت 90 بالمائة منهم على الاستمرار فيه. وفي 23 حزيران (يونيو)، وبعد مضي 93 يوما على بدء الإضراب، تم توقيع عقد جديد، وعادت المصانع إلى فتح أبوابها. وبالرغم من أن المكاسب بدت ضئيلة جدا فقد اعتبر العمال هذه التسوية انتصارا لهم. وخفضت ساعات العمل الأسبوعية إلى

59 ساعة لبقية عام 1913، وإلى 58 ساعة لعام 1914، وإلى 57 ساعة لعام 1915، مع زيادة سنوية قيمتها سانتيمين للساعة لكل فئات العمال. وهكذا، فإن العمال المهرة الذين كانوا يتقاضون بين 60 و70 سانتيمات لساعة العمل كادوا لا يعرضون إلا بصعوبة خسارتهم لساعة عمل في الأسبوع، في حين أن العمال غير المهرة، الذين كانت أجورهم تتراوح بين 30 و40 سانتيمات في الساعة، كسبوا حوالي أجر ساعتني عمل في الأسبوع بالرغم من أسبوع العمل الأقصر مدة. على العموم، فإن العمال المهرة نظروا إلى هذه التسوية باعتبارها انتصارا للتضامن الطبقي على الجشع الشخصي. وكما قال غرامشي بعد بضع سنوات: "ليس لعمال تورينو المهرة وتقنييها عقلية البورجوازية الصغيرة التي للعمال المهرة في بلدان أخرى، كانجلترا مثلا"<sup>(107)</sup>.

### غرامشي واتحاد الشباب الاشتراكي

في تلك الأثناء كان "اتحاد شباب الاشتراكي" يتحول أيضا إلى قوة سياسية في تورينو. وكانت "الحزمة" الأولى للاتحاد في تورينو، أو فرعه الأول، قد أسست في أيار (مايو) 1909 على يد جوزيبي روميتا وجينو كاستانيو وأنجيلو تاسكا وآخرين. وكان الفرع المركزي يتألف بكامله تقريبا من العمال، وكان تاسكا وروميتا وحدهما من الطلاب. وكانت هناك فروع أخرى منظمة في الضواحي والبلدات المجاورة، وسرعان ما سار للحركة طابعها الإقليمي، وفصلت نفسها عن الاتجاهات النقابية المتطرفة لفروع الاتحاد في بقية أنحاء إيطاليا. وفعل قادة الفرع كل ما بوسعهم لإدخال بعض المقاييس الدنيا من الثقافة الاشتراكية إلى الفروع خارج المدينة<sup>(108)</sup>، وعملوا في الوقت نفسه على تحسين قواعدهم الفكرية. واستنادا إلى تاسكا، فإن "الثقافة" الإيجابية بدأت تزول تدريجيا من خلال القراءة الدائمة لجوزيبي برينزليني لصحيفة "لا فوتشي" (الصوت) وقراءة غايتانو سالفيميني لصحيفة "أونيتا" (الوحدة)، وهما صحيفتان أسستا لمحاربة الريفية المزعومة للثقافة الإيطالية في سنوات القرن المبكرة. وكان سالفيميني يتمتع باحترام خاص لدى الاشتراكيين الشباب نظرا للحملة التي شنّها لصالح فلاحي الجنوب و هجومه الشامل على وسائل جوليتي الانتخابية في الجنوب ومعارضته للحرب الليبية. وعلاقاته الممتازة مع موسوليني -الذي كان يومها زعيما لـ"الأترك الشباب" في الاشتراكية الإيطالية- جعلت منه إنسانا شعبيا<sup>(109)</sup>.

وكان الشباب الاشتراكيون في بيمونتي يميلون إلى أن يكونوا طهورين (puritanical). وفي إحدى المناسبات شن فرع الاتحاد في بورغو سان باولو حملة صليبية على السكر (الثمالة)، وعندما واجهت هذه الحملة مقاومة القادة المحليين للحزب (وكان معظمهم من المكثرين للشرب حسب التقاليد البييمونتيية)، قام الفرع ساخطا بإقامة مقر منفصل له وتابع حملته<sup>(110)</sup>. هذا الخط الطهوري لاشتراكيي بيمونتي الأكثر شباه كثيرا ما كان يولد الحساسية لدى أعضاء الحزب في المناطق الأخرى.

في عام 1912-1913 بدأ طلاب الجامعة ينضمون إلى "اتحاد الشباب الاشتراكي" بأعداد أكبر، وكان انطونيو غرامشي بين هؤلاء. ولم يكن غرامشي ناشطا في البداية، واستنادا إلى تولياتي فإنه كان يبدو "ضيقا في اهتماماته، وما زال مليئا بالشكوك حول الخط الذي يريد إتباعه"<sup>(111)</sup>. من الناحية الفلسفية، ربما كان غرامشي آنذاك من أتباع كروتشي أكثر منه ماركسبا، ولكنه كان قيد الوصول إلى موقع ماركسي من خلال دراسته للفلسفة المثاليين، بمن فيهم هيغل وكروتشي وجنتيلي<sup>(112)</sup>. وكانت أفكار كروتشي وجنتيلي ترتبط ارتباطا وثيقا مع الأفكار الماركسية في إيطاليا. وكانت حلقة الوصل تمر عبر انطونيو لابريولا، وهو ماركسي نضج في المدرسة الهيجلية في نابولي. وبالتالي، فإن الثغرة بين المثالية والماركسية لم تكن صعبة العبور.

ويعود امتصاص الحركة الاشتراكية الكامل لغرامشي إلى أيام الانتخابات النيابية التي جرت في تشرين الأول (أكتوبر) 1913، بينما كان غرامشي في ساردينا ينتظر إعادة افتتاح السنة الدراسية. هذه الانتخابات كانت الأولى التي تجري في إيطاليا على أساس الاقتراع العام تقريبا لكل الذكور. ورغم أن الفساد الانتخابي كان مستشرياً في محافظات الجنوب والجزر الإيطالية، فإن غرامشي تأثر عميقا برؤيته للجماهير الفلاحية الواسعة تشارك للمرة الأولى في عمل سياسي. وأشعلت نتائج الانتخابات -إذ تضاعف عدد الممثلين الاشتراكيين- لهيب الحماسة فيه، فراح يكرس المزيد والمزيد من وقته للحركة الاشتراكية<sup>(113)</sup>.

وكان عمل غرامشي المبكر في صفوف "اتحاد الشباب الاشتراكي" هو تعليم العمال الأصغر سنا المنتسبين إلى الفرع المركزي. الكثير من هؤلاء العمال كان ذو تثقيف ذاتي، وكان جديا وذكيا. ولكن الأمر الذي سر غرامشي أكثر من أي شيء آخر كان "قوة طباعهم واستقامة معنوياتهم"، وهما صفتان اعتبرهما غرامشي أساسيتان لبناء حركة اشتراكية أقوى. وكان غرامشي معلما ذا فاعلية غير اعتيادية: "والذين علمهم شهدوا تحولا عميقا ودائما، وبقوا شاكركين له إلى الأبد"<sup>(114)</sup>. وقد استذكر غرامشي فيما بعد روح الرفاقية والمشاركة في الأفكار:

"كثيرا ما كنا نغادر اجتماعات الحزب في جماعة تحيط بمسؤولنا. وكنا نتابع مناقشتنا عبر شوارع المدينة التي تكون قد أصبحت صامتة الآن، بينما يتوقف المارة القلائل لمراقبتنا، مدهوشين لإصرارنا المتشدد (في النقاش) وضحكاتنا المتفجرة، وانطلاقاتنا في ملكوت الأحلام والمستحيل".

وقيم غرامشي بشكل خاص:

"الشعور بالثقة الذي كان ينبع من كوننا رفاقا، ومن امتلاكنا للهوى نفسه والأفكار المسيطرة نفسها... وكانت تلك الحميمية هي قوتنا. وبفضل هذه القوة استطعنا أن نقود الحزب باتجاه التغيير، واستطعنا أن نجبره على الاعتراف بأن المستقبل يتمثل فينا، نحن الشباب. كنا ننظر إلى ذلك المستقبل كخليط من الاشتراكية القديمة غير الواثقة من نفسها والمبالغة في الحذر، والتي كانت تفقد اتصالها مع الجماهير البروليتارية، والاشتراكية الجديدة المليئة بالطاقة المعنوية والثورية والتي ليس فيها حزب وبروليتاريا بل كتلة واحدة تتحرك بسرعة باتجاه هدف كنا نراه أحيانا شديد القرب في الواقع"<sup>(115)</sup>.

في عام 1914 انتسب غرامشي وتولياتي إلى فرع تورينو للحزب الاشتراكي. وكان عملهما الأول المهم كعضوين في الحزب هو دعم اقتراح قدمه تاسكا وأوتافيو باستوري بأن يسمى الحزب غايتانو سالفيميني كمرشح له للمقعد البرلماني الذي شغره بموت بيلادي غاي، وهو نائب اشتراكي من تورينو. وكان سالفيميني معروفا بكونه زعيما للعمال الزراعيين في أبوليا، المنطقة التي كانت مسقط رأسه. وكانت الخطة تقضي بأن يكون ترشيحه هو الخطوة الأولى لكسب الدعم للحزب الاشتراكي بين العمال الزراعيين في الجنوب. ووافقت اللجنة التنفيذية لفرع تورينو على الخطة، ولكن سالفيميني لم يقبل العرض<sup>(116)</sup>.

وبناء على اقتراح سالفيميني، انتقل دعم الاشتراكيين الأكثر شباه إلى بينيتو موسوليني الذي كان يومها رئيس تحرير جريدة "أفانتي" (إلى الأمام)، وهي الصحيفة المركزية للحزب. وكان موسوليني رجلا يحظى بالتزامه النضالي بإعجاب الأعضاء الشباب في



الحزب. ولكن أكثرية فرع تورينو دعمت على العموم ترشيح ماريو بينيتو، وهو عامل من تورينو، وكان موسوليني -بالرغم من موافقته السابقة- غير قادر على التنافس من أجل المقعد. ومع ذلك، جاء كل من سالفيميني وموسوليني إلى تورينو لدعم بينيتو في حملته الانتخابية. وقد نظر غرامشي دوما إلى هذه الحادثة باعتبارها خطوة هامة في تاريخ الحركة الاشتراكية الإيطالية: فقد قبل قادة فرع شمالي هام سالفيميني، الممثل لفلاحي الجنوب، كمرشح للحزب في دائرتهم الانتخابية. وكان هذا أمرا جديدا. وبالرغم من أن سالفيميني رفض العرض، فإن غرامشي شعر أن فرع تورينو وضع هذا الرفض جانبا، واعتبره الخطوة الأكثر تقدمة للفروع الإيطالية، نظرا لأنه شكل اعترافا بمشكلة الجنوب على أنها مشكلة يجب على البروليتاريا الثورية أن تحلها.

### 3- سنوات الحرب في تورينو

هناك رائحة الجديد في الجو. لقد وصل العالم إلى منعطف تقريبي"

غرامشي - [1] شباط (فبراير) 1917

#### الحزب الاشتراكي الإيطالي والحرب العالمية الأولى

الحرب العالمية فذفت بالاشتراكية الأوروبية إلى أسوأ أزمة في تاريخها. فهل كان على الاشتراكيين أن يبنذوا أميهم ويقاثلوا من أجل بلادهم، أو كان عليهم أن يبنذوا بلدهم باسم الطبقة العاملة الأممية؟ ونظرا لحياض إيطاليا، فقد كانت للاشتراكيين الإيطاليين فرصة أفضل لتحديد موقف متماسك مما كان للاشتراكيين في البلدان المحاربة. وعندما دخلت إيطاليا الحرب في أيار (مايو) 1915 كان الخط الرسمي للحزب قد تحدد: "لا الدعم ولا التخريب". وقد اشتكى تروتسكي فيما بعد من أن هذا الموقف لم يكن مستوحى من المبادئ الاشتراكية بقدر ما هو مستوحى من المبادئ الإنسانية أو مبادئ السلم. ولكن هذا الانتقاد لم يكن عادلا<sup>(1)</sup>. لقد احتاج الاشتراكيون إلى الشجاعة لكي يعارضوا الحرب، وخصوصا عندما كانت المعارضة تقود إلى السجن وإلى إجراءات قصاص حكومية أخرى. وأكثر من ذلك، فإن التضامن الحزبي حول هذه النقطة كان مثيرا، فقيادة الحزب ومعظم أعضائه بقوا يعارضون الحرب بثبات منذ 1915 وحتى عام 1918، أما الأعضاء الذين كانت لديهم أفكار مغايرة فقد استدعوا إلى الانضباط أو طردوا<sup>(2)</sup>. وأشاد لينين بالحزب الاشتراكي الإيطالي باعتباره شكلا "استثناء سعيدا" بين أحزاب الأممية الثانية، وكان الحزب يستحق الإشادة عن جدارة<sup>(3)</sup>. وكانت المشاعر المعادية للحرب قوية بشكل خاص لدى اشتراكي تورينو. وكانت السياسة المؤيدة للتدخل واسعة الانتشار بين عمال بارما كما سيطرت على القليل من عمال ميلانو، أما في تورينو فلم يظهر أي تشقق في صفوف الحياض لدى الطبقة العاملة<sup>(4)</sup>. وساعد في ذلك غياب التقاليد الراديكالية - الجمهورية عن تورينو، نظرا لأن مثل هذه التجمعات كانت، حيث وجدت، كثيرة الحماسة للتدخل في الحرب. وامتد حياض المدينة إلى ليبرالبيها من أتباع جوليتي وإلى البورجوازية عموما، خصوصا وأن شتاء 1914-1915 كان قد حقق ازدهارا في صناعة السيارات<sup>(5)</sup>. في نيسان (أبريل) 1915، طلبت "غرفة عمل" تورينو من اللجنة التنفيذية الوطنية ل"الاتحاد العام للعمل" إجراء استفتاء عما إذا كان أمر التعبئة العامة يستدعي القيام بإضراب عام. وأجاب معظم أعضاء الاتحاد سلبا على الاستفتاء، ولكن "غرفة عمل" تورينو صوتت بالإجماع تقريبا إلى جانب الإضراب العام، كما فعل الفرع الاشتراكي<sup>(6)</sup>.

في 16 أيار (مايو) 1915، وبينما كانت إدارة الحزب مجتمعة في بولونيا لتقرر ما يجب عمله حول اشتراك إيطاليا القريب في الحرب، أعلن عمال تورينو إضرابا عاما... "وأغلقت كافة المصانع وثلت كل الخدمات العامة. وكان الإضراب شاملا لدى كل فئات العمال"<sup>(7)</sup>. واجتمعت كل القوة العاملة في المدينة أمام "غرفة العمل"، ثم سار الجميع ببطء، ودون تحريض خطابي، باتجاه الحاكمية للاحتجاج على الحرب. عند هذا الحد، تدخل رجال الشرطة المستنفين فقتلوا عاملا وجرحوا 14 آخرين. وتفرقت الجموع، ولكنها عادت فتجمعت بعد الظهر، فهاجمت الشرطة "غرفة العمل" نفسها، ونهبت البناء، واعتقلت العشرات من العمال الذين تجمعوا هناك. في تلك الأثناء وصلت أنباء من بولونيا تفيد بأن قيادة الحزب قررت أن تترك لكل اتحاد محافظة أن يتخذ قراراته حول الإجراءات التي يجب اتخاذها ضد الحرب. هذا القرار عزل عمال تورينو كليا، فتلخوا عن إضرابهم العام في اليوم التالي. وبعد أربعة أيام، في 23 أيار (مايو) 1915، دخلت إيطاليا الحرب<sup>(8)</sup>.

هذا الإعلان الصادر عن قيادة الحزب كشف نوعا من عدم الانسجام في تفكير الحزب. وكان أعضاء الحزب قد عارضوا الحرب بعفوية، ولكن لم يكن لديهم أي برنامج واضح لجعل معارضتهم فاعلة. وربما كان ذلك ناجما عن حداثة تشكل الدولة الإيطالية والألام المتزايدة التي ما زالت تحيق بها، مما أدى بالكثير من الاشتراكيين إلى التقليل من أهمية القومية في الحرب، حتى أن بعض القادة الاشتراكيين أنكروا حتى مفهوم "الانتماء القومي" في إيطاليا. وعندما تساءل العمال الذين راقبوا التجربة الفرنسية وتلك البلجيكية حول كيف سيتصرف الاشتراكيون إذا ما هوجمت إيطاليا كانت أجوبة الحزب نظرية أكثر من أن ترضيهم. وأكثر من ذلك، فإن بعض أعضاء الحزب كانوا ناشطين في تأييدهم للتدخل على أساس أن المشاركة الإيطالية في الحرب ستؤدي إلى تسريع التصنيع وإلى تحرك تال للفلاحين باتجاه المصانع.

في تشرين الأول (أكتوبر) 1914، أصبح بينيتو موسوليني الناطق بلسان الاشتراكيين غير الراضين عن الحياض "المطلق" للحزب. وفي سلسلة من الافتتاحيات التي نشرت في جريدة "أفانتي" دعا موسوليني إلى مواقف اشتراكية مختلفة تجاه "القوى المركزية" و"التحالف". وقال أيضا أن الإضراب العام الاشتراكي لا يمكنه أن يمنع الحرب، وأنه لا يمكن للاشتراكيين الإيطاليين أن يتجاهلوا المسألة القومية، وخصوصا في منطقة ترنتينو:

"إذا كان مفهوم الأمة قد أصبح "باليا"، وإذا كان الدفاع الوطني قد أصبح منافيا للمنطق بالنسبة للبروليتاريا التي ليس لديها ما تدافع عنه، يجب أن تكون لدينا الشجاعة التي تسمح لنا بتوبيخ اشتراكي بلجيكا وفرنسا الذين ووجهوا بالغزو الألماني فوجدوا أنفسهم -موقتا طبعا- مع الأمة. وبالتالي علينا أن نستنتج بأن الاشتراكية الوحيدة الأصلية والصحيحة والنقية في العالم هي الاشتراكية الإيطالية. ولكن هناك أسباب كثيرة تجعل هذا النفاق غير ملائم!"<sup>(9)</sup>.

قليل من الاشتراكيين الإيطاليين كان راغبا في الانضمام إلى موسوليني في رفضه للحياض، ولكن العديد من الاشتراكيين الأصغر سنا وبعض المعتدلين من كبار السن كانوا قد تأثروا لفترة بأطروحاته. وكان الديمقراطيون اليساريون، مثل سالفيميني متحمسين بوضوح:

"عزيزي موسوليني،

"كنت في القطار عندما قرأت مقالتك عن الحياض غير المطلق، وأشعر أنني أرغب في تهنتك عليها. وقد قادك حدسك الصحيح والقوي مرة أخرى إلى الأمر الصحيح. لقد كان خرق حرمة الكلمة لإنقاذ روح الأممية بحاجة إلى غير القليل من الشجاعة في بلد الرهبان والترنارين هذا"<sup>(10)</sup>.

بعد ذلك بفترة قصيرة ظهر نقاش معقد حول الحيداء على صفحات الأسبوعية الاشتراكية الصادرة في تورينو "أل غريجو ديل بوبولو". ونشر أنجيلو تاسكا مقالين في 24 تشرين الأول (أكتوبر) و7 تشرين الثاني (نوفمبر)، وساهم غرامشي بمقال معنون "الحيداء الناشط والفاعل" نشر في عدد 31 تشرين الأول (أكتوبر)<sup>(11)</sup>. ورأى تاسكا أن لمعارضة الحرب قيمتها ك"أسطورة سلبية" تساهم في فصل الطبقات العاملة عن سلطة البورجوازية. على العكس من ذلك، رأى غرامشي أن الحيداء الرسمي للحزب يعلم "التنازل البوذي" عن العمل، وهو سلبية لا تتوافق مع طموحات الحزب للعب دور ناشط في الحياة الوطنية. وكان هذا موقف غير موفق عمليا في وقت كانت فيه البروليتاريا الإيطالية تنمي "وعيا وطنيا" وشعورا بالتضامن<sup>(12)</sup>.

بهذا الدعم المتردد لموسوليني كان واضحا أن غرامشي اعتقد أن الزعيم الرومانيولي ما زال اشتراكيا ثوريا. وشعر غرامشي -واقترض موافقة موسوليني- بأن الحرب ذاتها ستؤدي إلى انهيار النظام البورجوازي: "لا ينكر موقف موسوليني (بل هو يفترض مسبقا) أن على البروليتاريا أن تتخلى عن موقعها المعادي. وبعد فشل الطبقة الحاكمة أو انكشاف عجزها، يمكن للبروليتاريا أن تقضي على تلك الطبقة وأن تستولي على الدولة، هذا إذا كنت قد فهمت تصريحاته (تصريحات موسوليني) التي تتسم بشيء من عدم التنظيم"<sup>(13)</sup>. على العموم، هذا قول ليس نموذجيا. وعنصر الاستمرارية بين غرامشي الشاب وغرامشي المفكر الناضج هو التشديد على الدور الإبداعي والناشط الذي على الاشتراكية الإيطالية أن تلعبه إذا كانت تريد تحقيق الإمكانيات الثورية.

ولكن دفاع غرامشي الكفاء عن موسوليني لم يعمر طويلا. وبعد 15 تشرين الثاني (نوفمبر)، عندما بدأ موسوليني ينشر صحيفته "إل بوبولو ديتاليا" (شعب إيطاليا) الموالية صراحة للتدخل في الحرب، عارضه غرامشي وكل رفاقه في الشهر نفسه، وافقت الأكثرية الحيداءية في فرع تورينو على قبول غرامشي كمساهم منتظم في تحرير صحيفتها الأسبوعية "إل غريجو ديل بوبولو"<sup>(14)</sup>. روابط غرامشي الأولى داخل الحزب قامت مع الجناح "الامتداعي" (عكس "التدخل") الثوري، الذي يقوده أماديو بورديغا من نابولي. وكانت معارضة بورديغا للحرب أكثر كمالا ومنطقية من معارضة قيادة الحزب، وكان بورديغا قد حدد موقفه من خلال سلسلة من المقالات التي نشرها في صحيفة "أفانتي" بين عامي 1914-1915، والتي أكدت -كما فع لينين- الطبيعة الامبريالية للحرب<sup>(15)</sup>. وانضمام غرامشي إلى هذا الجناح كان بداية صعوده داخل الحزب، الذي سهله استبعاده من الخدمة العسكرية بسبب اعتلال صحته. وفي بداية عام 1916 بدأ غرامشي يكتب الأخبار المحلية وأعمدة المسرح للطبعة الصادرة في تورينو من صحيفة "أفانتي"، إلى جانب عمله في "إل غريجو ديل بوبولو"<sup>(16)</sup>.

## زيمروالد وكينيتال

تماما كما أدت إضرابات عمال المعادن الكبرى في عامي 1912-1913 إلى بروز الالتزام النضالي الاقتصادي للحركة العمالية في تورينو، أدت أحداث أيار (مايو) 1915 إلى الالتزام النضالي السياسي. وقد منعت الاجتماعات "العامة" ورفضت الرقابة على الصحف والمطبوعات الأخرى منذ اليوم الذي دخلت فيه إيطاليا الحرب. ولكن النقاش السياسي لم يتوقف داخل التنظيمات الاشتراكية. وفي تورينو، كما في كل مكان آخر، اتخذ الاشتراكيون موقفين من الحرب. وبينما رفض القادة المعتدلون الدعم المباشر للحرب فإنهم أصروا على أن ليس من مهمة الحزب إضعاف البلاد بل حماية البروليتاريا من الاستغلال. وكان هذا هو أيضا موقف إدارة الحزب: "لا الدعم ولا التخريب". الجناح اليساري أراد -من ناحية أخرى- تملصا كاملا من "الحرب البورجوازية"، ورفض هذا الجناح المشاركة في الكتائب العامة التي أنشئت للتعامل مع الجهد الحربي حتى وإن كانت هذه المشاركة تفيد الطبقة العاملة. وفي أواخر عام 1916 اتخذ هذا الجناح موقفا يكاد يقرب من الانتفاضة<sup>(17)</sup>.

في تورينو سيطر الجناح اليساري على الفرع، سواء مباشرة أو بصورة غير مباشرة، وذلك منذ بداية الحرب وحتى آب (أغسطس) 1917. ولم يكن هذا بالأهمية التي كان يمكن أن يكون عليها، إذ أن النواب الاشتراكيين عن مقاطعة بيمونتي، والاشتراكيين في مجلس المدينة، والعديد من قادة العمال في تورينو، كانوا معتدلين. بالإضافة إلى هذا، لم يكن لفرع الحزب في تورينو إلا أقل من ألف عضو في عام 1915. ومع ذلك، فقد تكلم اليسار باسم أكثرية عمال تورينو خلال الحرب، كما دلت على ذلك أحداث 1917.

وسمى قادة اليسار أنفسهم "المتصلبون الصارمون". وكان لفرانشيسكو باربيريس، الذي كان ربما أشهرهم، "حماسة المدافع عن حقوق الشعب"<sup>(18)</sup>. وكان دوره في إضراب عمال النسيج عام 1906 قد جعله شهيرا، وكانت لحرارة خطابه بالعامية شعبية في المدينة<sup>(19)</sup>. وكان بيبيترو راينيتانا قد جاء إلى الاشتراكية من الحزب الجمهوري وكثيرا ما كان يطرح أفكارا قريبة من أفكار النقابوية الثورية. وكان من بين زعماء اليسار الآخرين كل من: جوفاني بويرو وهو عامل لا يثق بالمتفقين ولا بالتشديد المبالغ على المهمات "الثقافية" للحزب، وإلفيرا تزوكي التي عرفت بعملها في الحركة النسائية وب"انهزامية" غير قابلة للمساومة، أي بالمعارضة الكاملة للجهد الحربي. وربما كانت تتحدث إلى الكثير من زملائها المتصلبين عندما قالت: "لقد جئت إلى الاشتراكية أساسا من خلال العاطفة، ومن خلال غريزة العصيان تلك السائدة بين كل أفراد الطبقة العاملة"<sup>(20)</sup>.

كان متصلبوا تورينو في البداية عاجزين عن تنظيم أي برنامج فاعل لمعارضة الحرب، وربما كان ذلك يعود جزئيا إلى ازدرائهم للتعاون مع الطبقات الوسطى الحيداءية في المدينة<sup>(21)</sup>. وكان هؤلاء أكثر نجاحا في الأهمية البروليتاريا. بحلول عام 1915، كانت الأهمية الثانية قد اختفت تقريبا، وسرعان ما بذلت الجهود للاستعاضة عنها بطريقة أو بأخرى، وساهم الحزب الاشتراكي الإيطالي على حد كبير في نجاح هذه الجهود. واستنادا إلى غويدو ماليولي فإن "الاشتراكية الإيطالية كتبت في تلك السنوات أنقى صفحات تاريخها وأكثرها جاذبية.. وكانت قد تميزت مرة أخرى عن اشتراكية معظم البلدان الأخرى"<sup>(22)</sup>.

في تموز (يوليو) 1915، التقى أودينو مورغاري وأنجيليكا بالابانوف في برن باشتراكيين روس وبولونيين وسويسريين، بهدف التخطيط لمؤتمر يضم كافة المنظمات الاشتراكية، سواء من البلدان المحايد أم تلك المحاربة، والتي حافظت على معارضتها للحرب. وأعلنت كل أجنحة الحزب الاشتراكي الإيطالي تأييدها لمثل هذا الاجتماع. وفي 5 أيلول (سبتمبر) افتتح المؤتمر في قرية زيمروالد الجبلية السويسرية. وحضر الاجتماع 40 وفدا يمثلون 13 بلدا بالرغم من أن الوفود الألمانية والفرنسية كانت تنتمي إلى الأقلية المعارضة داخل أحزابها. وكان المندوبون الإيطاليون هم: بالابانوف ومورغاري وج.م. سيراتي وكوستانتينو لاتزاري وج.إ. موديليان. وانقسم المؤتمر حول اقتراح لينين بتحويل الحرب الرأسمالية إلى حرب ثورية، وأيد وعظم الوفود الموقف الإيطالي الذي

شدد على الإجراءات التي لا تستهدف غير إنهاء الحرب. على العموم، فإن الجميع، بمن فيهم لينين، أيدوا ما سمي "بيان زيمروالد"<sup>(23)</sup>. ووصف هذا البيان الحرب بأنها نتاج للإمبريالية. وأدان الأحزاب الاشتراكية التي تخلت عن النضال الطبقي وقبلت الحرب. ودعا البيان إلى عمل جماهيري يستهدف إنهاء الحرب ويؤدي إلى تسوية سلمية دون عمليات ضم للأراضي أو دفع تعويضات عن أضرار الحرب. ونشر سيراتي، رئيس تحرير صحيفة "أفانتي"، بيان زيمروالد بالرغم من يقظة المراقبين<sup>(24)</sup>. وفي مساء 13 تشرين الأول (أكتوبر)، أرسل سيراتي صفحات الجريدة الأربع إلى الرقيب ميلانو كما يستدعي القانون فوافق هذا عليها. وما أن عادت النسخة حتى استبدل سيراتي الصفحة "البريئة" بصفحة تضم بيان زيمروالد وأخبار أخرى عن المؤتمر. ووزعت الطبعة في كل أنحاء إيطاليا عدا ميلانو، وحتى في فرنسا.

كل بنى الاشتراكية الإيطالية (إدارة الحزب و"الاتحاد العام للعمل" والإدارات الاشتراكية المحلية) وافقت على أعمال زيمروالد. وفي تورينو أعلن برونو بووتزي تأييد "اتحاد موظفي وعمال المعادن" لقرارات زيمروالد<sup>(25)</sup>. وتبنى الشباب الاشتراكيونشارة للصدر تحمل الأحرف الأولى FAZ التي ترمز إلى "اتحاد زيمروالد الألبى"<sup>(26)</sup>. وأشاد غرامشي بالمؤتمر كدليل على أن قصور "المكتب الاشتراكي الأممي" في بروكسيل لا يعني نهاية الأممية البروليتارية:

"إن الأممية بالنسبة لنا هي عمل روحي، إنها الوعي بالوحدة التي لبروليتاريي العالم (عندما تكون لديهم)... إنها نوع من القوى الموحدة التي تناضل باتفاق مشترك، وإن بتنوع في الصيغ الوطنية، من أجل هدف واحد مشترك ألا وهو إحلال الاشتراكية محل الحضارة البورجوازية"<sup>(27)</sup>.

وعقد مؤتمر ثان في كينيتات في سويسرا، في شهر نيسان (أبريل) 1916، وكان أكثر جذرية من المؤتمر الأول. وأدان هذا المؤتمر السياسات المالية ل"التحالف" التي يتبعها مكتب بروكسيل. وبناء على اقتراح لينين ناقش المؤتمر هجر الأممية الثانية وتشكل الأممية الثالثة. وكان لينين مدعوما بسيراتي وبالابانوف، ولكن الأكثرية رفضت الانفصال التام عن مكتب بروكسيل<sup>(28)</sup>. وفي 21 حزيران (يونيو) ذهب سيراتي إلى تورينو لكي يحاضر عن دروس زيمروالد وكينيتال. وبكلمات غرامشي، فإن هذا كان دليلا على "أن الرحم الذي انطلقت منه الحركات البروليتارية لم يجذب بعد، وأن ما من عملية جراحية بورجوازية يمكنها أن تجعله عقيما"<sup>(29)</sup>. وبعد سنوات، امتدح غرامشي سيراتي للنجاح الكبير الذي حققته جهوده للمحافظة على وحدة الحزب بينما كان يرفض الحرب، ووصفه بأنه "أنبل ممثل للمدرسة القديمة للاشتراكية الثورية الإيطالية"<sup>(30)</sup>.

بعد كينيتال ازدادت النشاطات السياسية الاشتراكية في تورينو. وألقى بييترو رابيتزانا سلسلة من المحاضرات حول "وحدة العمال في العالم"، التي قال أن لها الأولوية على الأممية، وهاجم الاشتراكية المعتدلة وأشاد بالنقابات كقاعدة للثورة الاجتماعية. وفي أيار (مايو) 1916، أصبحت ماريا جوديشي، وهي متصلة غاية في السذاجة، رئيسة تحرير "إل غريديو دي بوبولو" وبدأت هجوما شاملا على المعتدلين. وعلى شكوى بأن الصحيفة أصبحت مغرقة في البساطة، ردت جوديشي تقول: "ما زالت "إل غريديو" أقل بساطة مما يجب، وأقل سهولة مما يجب، وأقل وضوحا مما يجب. إن الدعاية توجه إلى الأكثرية تواضعا من بين الجماهير، الذين اعتادوا أن يقرأوا الأقل من الكتب النظرية والأكثر من كتب الحياة... وبنظريات أو بدونها، فإن الجماهير عندما "تشعر" أنها اشتراكية تتصرف كاشتراكية"<sup>(31)</sup>. ولم يكن غرامشي الشخص الذي يمكنه أن يتعاطف مع مثل هذه السياسة، ولم يكتب بعد ذلك أكثر من أربع مقالات ل"إل غريديو"، حتى أصبح هو نفسه رئيسا للتحرير فيها في آب (أغسطس) 1917. خلال هذه الفترة كان نشاطه الصحافي مقتصرًا على كتابة صفحة تورينو في "أفانتي".

### عمل غرامشي في عام 1916

حتى صيف 1917 لم يشترك غرامشي مباشرة في النقاشات داخل فرع تورينو. ولكن الواضح، على العموم، ومن خلال عمله الصحافي، أنه لم يكن متعاطفا مع الطرق التي يتبعها المتصلبون ولا مع متاعهم الإيديولوجي، بالرغم من أنه كان يشاركهم بالتأكيد الكثير من أهدافهم. ولكنه كان أكثر بعدا عن الإصلاحيين القلائل في فرع تورينو. أما الاشتراكيون الشباب الذين كانوا أقرب إليه فقد استدعوا إلى الخدمة العسكرية في عام 1916، خصوصا منهم، تاسكا وتيراشيني وتولياني. نتيجة لذلك، كرس السارديني الشباب نفسه كليا للعمل في الصحافة الاشتراكية التي كانت مصدر رزقه الوحيد. وفي كانون الثاني (يناير) 1916 بدأ يكتب عموده الخاص في صفحة تورينو في "أفانتي". ويصف سيربانو هذا العمود بأنه كان يشكل "درسا يوميا رائعا بصيغة صحافية قوية كانت جديدة على صحافة الحزب"<sup>(32)</sup>. وبعد سنوات، اقترح البروفسور أمبرتو كوزمو أن يجمع غرامشي مقالات وينشرها<sup>(33)</sup>.

ودلت تلك المقالات على اهتمام عميق بالمظاهر الثقافية والتربوية للاشتراكية. وكانت إحدى هذه المقالات المميزة قد نشرت في حزيران (يونيو) 1916 بعنوان "الاشتراكية والثقافة"<sup>(34)</sup>. وتهاجم المقالة النزعة التي كانت سائدة في تورينو والداعية إلى معارضة "الثقافة والانغماس الفكري" (intellectualism) وإلى الاتجاه في منحنى "الممارسة والواقع التاريخي اللذين تستخدمهما الطبقة [العاملة] لصنع المستقبل بيدها". ويشدد غرامشي في المقالة على الجدلية الإبداعية بين النضالات اليومية للعمال ومستواهم الإيديولوجي. ووجد غرامشي أساسا لموقفه في تأكيد فيكو على أن الوعي بالمساواة الإنسانية إنما أنتجته الجمهوريات الديمقراطية في الأزمنة القديمة.

وعلى العموم، فإن غرامشي لا يعني بالثقافة - المعرفة الانسيكوبيدية (معرفة دائرة المعارف). فهو يقول أن التعليم وحده لا يؤدي إلا إلى الشعور زائف بالتفوق. وهكذا، فإن أي طالب أو محام ينظر إلى الأسفل باتجاه "أفضل العمال المهرة الذي يكون التنفيذ الدقيق والضروري لعمله أكثر استحقاقا منه مرة مما يفعل الآخرون"<sup>(35)</sup>. ويؤكد غرامشي أن المعرفة الذاتية ومعرفة حقوق المرء وواجباته التاريخية لا تأتي بشكل عفوي:

"... بل بالتأمل الذكي، أولا لدى قلائل ثم لدى طبقة بأسرها، في سبب وجود الشروط المعيارية وفي الطريقة الأفضل لقلب الحقائق الإقطاعية وتحويلها إلى إشارات للثورة وإعادة البناء الاجتماعي. وباختصار، ما من ثورة إلا وسبقها تفكير ناقد حاد، وانتشار للثقافة، وسريان للأفكار بين الرجال الذين كانوا معرضين أولا عن الاستماع، الرجال المهتمين فقط بحل مشكلاتهم السياسية والاقتصادية الخاصة بهم، الرجال الذين لا شعور لديهم بالتضامن مع الآخرين الذين يعيشون الشروط نفسها"<sup>(36)</sup>.

وهكذا، فإن "الاستنارة" أعطت أوروبا كلها "وعيا موحدًا، وروحًا بوجوازية أممية، وحساسية تجاه المحن وحالات سوء الحظ المشترك، كانت هي التحضير الأفضل للثورة الفرنسية الدموية التي تلت". وهكذا يجب على الطبقة العاملة أن تخلق "استنارتها" المبنية على معرفة "الأخرين" لتاريخهم والجهود المتتابعة التي بذلوها ليصبحوا ما هم عليه، ولإيجاد الحضارة التي أوجدوا والتي تحاول استبدالها بحضارتنا"<sup>(37)</sup>.

وفي مقالات أخرى يستنكر غرامشي التشديد المعاصر في التعليم من الكتب وليس من ما يسميه "الروح الإبداعية"<sup>(38)</sup>. وقد عارض غرامشي التعليم التقني الصافي للعمال باعتباره لعبة في أيدي الصناعيين البورجوازيين<sup>(39)</sup>. وفي المقالة التي تحتفل بالذكرى العاشرة لأول إضراب هام لعمال النسيج في تورينو رأى غرامشي أن الإضراب كان قبل كل شيء درسًا في الوعي الطبقي. وقد أصبح العامل الآن (1916) "محاربًا من أجل فكرة. أصبح صليبيًا في طريقه إلى فتح الأرض الموعودة. فهو يعرف ما يريد، وقد رص صفوفه وأجبر الآخرين بالاعتراف بقيمه.. في حين كان حتى زمن قصير مضى، دليلًا ومستسلماً"<sup>(40)</sup>.

وكان أفضل تعبير لغرامشي عن المفكر الاشتراكي المثالي كمعلم قد ورد في امتداحه لشارل بيغي. ورأى غرامشي في بيغي رجالًا "يرهبونهم في صراع يومي من أجل التعليم الداخلي للأخريين مضحيانًا بشخصيته الفنية لكي يمنح شباب فرنسا وعيا جديدًا". وتحليل غرامشي أن بيغي -مثله- توقع أن لا يأتي تحرير المجتمع من قيم الفساد إلا "من الأعماق، من أدنى الطبقات الاجتماعية"<sup>(41)</sup>.

وتشديد غرامشي في مقالة "الاشتراكية والثقافة" على "التضامن مع الآخرين الذين يعيشون الشروط نفسها" يعكس بلا شك اهتمامه المستمر بجنوب إيطاليا. وفي مقالة أخرى نشرت في عام 1916 امتدح غرامشي أرتورو لايريولا ووصفه بأنه النائب الوحيد الذي يملك من الشجاعة ما يكفي لإثارة مسألة تأثيرات الحرب على الجنوب<sup>(42)</sup>. وأكد غرامشي أن التنشيط الملحوظ الذي أدت إليه الحرب في نمو رأس المال سيزيد من اتساع الثغرة الاقتصادية القائمة بين الشمال والجنوب، إذ أنه "حيث كان المصنع موجودًا استمر في النمو من خلال الاستثمار، أما حيث تواجه كل مؤسسة مصيرًا مشوكًا فيه أو متقلبًا فإن التوفيرات... توظف حيث يمكن استخدامها فورًا". وبالرغم من أن حكومة سالاندرًا وعدت بخطة جديدة للجنوب بعد الحرب، فإن غرامشي قال أن هذه الخطة سوف "تنسى، ككثير من الخطط الأخرى وضعت في الماضي".

### المدينة المستقبلية

الأكثر أهمية بكثير من كتابات غرامشي المبكرة كان "المدينة المستقبلية"، وهي عبارة عن بحث قصير نشره "اتحاد الشباب الاشتراكي" في بيمونتي، مطبوعًا كالصحف اليومية، في 11 شباط (فبراير) 1917 كجزء من حملة لتنشيط الانتساب. ويمكن النظر إلى هذا البحث كموجز وتجميع للتدريب الذي حصل عليه غرامشي في الجامعة، ولخبراته في الحركة الاشتراكية الإيطالية. وهو يقدم إشارة مثيرة للاهتمام إلى أفكاره عشية ثورة شباط (فبراير) في روسيا. وموضوع "المدينة المستقبلية" يدور حول إيمان غرامشي بقوة الإرادة، التي يوجهها التحليل الذكي للواقع، والتي يضبطها حزب سياسي قوي، لكي تجري تغييرات جذرية في المجتمع والدولة. وبكلمة مختصرة، فإن اهتمامه ينصب على "تقاليد ماتزيني من ناحية التعبير الاشتراكي"<sup>(43)</sup>.

المقالة الرئيسية المعنونة "ثلاث مبادئ... ثلاث نظم"، تقول بأن الثورة الاشتراكية سوف تتحقق في إيطاليا قبل تحققها في الدول المتقدمة في أوروبا الغربية، وتحديدًا نتيجة لتخلف إيطاليا. هذه الأطروحة كانت تشكل هجومًا مباشرًا على الإصلاحيين الإيطاليين، الذين كانوا يصرون على أن إيطاليا لن تصبح اشتراكية إلا بعد أن "تنضج" الرأسمالية الإيطالية ودولتها الليبرالية. ودعم غرامشي مقالاته بتحليل للمشكلات التالية: الإرادة كعامل في التغيير المؤثر، والدولتان الانكليزية والألمانية كتعبيرين عن الرأسمالية الناضجة، والمقارنة بينهما والدولة الإيطالية<sup>(44)</sup>.

واستنادًا إلى غرامشي، فإنه لكي يكون النشاط الإنساني فاعلاً لا بد أن يكون له هدف قابل لتحقيق. وهذا صحيح خصوصًا بالنسبة للنشاط الاشتراكي، نظرًا لأن على الاشتراكية أن تتجاوز تردد الجماهير في المخاطرة بالفوضى التي قد ترافق الانتقال إلى مجتمع جديد. وفي محاولة "الاشتراكيين الطوباويين" لتجاوز هذا التردد فإنهم حددوا مجتمعهم المستقبلي بكل تفاصيله. ولكن تعقيدات الأحداث جعلت من المستحيل التنبؤ بالمستقبل إلى هذا الحد من الكمال، وبالتالي فإن من الصعب إقناع الناس بالعمل لإحداث مثل هذا النوع من الطوباويات. وما من صعوبات مماثلة ترافق دعم فكرة ما، أو مبدأ قانوني، أو "قانون" أخلاقي، نظرًا لأن هذه يمكن أن تفهم بمعزل عن الطبيعة، المحددة للمجتمع الذي تتجسد فيه. وهكذا، فإن رجال ثورة 1789 الفرنسية لم يحاولوا إقامة النظام الرأسمالي، بل كان هدفهم هو نشر "حقوق الإنسان".

والمؤكد هو أن البورجوازية كانت في النهاية أكثر المستفيدين من الثورة. ومع ذلك، فقد كان ينظر إلى المبادئ التي أقامتها الثورات البورجوازية على أنها عقلانية وكونية شاملة، وبالتالي يمكن تطبيقها على كل الناس. وعلى أساس هذه المبادئ أقيمت "الدولة الأخلاقية"، وهي دولة تقوم مثاليًا فوق مصالح الأشخاص المعنيين والطبقات المعنية. هذه الدولة كانت دولة مثالية وليس واقعا، وعلى العموم، فإن صفتها المثالية بالتحديد هي التي مدتتها بالقوة وجعلت منها قوة محافظة قوية. وبأمل أن تتحقق هذه الدولة المثالية أخيرًا بكمالها التام، امتنع الكثيرون عن العمل للإطاحة بها.

وكانت انكلترا وألمانيا المعاصرتان تقدمان أفضل الأمثلة عن هذه الدولة الأخلاقية. وبالمعنى الشكلي بدت هاتان الدولتان مختلفتين إحداهما عن الأخرى، ولكن كان لكل منهما أجهزة سياسية قوية يفترض أنها مصالح مواطنيها الأفراد. وكانت الليبرالية هي المفتاح الرئيسي للدولة البريطانية، في حين أن السلطة، بمساعدة العقل، كانت تقود الدولة الألمانية.

وبرزت الليبرالية في انكلترا كنتاج للنضال من أجل الحريات الدستورية، وهي أكدت أن الحقيقة تنبع من التنافس الحر للأفكار، وأن القوة الاقتصادية تنبع من التطور العفوي للقوى الإنتاجية. وهكذا، فإن لويد جورج قال في تعليق له على الاقتراحات الاشتراكية بعد الحرب بقليل أن الحكومة الاشتراكية لن توجد إلا عندما يثبت الاشتراكيون، وإذا ثبتوا، في سوق الأفكار السياسية، أنهم الحزب الأقوى والأقدر. هذا التصريح الذي بدا مذهبًا للإيطاليين، الذين كانوا يرون حكومتهم غير ذات علاقة بالقوى الحيوية للبلاد، "لم يكن بلاغة فارغة"، فهو يشير إلى حق اكتسبه الشعب الانكليزي خلال قرنين من النضال السياسي.

على العكس من ذلك، كانت الدولة الألمانية سلطوية. وهي استهجن التنافس الحر للقوى السياسية العاملة باعتباره غير فاعل، وفضلت برنامجا ثابتا يقوم على العقل. ولم يكن للبرلمان الألماني أية قوة حقيقية. وكان البرلمان موجودا فقط لأن إنسانا واحدا لم يكن يمكنه أن يؤكد علانية عصمة السلطة التنفيذية، وكان يمكن للمنافسة البرلمانية أن تدفع الحقيقة إلى البروز. ومع ذلك، كان الظلم نادرا في ألمانيا وكانت مصالح كافة الطبقات محمية.

هاتان "الدولتان الأخلاقيتان" كانتا تشكلا النموذجين الأساسيين للأحزاب الليبرالية والمحافظه في إيطاليا، وكانت إنجلترا هي النموذج للبريين وألمانيا النموذج للمحافظين. ولكن إيطاليا لم تكن قد مرت ابدا بمرحلة التطور السياسي والاقتصادي التي أوجدت انكلترا أو ألمانيا الحديثتين، وبالتالي فإن كل النموذجين كانا استباقيا توقعيا. وأساء من ذلك فإن مضمونها كان يعني أن على البروليتاريا الإيطالية أن تضحي بمصالحها الاقتصادية والسياسية لكي تتم إقامة الدولة الإيطالية الجديدة بأقصر زمن ممكن. وكان الليبراليون والمحافظون يميلون إلى تحويل الفوضى الإيطالية الراهنة إلى نظام جديد، ولكن هذا النظام الجديد لم يكن يمكن التوصل إليه إلا إذا بقيت قوة الاشتراكيين محدودة.

على العموم، بالنسبة لغرامشي، كان غياب النظام السياسي عن إيطاليا هو "المصدر الأكبر لطاقة الاشتراكيين ونضالهم". "في البلدان التي لا تجري فيها نزاعات مكشوفة، وحيث لا تداس القوانين الأساسية للدولة، وحيث لا ترى الإجراءات الاستبدادية للطبقة السائدة، يفقد الصراع الطبقي خشونته، ويفقد النضال الثوري اندفاعه وحالات تردده... وحيث يوجد النظام، يكون من الأصعب تقرير استبداله بنظام جديد".

ولم يكن على الاشتراكيين الإيطاليين استبدال نظام قديم بأخر جديد، بل الاكتفاء بخلق نظام حيث يوجد نظام قديما. وكان على النظام الإيطالي أن "يمنح كل مواطن فرصة إرضاء الذات". وهو ما يبطل الامتيازات التقليدية للطبقات الإيطالية الحاكمة. ونظرا لأن "كل مبادئ البرنامج الاشتراكي الأقصى ترتبط عضويا بهذا المبدأ، فإن البرنامج ليس طوباويا... بل يمكن دفعه إلى الأمام بالإرادة". وفي تلك الظروف، اعتقد غرامشي أن النظام الاشتراكي "سيتحقق في إيطاليا بأسرع مما يفعل في أي بلد آخر".

لقد أوجزت هذه المقالة بتفصيل ملحوظ لأنها تقدم إطارا لكل الكتابات الأخرى في "المدينة المستقبلية" ولأنها تشير إلى قوة الميول "المثالية" و"الإرادية الطوعية" عند غرامشي تلك الأيام، والتي كثيرا ما انتقد بسببها من قبل أعدائه في الحزب الاشتراكي<sup>(45)</sup>. ومقالة "ثلاث مبادئ... ثلاث نظم" بحد ذاتها ليست مؤثرة، فالكثير من أفكارها لم يطور بصورة كافية، وتبقى استنتاجاتها، مهما كانت مثيرة للاهتمام، ضعيفة تحليليا. أما المقالات الأخرى في "المدينة المستقبلية" فقليلة عظيمة وأكثر تنديبا.

في "اللامبالون" يهاجم غرامشي ببلاغ وقوة حجة أولئك الذين يرفضون زج أنفسهم في الحركات السياسية القائمة<sup>(46)</sup>. وتشكل هذه المقالة تصريحاً واضحاً بمعارضته الدائمة للحتمية التاريخية:

"يبدو أن التاريخ ليس إلا ظاهرة طبيعية هائلة، بركانا، زلزالا، نحن كلنا ضحاياه، سواء منا صاحب الإرادة أم اللامبالي. ويصبح هذا الأخير مهتاجا، إنه يريد أن يفصل نفسه عن النتائج ليحجز من الواضح أنه لم يكن راغبا في الأمر وليس مسؤولا عنه... ولكن أحدا تقريبا لا يسأل نفسه: "لو فعلت أنا أيضا واجبي، ولو سعيت إلى جعل إرادتي ورأبي يتغلبان، هل كان لهذا أن يحدث؟" المقالة التالية تحت الشباب على الانضمام إلى "اتحاد الشباب الاشتراكي". وبالنسبة لغرامشي، كان الانضمام إلى حزب سياسي يمثل الطريقة الأكثر فعالية للتأثير على مسار التاريخ.

"إن الانضمام إلى حركة ما يعني تحمل جزء من مسؤولية الأحداث المقبلة. والشباب الذي ينضم إلى حركة الشباب الاشتراكي يقوم بفعل استقلال وتحرير. أن يضبط الإنسان نفسه يعني أن يحقق لها الاستقلال والحرية. ولا تكون المياه صافية وحررة إلا عندما تتساقط بين ضفتي جدول أو نهر، وليس عندما تتبدد فوضويا على التربة"<sup>(37)</sup>.

وبالروح المضادة للحتمية نفسها هاجم غرامشي الإصلاحيين الاشتراكيين أتباع كلاوديو تريفيز:

"إن الحياة بالنسبة لهم (الإصلاحيين) مثل قمة جبلية ترى عن بعد وهي تنهار دون أن يوقفها شيء. ويتساءل القزم: "هل أستطيع إيقافها؟". ويجيب: "لا، إنها لا تستجيب لأية إرادة. ونظرا لأن القمة الجبلية الإنسانية لا تتبع منطقاً قد لا يكون منطقي، ونظرا لأنني كفرد لا أملك القوة اللازمة لوقفها أو لتحويل مسارها، أجدني مقتنعا بأنها لا تملك منطقا داخليا، بل هي تستجيب لقوانين طبيعية لا يمكن خرقها"<sup>(48)</sup>.

واستنادا إلى غرامشي، فإن هذا النوع من الحتمية دمرته أزمة أواخر القرن التاسع عشر في الفكر العلمي، التي أدت إلى الحد من الطريقة العلمية لمعالجة تلك المشكلات التي كانت مؤهلة لحلها. لقد تمكنت الاشتراكية من الاستمرار في الحياة خلال تلك الأزمة وبعدها: "لقد حلت الإرادة القوية للإنسان محل قانون الطبيعة والمسار المصيري العلمي الزائف للأمر... الاشتراكية لم تمت، لأن الرجال الذين لهم إرادة قوية تجاهها ما زالوا موجودين"<sup>(49)</sup>. هذا الحكم "الذاتوي" إلى حد كبير هو نتيجة للتدريب الذي عرفه غرامشي في حقل الفلسفة المثالية.

واستعملت تلك الجريدة بمقالات وملاحظات عديدة حول مشاكل الثقافة والمجتمع الإيطالي، بما في ذلك كتابات مختارة من أعمال سالفيمني وكروتشي وأرماتو كارليني. وتشكل "المدينة المستقبلية"، بالرغم من عدم نضوجها التعبيري، وثيقة هامة في حياة غرامشي. إنها تمثل جهده الأول للتعامل مع بعض القيم الأساسية التي جعلت منه بعد شخصية بارزة في اليسار الإيطالي: موقف قوي مضاد للحتمية، وإيمان بأهمية التخطيط، وتشديد على الانضباط السياسي، والتزام بفلسفة المثاليين الإيطاليين وخصوصا كروتشي الذي وصفه غرامشي بأنه "أعظم مفكر في أوروبا هذا الوقت"<sup>(50)</sup>.

### انتفاضة آب (أغسطس)

مباشرة بعد نشر "المدينة المستقبلية" ذهبت مشاركة غرامشي في الحركة الاشتراكية إلى أبعد من العمل الصحافي البحت. وفي 21 آب (أغسطس) 1917 قامت الانتفاضة الكبرى في تورينو مطالبة "بالسلم والخبز"، ووصف غرامشي هذه الانتفاضة اليانسة بأنها "نضال ثوري مسلح على مستوى واسع"، وسمى تورينو "بتروغراد الثورة البروليتارية الإيطالية"<sup>(51)</sup>. أما السلطات فكانت تشير إلى الانتفاضة بالجملة المعهودة "أحداث تورينو" مقللة من سمتها السياسية<sup>(52)</sup>. ولم تكشف حقائق تلك الانتفاضة إلا أخيرا من خلال العمل الذي قام به مونتيكوني وأفيدور وسبريانو وتزوكارو وأمبروسولي<sup>(53)</sup>. وترجع الانتفاضة في أصولها إلى أيلول (سبتمبر) 1916

على الأقل، عندما اعتقل عدد من المتظاهرين في اجتماع عقده "الجمعية العامة للعمال" في تورينو للاحتجاج على حكم بالإعدام صدر بحق الفوضوي كارلو تريسكا. ويشير تقرير (أو "حكم") المحكمة العسكرية الإقليمية حول أحداث آب (أغسطس) 1917 إلى هذا الاجتماع قائلاً أنه "الأول في سلسلة من الاجتماعات الخاصة بالاسم والعامة في الواقع، التي عقدت بتوال زمني سريع"<sup>(54)</sup>. بعد أيام قليلة، اعتقل كل من ماريا جوديشي وأومبرتو تيراشيني لتوزيعهما منشورات عن اجتماع كينيال. وسرعان ما جند تيراشيني وأرسل إلى الجبهة.

كان الفوضيون قد أعلنوا أعنف إدانة للحرب. وأحد بيانات الفوضويين النموذجية (بتاريخ 21 أيلول/سبتمبر 1917) حث على الثورة فوراً:

"لم تقتنعوا بعد بأن هذه الحرب التي تخص الأسر الحاكمة، هذه الحرب البورجوازية، هذه الحرب التي راحت تدمر ثمار علمك الشاق وتقتل أطفالكم منذ أكثر من سنتين، لا يمكن وضع حد لها إلا بمواجهة العنف البورجوازي بالعنف البروليتاري؟... أن تقدمكم الاجتماعي لن يتم إلا بثورة اجتماعية.. احملوا في الشوارع وخلف المتاريس وفي المعارك ضد السلطات البنادق التي صنعتها البورجوازية لقتلكم... أيها البروليتاريون، قوموا بفؤوسكم ومعاولكم إلى المتاريس، إلى الثورة الاجتماعية! إن عدوكم ليس عند ما يسمى بالحدود، بل هو هنا! ليس لكم وطن أم لتدافعوا عنه، بل لكم أن تدافعوا عن حياة البروليتاريا، البروليتاريا الجريئة برصاص البورجوازية والعسكر. أيها العمال، إن الدرب الذي اختطته الحكومة لكم هو درب الثورة! أعدوا أسلحتكم، واتخذوا مواقعكم، ولتبدأ المعركة"<sup>(55)</sup>

كذلك دعا الشباب الاشتراكي إلى "ساعة العمل"، وبدأ المتصلبون الاشتراكيون حملة أكثر كثافة ضد المعتدلين. وفي اجتماع عقد في 22 أيلول (سبتمبر) في "الجمعية العامة للعمال" حذر باربيريس المستمعين من أن عليهم "أن يفضلوا الذهاب إلى السجن على الموت في الخنادق.. وصارت الحاجة اليوم إلى الأفعال لا إلى الأقوال. علينا أن نستمر في جهودنا لجعل الاشتراكيين في إيطاليا وأوروبا يفهمون أننا بالقوة فقط نستطيع تحقيق السلام وتدمير الامبريالية والروح العسكرية"<sup>(56)</sup>

ولكن "المتصلبين الصارمين"، الذين لم يتمكنوا من إقناع الأكثرية في الفرع بإتباع خطواتهم، فقدوا السيطرة على اللجنة التنفيذية بفارق ضئيل في نهاية عام 1916. ولكن القيادة الجديدة، كذلك القديمة، أبدت المعارضة الشاملة للحرب. والواقع أن حاكم تورينو طلب الإذن من وزير الداخلية بحل فرع الحزب في المدينة، وكذلك حل "غرفة العمل" واتحاد الشباب، ولكن الطلب لم يحظ بالموافقة<sup>(57)</sup>. وبالرغم من وجود المتصلبين في موقع الأقلية داخل الفرع فإن خطهم السياسي بقي له نفوذ واضح. وفي الواقع فإن مندوبي تورينو إلى المؤتمر الاشتراكي الذي عقد في روما في 25-17 شباط (فبراير) 1917 كانوا كلهم من المتصلبين (رابيتزانا وباربيريس وجوديشي وكارلو كيابو)، وقد أيدوا مشاريع القرارات المتطرفة، وخصوصاً مشروع قرار بورديغا حول العمل الثوري لإنهاء الحرب<sup>(58)</sup>. في تورينو، ذهب الفرع بعيداً إلى حد أنه أصدر قراراً - وإن بأغلبية ضئيلة - يدعو الأعضاء الاشتراكيين في الإدارات البلدية وإدارة المحافظة إلى الاستعداد للاستقالة من أعمالهم، وهي خطوة كانت ستضحي بالإدارات الاشتراكية في ميلانو وبولونيا. وفي 26 شباط (فبراير) وصفت صحيفة "أفانتي" اشتراكي تورينو عموماً بأنهم "أكثر المتصلبين تشنجاً"، وحذر مدير شرطة الدولة حاكم تورينو من أن "العناصر الاشتراكية المعتدلة فقدت كل نفوذ لها" على الطبقة العاملة في المدينة<sup>(59)</sup>. كان هذا هو الجو المسيطر الذي كتب غرامشي خلاله "المدينة المستقبلية".

كذلك كان للأوضاع الاقتصادية تأثيرها في مزاج تورينو عام 1917، وعلى أساس البحث الذي أجراه فوساتي وآخرون استنتج سبريانو أن الأجور الحقيقية في إيطاليا ككل تناقصت بين عامي 1915 و1918، وأن هذا التراجع في الأجور كان يتسارع من سنة إلى أخرى<sup>(60)</sup>. وفي تورينو وجدت الأكثرية العظمى من العمال أجورهم الحقيقية تقل عن الأسعار بالرغم من أن العمال الأكثر مهارة وتنظيماً، مثل عمال السيارات، تمكنوا أحياناً من مماشاة الأسعار بالعمل ساعات إضافية أو بإرسال أفراد العائلة غير العاملين إلى العمل. وحتى جوزيبي براتو، وهو اقتصادي محافظ إلى حد ما، لاحظ النقص المطلق لاستهلاك اللحوم والزبدة والسكر بين عامي 1912-1914 وعامي 1917-1918 في تورينو<sup>(61)</sup>. ولكن كل هذه الاستنتاجات استنبطت من أبحاث أجريت بعد الحرب، أما في أيام الحرب فكان هناك الكثير من التذمر في صفوف الطبقات الوسطى حول الارتفاع المزعوم للأجور والإنفاق اللامبالي للعمال. براتو نفسه، وبالرغم من تغير رأيه بوضوح بعد الحرب، كان قد شن هجوماً عنيفاً ضد "الانتشار الشامل للترف، المكلف بقدر ما هو مبتذل"، و ضد "التبديد بلا تفكير الذي أصبح ممكناً لدى الجماهير بفضل الأجور المبالغية التي تتفاضلها"<sup>(62)</sup>. بعد وقت ما، رد غرامشي على هذه الاتهامات بسخرية حادة خص بها الأكاديميين الذين اعتبرهم متحذلقين وغوثيين:

"كان على (البروفسور براتو) أن يشرح لنا -نحن الذين نعرف أننا جهلة ونسعى باستمرار إلى أن ننهل من ينبوع المعرفة- ما هي العملية المعقدة التي يمكن بواسطتها أن تصبح زيادة مبيعات "التحالف التعاوني" للنبيذ دليلاً عملياً على الإدمان الكثيف، ولماذا لا يمكن للتفسير أن يكون غوثانياً إذ يقال بفتح مخازن جديدة ويزيادة عدد المستهلكين الذين يشربون هذا النبيذ على مائدة الطعام. وبأية عملية معقدة تصبح حقيقة أن الاشتراكيين، مثل الاقتصاديين الليبراليين، يقفون ضد الادخارات القسرية المصطنعة، جاهزة لتدفع إلى الاستنتاج بأن العمال لا يدخرون، عندما يكون بنك الادخار والإقراض التابع لـ "التحالف التعاوني التوريني" قد دل بأرقامه على العكس؟ هذه العملية المعقدة تسمى "الجهل بالوثيقة"، وبراتو لم يكن يعرف الوثيقة لأن شخصية الباحث لديه أفسحت المجال لشخصية النصير، لأن براتو، بالإضافة إلى كونه باحثاً، هو إنسان غوثائي (ديماغوجي). إن الغوثائية ليست ممارسة تقتصر على الاشتراكيين، بل هي ترتيب عام للعقل يتجاهل من المرء من خلاله اعتبارات قد تدعم موقفه بهدف التغلب على خصمه"<sup>(63)</sup>.

ويعكس جدل براتو الغضب الشديد الذي كان يعم الطبقة الوسطى في تورينو التي وجدت نفسها بين فكي كماشة "المستفيدين من الحرب" من ناحية والعمال "التميزين" من ناحية أخرى. والكثير من أبناء هذه الطبقة وجد مدخراته ورواتبه المتواضعة تذوب في تضخم أيام الحرب.

العمال من ناحيتهم شعروا بالاستياء لا بسبب الصعوبات الاقتصادية التي أدى إليها تضخم أيام الحرب فحسب، بل أيضاً بسبب أوضاع وشروط العم أيام الحرب. فقد سيطر الانضباط العسكري القاسي وطول ساعات العمل على معظم مصانع تورينو خلال الحرب. وفي كل ورشة أقامت الحكومة "لجنة التعبئة الصناعية" التي كانت تتألف من ممثلين لأصحاب الورشة وللعمال ويرأسها

موظف حكومي يملك السلطة الفعلية. وبالرغم من أن الكثير من المصانع كانت تضم أيضا لجانا داخلية منتخبة من قبل العمال فقط، فإن هذا الجهاز لم يكن معترفا به رسميا وكانت له سلطة ضئيلة للمساومة.

بالرغم من كل أسباب الاستياء هذه فإن السبب الأهم للانتفاضة أب(أغسطس) ربما كان الأنباء الواردة عن أحداث روسيا. وكان كل إنسان في إيطاليا تقريبا قد سر في البداية بثورة شباط(فبراير)، الأحزاب الدستورية سرت لأنه بدا لها أن ما حصل في روسيا يعطي قضية الحلفاء طابعا ديمقراطيا أكثر جوهرية، والاشتراكيون سرورا لأن ما حصل يمثل بالنسبة إليهم الخطوة الأولى في تقفنت النظام الأوروبي القديم. ولكن، مع تدهور الوضع في روسيا سرعان ما انقسمت الآراء. وفي 29 نيسان(أبريل) أشار اشتراكيو تورينو إلى دعمهم للينين عندما وصفته صحيفة "ال غريديو ديل بوبولو" بأنه "الأكثر اشتراكية والأكثر ثورية بين القادة ذوي النفوذ في الأحزاب الاشتراكية الروسية". ويذكر أن اسم لينين وبعض مبادئه ومفاهيمه كان معروفا بشكل جيد في إيطاليا نتيجة لمؤتمر زيمروالد وكينينال. وتنبأ غرامشي في العدد نفسه من الصحيفة الأسبوعية الصادرة في تورينو بأن الثورة "يجب أن تؤدي طبيعيا إلى نظام اشتراكي"<sup>(64)</sup>. وفي اجتماع عقد في تورينو في 6 أيار(مايو) هاجم باربيريس أوغو موندولفو لتشاؤمه فيما يتعلق بإمكانات بناء الاشتراكية في بلد متخلف مثل روسيا<sup>(65)</sup>. وخلال فترة الربيع كله وزعت في تورينو وفي المحافظات منشورات تشيد بالثورة الروسية. وقد أورد سبريانو المثال التالي المأخوذ من تقارير حاكم المدينة:

"أيها الرفاق.. إن رفاقنا في روسيا ضربوا مثلا يستحق الإعجاب للقوة البروليتارية، وهم يقومون بعمل من أجل العدالة. ولو فعلت الشعوب الأخرى الشيء نفسه فإن الحرب ستوقف. لنقلدهم أيها الرفاق. أيها الجنود البروليتاريون، عندما يقولون لكم بأن البروليتاريا تركزهم صفوهم بالكذب. إن ما فعل هو في سبيل الخير العام. اتبعوا مثل رفاقكم الروس. لا تكونوا من قتلة الأهل. توحدوا معنا في قضية السلم والحرية"<sup>(66)</sup>.

واستمر الجو الملهب طيلة الربيع ومطلع الصيف سنة 1917. وقاد المتصلبون الحملة. وفي 27 أيار(مايو) أصر رابيتزانا على أن الوقت قد حان من أجل الانتفاضة العامة. وكان على العمال أن يجهزوا أنفسهم بالمتفجرات من المصانع التي تصنع فيها، وأن يستعملوها ضد كل من يعارض "حركة الشعب وإرادته"<sup>(67)</sup>. وجاء سيراتي من ميلانو، وكان السبب الظاهر لمجيئه هو التنسيق بين حركة تورينو وحركات المدن الأخرى<sup>(68)</sup>. ولكن إبداء الاهتمام هذا لم يكن كافيا لتهدئة استياء باربيريس ورابيتزانا من "السياسات الملتوية" للقيادة الوطنية للحزب التي استقالا منها على الفور<sup>(69)</sup>. وفي فلورنس، ساهم متصلبو تورينو خلال شهر تموز(يوليو) ومطلع آب(أغسطس) في تشكيل "جناح ثوري متصلب" في الحزب. هذا الجناح الجديد، الذي أثبت أنه في غاية القوة في تورينو وميلانو ونابولي وفلورنس، وضم القومية بأنها مشاعر بورجوازية ودعا إلى العنف باعتباره "قابلة كل المجتمعات الحبلية بالثورة"<sup>(70)</sup>. وتجاهلت السلطات ببساطة هذه التحديات المباشرة لجهود الحرب، ربما أنها قللت من إمكانات قوة الجناح الجديد.

بين الطبقات الوسطى للمدينة كان الحياء قد بدأ يصبح أكثر رسوخا. وقد أفاد أحد مفتشي الشرطة بأن "الرأي العام في تورينو كان دوما، ولدى كل الطبقات، معاديا للحرب، وقد بقي كذلك. ولهذا، فإن من الطبيعي أن يجد المرء في تورينو أكثر من أي مكان آخر أرضا خصبة لبدور السلام مهما كان بذارها سابقا لأوانه"<sup>(71)</sup>. وفي حزيران(يونيو) أجبر عمدة تورينو توفيلو روسي على الاستقالة بعد أن أعلن أن جوليتي "هو اليوم في قلوب الإيطاليين أكثر من أي وقت مضى"<sup>(72)</sup>. وفي 13 آب(أغسطس) هاجم جوليتي نفسه الحكومة بسبب قيادتها للحرب، وخصوصا بسبب إجازتها ل"تضحيات غير متساوية" ول"الظلم الاجتماعي"<sup>(73)</sup>.

وفي 13 آب(أغسطس) وقع حادث آخر ربط بين الحماسة للثورة الروسية والاستياء والانهزامية المحليين. ففي أواخر تموز(يوليو) كانت حكومة كرينسكي قد أرسلت، بموافقة الحلفاء، وفدا من سوفيت بتروغراد لزيارة انكلترا وفرنسا وإيطاليا. وكان على هذا الوفد، الذي كان برئاسة جوزيف غولدنبرغ ويتألف كله من المناشقة، أن يقدم لعمال أوروبا الغربية برنامج كرينسكي من أجل النضال المتزامن، من أجل السلام على المستوى الدبلوماسي ومن أجل استمرار الجهد الحربي في الجبهة. وللمرة الأولى منذ اندلاع الحرب سمحت الحكومة الإيطالية للاشتراكيين بعقد اجتماعات عامة للترحيب بالوفد. ووصلت المجموعة إلى تورينو يوم 13 آب(أغسطس)، وكانت تلك هي نقطة الذروة في جولتها<sup>(74)</sup>، حيث احتشد أكثر من 25 ألف عامل للاستماع إلى ما ستقوله<sup>(75)</sup>. ودهش الروس عندما ووجهوا بهتافات "يعيش لينين" (قبل الاجتماع بوقت قصير كان غرامشي قد أشاد بالزعيم البلشفي في "ال غريديو"<sup>(76)</sup>). بغض النظر عن لينين، كان الاجتماع نجاحا باهرا. وخطاب غولدنبرغ، الذي امتدح فيه حركة السلام من دون أن يؤيد سلاما روسيا منفصلا مع "القوى المركزية"، "ترجمه" سيراتي للجمهور، ويبدو أن سيراتي أظهر في ترجمته وكان الروس يدعون إلى وقف فوري للحرب<sup>(77)</sup>. وكان بين المتكلمين الآخرين كل من ماريا جوديشي وباربيريس والفوضوي أنسيلمو أكويتيس والمحارب القديم الجريح جوزيبي بيانيتزا، الذي أكد للجموع أن "الجنود كانوا متعبين من الحرب ويرغبون بالسلام بحماسة"<sup>(78)</sup>.

ووصف سبريانو هذا الاجتماع الحاشد بأنه "الشرارة" التي أشعلت "برميل البارود"<sup>(79)</sup>. وحصل الانفجار الحقيقي بعد أسبوع، عندما أضيفت شرارة اقتصادية إلى التأثير السياسي لوصول البعثة الروسية. وكان قد لوحظ نقص القمح في تورينو في وقت مبكر من السنة، ولكن الأزمة الحقيقية بدأت في آب(أغسطس). وصباح 21 آب(أغسطس) عجز حوالي الثمانين من أفران تورينو عن فتح أبوابها<sup>(80)</sup>. وحصلت عدة مظاهرات - وكان معظم المتظاهرين من النساء الأطفال - وردت السلطات باستيراد كميات كبيرة من الطحين للبيع يوم 23 من الشهر نفسه. هذه الخطوة جاءت متأخرة كثيرا على العموم وسرعان ما انتقل التحرك من قاعدته الاقتصادية إلى القاعدة السياسية<sup>(71)</sup>. ماريو مونتانيانا، الذي كان يومها عاملا في منشأة "دياتو-فريجوس"، وصف هذا التغيير بحبوية في قوله: "بدلا من الدخول إلى المصنع بدأنا التظاهر خارج البوابات صائحين: 'لم نأكل، لا نستطيع أن نعمل، نريد خبزا!'. وعندما أكد بييترو دياتو، صاحب الشركة، للعمال أن شاحنة محملة بالخبز ستصل فورا وحثهم على الدخول إلى المصنع 'هدأ العمال للحظة. ونظر البعض في وجوه البعض الآخر كما لو كانوا يتشاورون، ثم صاحوا في صوت واحد: 'ليذهب الخبز إلى الجحيم. نريد السلام.. ليسقط المستفيدون(من الحرب).. لتسقط الحرب'. ثم غادر العمال المصنع في جمهرة واحدة"<sup>(82)</sup>.

بدأت الصدامات الأولى بين رجال الشرطة والعمال بعد ظهر ذلك اليوم نفسه. وتبعت ذلك معارك التحام ضارية بين العمال والجنود جرى معظمها في أحياء الطبقة العاملة حول ضواحي المدينة، وخصوصا في "بورغو ساو باولو" و"باربيرا دي نيتزا" و"باربيرا دي ميلانو". وقام العمال بحماية أحيائهم بالطريقة الثورية التقليدية، أي بإقامة المتاريس من الأشجار وعربات القطارات وحافلات الترام<sup>(83)</sup>. وهوجمت ثكنات عسكرية عديدة للحصول على السلاح. ونهبت كنيسةستان على الأقل. ولأسباب إستراتيجية، حاول



الثوار الوصول إلى مركز المدينة، وفي 24 آب (أغسطس)، في قمة الثورة، كاد العمال أن ينجحوا، ولكنهم ردوا على أعقابهم بالبنادق الرشاشة والدبابات. وفي 26 آب (أغسطس)، وبعد خمس أيام من القتال المستميت، انتهت الثورة عمليا. وكانت إحدى أكثر الأحداث دموية في تاريخ الحركة العمالية الإيطالية.

وكان هنالك سببان رئيسيان لفشل الانتفاضة الأولى كان عجز الثوار عن الانتصار على الجنود<sup>(84)</sup>. واستنادا إلى أحد المصادر، فإن "سرية بكاملها من جنود جبال الألب تلقت أمرا بإطلاق النار على العمال ولكنها سلمت بنادقها إليهم"<sup>(85)</sup>، ولكن من الواضح أن هذه كانت حادثة معزولة. ويصف جينو كاستانيو وحدة أكثر نموذجية هي كتيبة ساساري.. "المشهورة بقسوة ضباطها وجهالة جنودها الذين كانوا من الفلاحين والرعاة الفقراء من ساردينيا". واستنادا إلى كاستانيو، فإن هؤلاء الفلاحين -الجنود حرصوا ضد العمال بأن أخبروا بأن فقر عائلاتهم كان نتيجة مباشرة لارتفاع أجور العمال<sup>(86)</sup>. وكان استخدام الفلاحين الساردينيين ضد عمال تورينو مؤلما لغرامشي بشكل خاص طبعا. أما السبب الثاني والأكثر جدية لفشل الثورة فكان الغياب شبه الكامل للقيادة، سواء المحلية أو الوطنية، بين العمال، بالرغم من الأشهر الطويلة للتخريب الثوري الناري من قبل المتصلبين. وحتى على المستوى التكتيكي يبدو أن الفوضويين هم الذين قدموا الإدارة القليلة التي وجدت<sup>(87)</sup>.

يوم 23 من الشهر نفسه اجتمع حوالي الثلاثين من القادة السياسيين وقادة النقابات (يمثلون سواء الإصلاحيين أم المتصلبين) لتقديم بعض الإدارة للحركة. واستنادا إلى مونتانيانا الذي كان حاضرا فإن "أحدا لم يكن يعرف ما يجب عمله، لا بين الإصلاحيين ولا بين "الثوريين" (بمن في ذلك أنا نفسي طبعا)"<sup>(88)</sup>. ولاحظ كاستانيو، الذي حضر الاجتماع هو أيضا، أن القادة كانوا يحاولون "تحمل مسؤولية حركة لم يخطط لها أحد وكانت تتطور بشكل عفوي"<sup>(89)</sup>. وكان من نتيجة الاجتماع صدور قرار مشترك عن فرع الحزب و"غرفة العمل" وزع في مناشير يوم 24، وقد أشاد القرار بالعمال لمقاومتهم "غباء واستفزازات السلطات"، وأكد أن الحركة كانت "في أيد أمينة"، وطلب من العمال انتظار تعليمات أخرى وتجنب "أعمال العنف التي لا فائدة منها"<sup>(90)</sup>. وفي يوم 24، طلب النواب الاشتراكيون من العمال أن يعودوا إلى أعمالهم، ويوم الثلاثاء 28 آب (أغسطس) أُعيد النظام كليا إلى المدينة<sup>(91)</sup>.

الأقدم من بين الذين كتبوا مذكراتهم، مثل مونتانيانا وجرمانيتو، قدروا عدد القتلى ب 400 وعدد الجرحى ب 2000<sup>(92)</sup>. أما مونتيكوني، الذي وضع دراسة دقيقة حول المسألة، فقد توصل إلى أنه ربما كان هنالك 50 قتيلًا و 200 جريح، ووافق سيريانو على هذه التقديرات<sup>(93)</sup>. وخلال الانتفاضة اعتقلت السلطات ما مجموعه 822 من الاشتراكيين والفوضويين، بما في ذلك تقريبا كل قيادة الفرع المحلي. وبين المعتقلين كان هناك حوالي 300 من العمال المعفيين من الخدمة العسكرية للاستمرار في عملهم داخل المصانع، وأرسل 177 منهم إلى الجبهة في الفترة بين 4 أيلول (سبتمبر) و6 تشرين الأول (أكتوبر) 1917<sup>(94)</sup>. أما المتهمون "بقيادة" الانتفاضة فقد حوكموا أمام محكمة عسكرية في تورينو 3 حزيران (يونيو) و2 آب (أغسطس) 1918<sup>(95)</sup>.

من هذه الاستعادة الموجزة للأحداث لا بد أنه يتضح أن انتفاضة آب (أغسطس) 1917. كانت عفوية وذات طابع جماهيري في آن معا. وفي تقدير سيريانو أن ألقا من العمال شاركوا فيها، وفي لحظات معينة كان هناك عشرات الآلاف من المشاركين في الانتفاضة<sup>(96)</sup>. ويؤكد مونتيكوني أن أقلية من المتصلبين قادت الجماهير الشاردة، ولكن هذا يبدو غير مرجح، خصوصا وأن ليس هنالك ما يدل على وجود انقسام بين الإصلاحيين والمتصلبين خلال الانتفاضة<sup>(97)</sup>. وينظر سيريانو إلى الانتفاضة، بغض النظر عن حجمها، على أنها مشابهة أساسا لصدامات الأعوام 1904 و1906 و1915، التي خلقت "تقليدا متجرا لمظاهرات الشوارع والإضرابات والعنف"<sup>(98)</sup>. وكان هنالك على العموم عنصران جديان في عام 1917، استنادا إلى سيريانو: التحرك الاشتراكي من أجل السلام وحافز الثورة الروسية. وخلافا للانتفاضات السابقة فإنه كان لانتفاضة آب (أغسطس) 1917 طابعا أمميا بين أعين الثوار. والواقع أن لينين نفسه نظر إلى "الانفجار الجماهيري في تورينو" كجزء من "تطور الثورة العالمية"<sup>(99)</sup>.

هذه الانتفاضة فسحت المجال أمام عدد من الخلافات في سنوات تالية. ففي عام 1927، أكدت الصحيفة الشيوعية "الوستاتو اوبيرايو" (الدولة العمالية) أن مايور روسي، وهو جوليتي حيادي، قد حث وقد عماليا على الإضراب "لمنع الحرب"<sup>(100)</sup>. بعد سنوات، التقط غرامشي هذا الاتهام وعمل في معالجته. وقال غرامشي أن الجوليتيين كانوا يخشون إجراءات حكومة بوزيلي الجديدة المضادة للحياديين فأوجدوا براءتهم نقصا في المواد الغذائية لاستثارة الشغب الذي كانوا يأملون بأن يؤدي إلى إسقاط الحكومة<sup>(101)</sup>. وعلى العموم، فإن مونتيكوني وسيريانو، بعد تدقيقهما في وثائق المحكمة ووثائق الاستقصاءات الحكومية المتعددة، يستنتجان أن ليس لهذه الاتهامات أي قاعدة من الصحة في الواقع<sup>(102)</sup>.

وهناك خلاف آخر يتعلق بأثر الانتفاضة في الهزيمة العسكرية الإيطالية في كابوريتو، وكانت المعركة الكارثية قد بدأت في 24 تشرين الأول (أكتوبر)، بعد بضعة أسابيع من إرسال العمال ال 177 "المعفيين من الخدمة العسكرية"، الذين كانوا قد شاركوا في الانتفاضة آب (أغسطس)، إلى الجبهة<sup>(103)</sup>. واستنادا إلى السفير الأمريكي في روما، توماس نيلسن بيج، فإن الكثير من العمال أرسلوا إلى كابوريتو، حيث شكلت انهزاميتهم أحد العوامل التي أدت إلى انهيار المعنويات الإيطالية<sup>(104)</sup>. أما الشيوعي روجييرو غريكو فادعى أن "أنباء أحداث تورينو وصلت إلى الجبهة ومهدت الطريق إلى كابوريتو"، التي يرى فيها غريكو "حدثا من أحداث الثورة الإيطالية"<sup>(105)</sup>. على النقيض من ذلك فإن بييرو بييري، عميد المؤرخين العسكريين الإيطاليين، يصر على الطابع العسكري البحت لهزيمة كابوريتو. وهو يؤكد، بين أمور أخرى، أن العدد المزعوم للهاربين من المعركة والمقدر ب 40 ألفا لم يكن يتجاوز 4 آلاف، معظمهم تجاوز إجازة مقرر له ببضعة أيام<sup>(106)</sup>.

### غرامشي و"الثوريون المتصلبون"

كان لأحداث آب (أغسطس) 1917 في تورينو تأثير آخر هام: كان انطونيو غرامشي قد وضع في واجهة الفرع الاشتراكي، الذي كان كل قاداته، إصلاحيين ومتصلبين، قد فقدوا مصداقيتهم بعد فشل الانتفاضة. ولم يكن غرامشي، على العموم، في موقع قيادي في الفرع ولم يكن على ارتباط وثيق بأي من الجناحين بحيث يعرف به. وكان قد انتقد في "المدينة المستقبلية" سلبية الإصلاحيين وغوغائية المتصلبين. وأكثر من ذلك، وخلافا للمتصلبين، كان غرامشي مقتنعا بأن الطبقة العاملة يجب أن تحصل على تعليم ثوري مكثف. في أيلول (سبتمبر) 1917 جعل غرامشي مسؤولا وحيدا عن نشر "غل غريديو ديل بوبولو" لا كرئيس تحرير فحسب بل باعتبارها "محررها الوحيد" أيضا<sup>(107)</sup>. وورث غرامشي صحيفة مكرسة "للأخبار المحلية والدعاية الانجيلية"، فقام بتحويلها إلى ناطقة

بلسان "الثقافة الاشتراكية المطورة بموجب المبادئ والتكتيكات الاشتراكية الثورية"<sup>(108)</sup>. وللمرة الأولى أسند إلى غرامشي أيضا دور قيادي في النشاطات السياسية للفرع الاشتراكي. وفي 30 أيلول (سبتمبر) أصبح عضوا في اللجنة التنفيذية للمحافظة، التي تولت إدارة الفرع حتى أوائل عام 1918<sup>(109)</sup>. وللأسف، فإنه لا يعرف إلا القليل عن عمل فرع تورينو حتى نهاية الحرب بسبب الرقابة الفائقة التشدد التي فرضت بعد آب (أغسطس) 1917.

بعد أن أصبح غرامشي عضوا في إدارة فرع تورينو بوقت قصير قام بتثبيت موقعه -وأمن السبيل المالية للفرع- بكسب معركة سياسية للسيطرة على رأس المال "التحالف التعاوني التوريني". وكانت التعاونية تدار لسنوات عديدة من قبل الفرع الاشتراكي، ولكن عمال سكك حديد تورينو وعائلاتهم كانوا يسيطرون بشكل رئيسي على رأس مالها. وعندما أدى تضخم أيام الحرب وازدياد الثقة بالتحالف التعاوني إلى زيادة قيمة كل سهم من 50 إلى 700 ليرة، اقترحت بعض الأوساط توزيع فارق قيمة السهم، أي 650 ليرة، على حملة الأسهم، ولكن الحزب أفتع حملة الأسهم بالقبول بأرباح محسوبة على أساس التقييم الأصلي نظرا لأن هدفه مؤسسة الطبقة العاملة هذه لم يكن تحقيق الربح بل دعم النضال الثوري. ولم يكن كل حملة الأسهم سعيدين بهذا القرار على العموم. وكان رد الفعل السياسي الذي تلى انتفاضة آب (أغسطس) والإحباط المرافق بين العمال قد أبرز مطالب جديدة بتوزيع رأس المال. وهذه المرة تلقى الاقتراح دعم صحف تورينو وكذلك، واستنادا إلى غرامشي، دعم بعض الاشتراكيين الإصلاحيين بقيادة كويرينو نوفري. ونظرا لأن رقابة أيام الحرب منعت مديري الفرع الاشتراكي من المعارضة العلنية لهذا التوزيع، فقد نظم غرامشي حملة تعليمية غير رسمية ولكن دقيقة الضبط بين حملة الأسهم والعمال الآخرين. وعندما طرح الأمر على التصويت حصل الحزب الاشتراكي على دعم 700 من أصل 800 من حملة الأسهم. وكان هذا هو أول انتصار سياسي له مغزى يسجله غرامشي<sup>(110)</sup>.

في هذه الأثناء، كانت العناصر الثورية داخل الحزب الاشتراكي الإيطالي -الذين كان غرامشي يعرف بهم عن بعد- تزيد من قوتها في كل أنحاء إيطاليا وذلك بنسبة مماثلة لازدياد الانهزامية في البلاد. وفي 23 آب (أغسطس) 1917، شكلت رسميا "الجنة الجناح الثوري المتصلب" في فلورنس. ودعا بيان اللجنة إلى وضع حد للانتهازية وللتعاون مع البورجوازية، وأعلن أن ساعة الثورة بدأت تقترب<sup>(111)</sup>. ولم تود الهزيمة العسكرية الساحقة في كابوريتو، في تشرين الأول (أكتوبر)، إلا إلى تكثيف هذه الروح التي زادت من حدتها ردة الإصلاحيين وتوجههم إلى قضية الوحدة الوطنية. بعد كابوريتو مباشرة ألقى فيليبو توراتي، زعيم الجناح اليميني في الحزب، خطابا حث فيه على دعم المجهود الحربي. ورد المتصلبون بالدعوة إلى مؤتمر استثنائي لمناقشة الإستراتيجية الثورية. وعقد المؤتمر في فلورنس، يوم 18 تشرين الثاني (نوفمبر) 1917 وحضره ممثلون عن الكثير من اتحادات المحافظات في الحزب، وحضره غرامشي وأرتورو تيريني كمثلين عن توريينو<sup>(112)</sup>. وحضر المؤتمر كذلك بورديغا وبرونو فورتيكاري وجوفاني جيرمانيتو، وكلهم من القادة المهمين للجناح المتصلب. وجاء كوستانتينو لاتزاري، أمين عام الحزب، وسيراتي، رئيس تحرير "أفانتي" إلى المؤتمر كمثلين للأكثرية أو ما يسمى بجماعة "القصويين" في الحزب الاشتراكي الإيطالي. ولم يكن لهؤلاء ثقة باليساريين الأكثر شبابا والأكثر عنفا، الذين كانوا يعتبرونهم غير مسؤولين ومتطرفين، ولكنهم كانوا راغبين في التعاون معهم لضمان هزيمة الجناح اليميني.

بالرغم من أن الحكومة منعت عقد المؤتمر رسميا، فإن الشرطة سمحت للمندوبين، وبشكل غير متوقع، بالاجتماع حتى منتصف الليل، على أن يتفرقوا بعد ذلك. وافتتح بورديغا، الذي كان من القادة الوطنيين للييسار، الاجتماع بالدعوة إلى ثورة اشتراكية فوروية: "لقد وقعت كارثة الهزيمة. والدولة الإيطالية غير منظمة. لقد أزفت ساعة العمل. العمال في الحقول والمصانع مسلحون، وهم تعبون من كل شيء، وعلينا أن نعمل"<sup>(113)</sup>. وكان للتقييم الواقعي للأوضاع في الحزب الاشتراكي الإيطالي وفي النقابات العمالية أن يدل على عبثية مثل هذه النصيحة، ولكن كلمات بورديغا بدت مقبولة في تلك الأيام الحرجة المشحونة التي كان لم يمض فيها أكثر من أسبوعين على ورود الأنباء المثيرة عن البلشفية. وصوت غرامشي وجناحه كله إلى جانب بورديغا. ولكن لاتزاري وسيراتي ومعظم ممثلي المحافظات عارضوه وفضلوا الصيغة الرسمية للحزب "لا الدعم ولا التخريب".

عند هذه النقطة فض رجال الشرطة الاجتماع، ولكن معظم المندوبين، بمن فيهم غرامشي، عادوا فاجتمعوا في بيت خاص في فلورنس، حيث تم وضع بيان المؤتمر. ولم تكن هذه الوثيقة في صيغتها النهائية أكثر من تصريح قوي يحمل الصيغة الرسمية للحزب. ودعا البيان إلى الاستمرار في "المعاداة المتصلبة للحرب" وأكد أن "الموقف السياسي للحزب الاشتراكي لا يمكنه أن يعتمد على تقلبات العمليات العسكرية". واستنكر البيان وأدان أعمال "هؤلاء الرفاق وممثلي الحزب الذين قادتهم الأحداث الأخيرة إلى دعم الحرب"<sup>(114)</sup>. وأعطى كل مندوب نسخة من البيان لطباعته وتوزيعه في منطقته. وعاد غرامشي إلى تورينو حاملا نسخته وسرعان ما عرفت محتوياتها في المدينة.

بالنسبة لغرامشي، كان المظهر الأهم للمؤتمر، الذي لم يلعب فيه دور صغير جدا، اجتماعه ببورديغا. وكان لهذين الرجلين أن يتعاونوا فيما بعد في تأسيس الحزب الشيوعي الإيطالي، وأن ينشق أحدهما عن الآخر كليا فيما بعد حول مسألة تطرف بورديغا. وكان غرامشي بطبيعته حذرا ودقيقا، وهما فضيلتان لم يكن بورديغا يتمتع بهما. ولكن غرامشي (كان عمره 26 سنة عام 1917) والجو المثير لتلك الأيام جعله يتقبل مؤقتا شخصية بورديغا المليئة بالحيوية وبريقها السطحي. وأكثر من ذلك، فقد اعتقد غرامشي بأن بورديغا كان على حق في إصراره على أن تبدأ البروليتاريا الإيطالية بالتفكير في الاستيلاء على السلطة<sup>(115)</sup>. وكان لبورديغا تأثير قوي على معظم الاشتراكيين الشباب في تلك السنوات. وكان جوفاني جرمانيتو، وهو أحد العاملين مع غرامشي، قد قابل بورديغا أثناء مؤتمر فلورنس وسجل لنا انطباعاته الأولية عن ابن نابولي الحيوي هذا:

"في مساء ذلك اليوم [18 تشرين الثاني (نوفمبر) 1917] سمعت للمرة الأولى بورديغا يتكلم. وكان له تأثير عميق في. بعد خطابه بدت لي الاشتراكية أكثر واقعية بكثير أكثر مما كانت قبلا... وفتح خطاب بورديغا أفقا جديدة أمامي وساعدني على فهم ما كان يحصل في روسيا. لقد فهمت غرامشي بشكل أفضل، ولكن بورديغا كان ملائما تماما لطباعي. وبدا أن هذين الرفيقتين يكمل أحدهما الآخر. وشعرت بشكل ما بالتوافق بين هذين الرجلين المختلف أحدهما عن الآخر كلبه من الناحية الجسدية. فيبورديغا طويل ويفرض نفسه، وغرامشي نحيف وقصير وعليل، الأول متكلم قوي ومدفع، والثاني مفكر"<sup>(116)</sup>.

حتى في ذلك الوقت، لم يكن غرامشي يشارك الجناح المتصلب كل آراءه. وحتى إن لم يكن مذنبا -بأي شكل جدي- ب"البرغسونية" والإرادية كما اتهمه مندوب زميل في فلورنس<sup>(117)</sup>، فإنه استنكر "المفهوم القدري والآلي للتاريخ" الذي سيطر على

المؤتمر<sup>(118)</sup>. وفي فلورنس كما في ما بعد، كانت مواقف غرامشي الايجابية والإبداعية تجاه مشاكل الاشتراكية الثورية هي التي ميزته عن معظم رفاقه.

### غرامشي والثورة الروسية 1917-1918

إذا كان موقف غرامشي السياسي داخل الحزب الاشتراكي الإيطالي تلك الأيام تابعا لبورديجا، فإن مقالاته التي كتبها خلال الثورة الروسية وبعدها مباشرة دلت على تفوقه الواسع في عالم النظرية. ومقالات غرامشي التي تعود إلى عامي 1917 و1918 في "إل غريجو ديل بوبولو" وفي طبعة تورينو من "أفانتي" كانت التعليقات الإيطالية المتبصرة الوحيدة على أحداث روسيا<sup>(119)</sup>. وفي حين أن كتابا مثل بورديجا وسيراتي وبانفيلو جنتيلي مالوا إلى النقاش حول الثورة إلى مستوى "البحث المدرسي.. حول صيغ مجردة"، فإن غرامشي قام بسلسلة من المحاولات لتثريب روح اللينينية وتطبيقها في دراسة الأوضاع في إيطاليا<sup>(120)</sup>. وقد وصف بييرو غوبيتي، صديق غرامشي الليبرالي المبكر النضوج، النتيجة كما يلي:

"في عام 1918، أصبحت أسبوعية الدعاية الحزبية الصغيرة صحيفة للثقافة والفكر، ونشرت الترجمات الأولى لكتابات الثورة الروسية وقدمت تفسيراً سياسياً لنشاطات البلاشفة. وكان غرامشي هو المحرك الأساسي لهذا العمل. بالنسبة إليه، كان لينين يرمز إلى إرادة التحرير البطولية. وما كان للأفكار الأساسية للأسطورة البلشفية أن تخدم كنموذج مفروض على الثورة الإيطالية بل كحافز لمبادرة إيطالية حرة تأتي من تحت"<sup>(121)</sup>.

لم تكن معرفة لينين والثورة الروسية سهلة الوصول في عام 1917-1918 نظراً لأن رقابة أيام الحرب في إيطاليا كانت غاية في التشدد إلى درجة لم تصل إلى إيطاليا إلا أبناء قليلة من روسيا، وخصوصاً بعد ثورة تشرين الأول (أكتوبر). وكانت بعض مقالات لينين وتروتسكي الأخيرة قد نشرت في "أفانتي" مع تقارير كتبها هنري باربوس ورومين رولاند وجون ريد. بعد الحرب مباشرة بدأ غرامشي يتلقى نسخاً من "ذي ليبيريتون" وهي مطبوعة أمريكية موالية للسوفييت يحررها ماكس إيستمان. وحتى تأسيس "الأممية الثالثة" كانت هذه المطبوعة تشكل بالنسبة لغرامشي مصدراً هاماً للأبناء عن روسيا والمجر وألمانيا<sup>(122)</sup>. وقد ذكر تولياتي أن "لينين لم يعرف ويترجم وينشر ويقرأ بشكل واسع في إيطاليا بدءاً من سنة 1918. (والذي عرف) بشكل رئيسي من كتاباته، على العموم، هي الكتابات المكرسة للنضالات الخاصة بتلك السنوات تحديداً. ولم يكن إلا القليل من أعماله النظرية الهامة معروفاً في عام 1918"<sup>(123)</sup>.

بالنسبة لغرامشي، لم يكن لينين محرفاً لماركس كما ظنه الكثير من الاشتراكيين الأوروبيين الغربيين. وعلى العموم، فإن فهم غرامشي لماركس نفسه كان في عام 1918 يختلف كثيراً عن معظم رفاقه في الحزب الاشتراكي الإيطالي: فماركس "ليس مسيحا خلف وراءه سلسلة من الحكايات ذات المغزى الأخلاقي التي تحمل ملزمات صريحة وقواعد غير قابلة للتغيير على الإطلاق، خارجة عن مقولات الزمن والفضاء. إن الملزم الصريح الوحيد، والقاعدة الفريدة هي: يا عمال العالم، اتحدوا". غرامشي كان رجل تاريخ وجد التاريخ في "عالم الأفكار"، ولكن ليس الأفكار التي هي مجرد تجريدات خيالية. "كان جوهر هذه الأفكار يكمن في الاقتصاد، وفي النشاط العملي، وفي أنظمة وعلاقات الإنتاج والتبادل". ولكن حكم غرامشي لا يتضمن بشكل من الأشكال الحتمية الاقتصادية. فمن خلال معرفة الحقيقة الموضوعية "يعرف الإنسان نفسه، وقيمة إرادته الفردية، وكيف يمكن جعلها قادرة. وبالانصياع إلى الضرورة، وتنظيم النفس بما يتلاءم معها، يستطيع الإنسان أن يسيطر على الضرورة نفسها بأن يطابقها مع أهدافه. من يعرف نفسه؟ ليس الإنسان عموماً، بل ذلك الإنسان الذي يشعر برباط الضرورة"<sup>(124)</sup>.

وكان تجدد جدل غرامشي مع الإصلاحيين (كانت صحيفتهم النظرية هي "لا كرتيكا سوشالي"، أي "النقد الاجتماعي") قد منحه فرصة مناقشة الإرادية التي كان متهماً بها دوماً:

"يبدو أن الجيل الجديد يرغب في العودة إلى مذهب ماركس الأصل الذي لا ينفصل فيه الإنسان عن الحقيقة، ولا أداة العمل عن الإرادة، بل يتأنيان معا في "الفعل التاريخي". وبالتالي، فإنهم يعتقدون أن مدافع المادية التاريخية لا تصلح للاستخدام إلا بعد وقوع الحدث، لدراسة وفهم أحداث الماضي، ويجب ألا تصبح رهينة للحاضر والمستقبل".

وشدد غرامشي بشكل خاص على أهمية الحرب "في تغيير المحيط التاريخي العادي". فالحرب "لم تدمر المادية التاريخية"، بل هي أعطت أهمية مؤقتة غير اعتيادية "للإرادة الاجتماعية الجماعية للناس". وبالنسبة لغرامشي، فإن الإرادة الإبداعية في التاريخ أهمية أساسية، ضمن حدود معينة طبعاً. وحتى الحتمية يمكنها أن تكون إبداعية: "قال فيكو، قبل ماركس، أنه حتى الاعتقاد بالعناية الإلهية قد عمل بشكل مفيد في التاريخ بأن أصبح حافظاً للعمل الواعي. وبالتالي، وحتى الاعتقاد "بالحتمية" يمكن أن تكون له الفاعلية نفسها، في روسيا بالنسبة للينين وفي غيرها بالنسبة لآخرين"<sup>(125)</sup>.

وفي مقالات أخرى تعود إلى عامي 1917 و1918 مجد غرامشي الطابع الإبداعي للثورة الروسية، الذي رأى أنه يقود - وبكلمات ماركس- من "عالم الضرورة إلى عالم الحرية". ورأى غرامشي كل التاريخ الروسي الماضي على أنه تاريخ إكراه، ضرورة بالتاكيد، ولكنه مستنكر في نتائجه:

"كانت الإمبراطورية الروسية ضرورة مرعبة من ضرورات العالم الحديث.. فلكي يعيشون ويتطورون ويؤمنوا لأنفسهم طرقاتاً للنشاط، اضطر 170 مليون إنسان، من عشرة أصول عرقية، أن يصيروا على نظام سياسي وحشي، وأن يتخلوا عن إنسانيتهم، وأن يصبحوا مجرد أدوات لأولئك الذين هم في السلطة.. وفقد الأفراد كل استقلالية وحرية لكي تصبح الدولة مستقلة وحررة بين الدول الأخرى"<sup>(126)</sup>.

وبالطبع، لم يكن بإمكان غرامشي ولا أي إنسان آخر أن يتنبأ بكم من ذلك العبء سيكون على شعب روسيا السوفيتية أن يستمر في تحمله.

وقد سبق غرامشي معظم المراقبين بكثير في تعريفه للينين والبلاشفة وبالثورة الروسية. وحتى في تموز (يوليو) 1917، عندما حرم لينين وعزل كرينسكي البلاشفة ظاهرياً عن التيار الرئيسي للثورة، كان غرامشي يتنبأ بانتصار محتمل للبلاشفة على أساس أنهم لن يقبلوا بتسوية الإجراءات الوسط، أو بتمرير الوقت خلافاً لنظريات الحتمية. وفهم اللينينيون أن ليس للاشتراكية جدول زمني حتمي. وبدلاً من ذلك كانوا مقتنعين:

"أنه يمكن تحقيق الاشتراكية في أية لحظة... إنهم ثوريون، لا تطوريون. والفكر الثوري لا يرى في التطور عاملاً للتقدم، وهو ينكر وجوب أن تمر كل المراحل الوسيطة بين مفهوم الاشتراكية وتحقيق هذا المفهوم باختبار مطلق وكامل في الزمان والمكان. فلعبور مرحلة والتقدم إلى أخرى يكفي أن تكون المرحلة الأولى قد تحققت بالفكر"<sup>(127)</sup>.

والمقالة الأكثر إثارة للاهتمام والجدل التي كتبها غرامشي في هذه الفترة، كانت بعنوان "الثورة ضد الرأسمال". وقال غرامشي في مقالته أن "الرأسمال"، سواء في روسيا أم في إيطاليا، كان "كتاب البورجوازية وليس كتاب البروليتاريا". فقد استعمل هذا الكتاب لتصعيد الفكرة الحتمية القائلة بأن النموذج الغربي من الحضارة لا بد أن يوجد في روسيا قبل أن يمكن بناء الاشتراكية. وعندما قال البلاشفة الروس أنهم ليسوا ماركسيين، عنوا بذلك أن العناصر الحيوية من الماركسية هي التي تهمهم فقط، هذه العناصر التي تضع الإنسان، وليس الحقائق الاقتصادية الخام، في مركز التاريخ.

وفي المقالة نفسها يطرح غرامشي الفكرة التي أصبحت مؤخرًا هامة في دراسة التطور الاقتصادي، ألا وهي قصاص من يكون الأول. ويقول غرامشي أن الولايات المتحدة أكثر تقدمًا من انكلترا لأنها انطلقت مباشرة من النقطة التي كانت انكلترا قد وصلت إليها عبر تطور طويل. وبالطريقة نفسها، فإن:

"البروليتاريا الروسية، المتعلمة اشتراكيًا، سوف تبدأ تاريخها من المرحلة القصوى للإنتاج التي وصلتها انكلترا اليوم. ولأن عليها أن تبدأ، فإنها ستبدأ انطلاقًا مما تحقق فعلاً حتى الآن في الأمكنة الأخرى. ومن هذا المستوى سوف تصل إلى النضج الاقتصادي الذي يعتبره ماركس شرطاً للجماعية (collectivism). إن الثوريين سيخلقون بأنفسهم الشروط الضرورية للتحقيق الكامل والشامل لفكرتهم. وسيخلقون هذه الشروط بأسرع مما تفعل الرأسمالية"<sup>(128)</sup>.

هذه الفقرات لم تشر أبداً إلى دعم الحاجة إلى دعم الثورات الغربية من أجل نجاح الاشتراكية في "روسيا المتخلفة". ويتركز تشديد غرامشي دوماً على الدور الإبداعي للبروليتاريا الروسية وقادتها الثوريين. وهكذا يكون غرامشي قد استبق بسنوات البلاشفة أنفسهم في مبدأ "الاشتراكية في بلد واحد".

ورأى غرامشي في لينين صفات القيادة والتفهم التي اعتبرها غرامشي أساسية وضرورية لنجاح الثورة الإيطالية. وبالنسبة لغرامشي، كان لينين قیل كل شيء "تلميذاً بارداً للواقع التاريخي" و"ثورياً يبنی بدون تخيلات مهتاجة، وبانصياع للعقل والحكمة"<sup>(129)</sup>. وعندما اختلف لينين وتروتسكي حول توقيع معاهدة برست-ليتوفسك، وقف غرامشي إلى جانب لينين. وأعاد غرامشي نشر مقالة لكارل راديك تدعم رفض تروتسكي للقبول بشروط ألمانيا القاسية، ولكنه نشر المقالة بهدف إدانة أطروحات راديك باعتبارها تركيبياً للجمل فحسب. وكان راديك يتحدث عن "الامبريالية الألمانية" و"النضال الثوري"، أما لينين فرأى الأمور كما هي عليه. كانت ألمانيا قوية وكانت روسيا ضعيفة. "ومن الناحية العملية فإن "النضال الثوري" كان يعني الحرب، ولكي تقوم بأعباء الحرب كانت الثورة الروسية بحاجة إلى جيش. ولكن الجيش الروسي كان مشتتاً"<sup>(130)</sup>.

هذه المقالات المبكرة تعكس الاستجابة الحماسية الأولية عند غرامشي للثورة الروسية واللينينية. وفي دراسته الأعمق للثورة والتأمل في دروسها التي يمكن الاستفادة منها بالنسبة لإيطاليا، سرعان ما توصل غرامشي إلى التركيز على دور السوفييتات الروسية، أو المجالس الثورية للعمال والفلاحين والجنود. وكانت حياة غرامشي في عامي 1919 و1920 مكرسة للتبرير النظري والإقامة الفعلية لمجالس العمال الثورية في إيطاليا. وفي هاتين السنتين اكتسب غرامشي سمعته على المستوى الوطني وقدم مساهمته الأولى الأصيلة للحركة العمالية الإيطالية.

## القسم الثاني "النظام الجديد"

### 4- "النظام الجديد" و"السوفييتات الإيطالية"

"بدأ الوجود الأول للمجلس في تورينو، في صناعة المعادن، وهي خصوصية سوف يذكرها العارفون في المستقبل".  
غرامشي -8 تشرين الثاني(نوفمبر) 1919

#### إيطاليا والحزب الاشتراكي الإيطالي عام 1919

هزت الحرب بقوة البنية السياسية والاقتصادية غير المستقرة في إيطاليا. وعملت السنة التي قضتها إيطاليا في الحياد، ثم الظروف الانتهازية لدخولها في النزاع، إلى تكثيف العداء بين الفئات المؤيدة للتدخل وتلك المؤيدة للحياد، وبقيت هذه الفئات على عداء إحداهما للأخرى في فترة ما بعد الحرب. لقد كلفت الحرب إيطاليا نصف مليون إنسان. وشوه نصف مليون إنسان آخر، وجرح أكثر من مليون<sup>(1)</sup>. وكان على إيطاليا أن تستورد معظم المواد الخام اللازمة للجهد الحربي، وارتفع عجز الميزانية الإيطالية من 214 مليون ليرة في عام 1913 إلى 23 مليارا في 1918-1919، بينما قفزت تكاليف المعيشة بين عامي 1913 و1920 من 100 إلى 624<sup>(2)</sup>. وكان الأسوأ أن تلك النفقات الهائلة لم تكسب لإيطاليا إلا القليل جدا، بالرغم من أن الحكومة توقعت أن تضم إلى البلاد أرض شاسعة. وكان المسؤولون الحكوميون والجنرالات في الجبهة قد وعدوا القوات، وبترداد منتظم، بمكافآت ثمينة مقابل معاناتها. ووعد الفلاحون بالأراضي والعمال بعائدات أكبر لعملهم<sup>(3)</sup>. وفي النهاية، لم تفعل الحكومة شيئا لتحقيق هذه الوعود.

وكان مما زاد في حدة التوترات السياسية والاقتصادية الأساسية المزاج النفسي الذي كان سائدا في تلك الأيام. وفي 20 تشرين الثاني(نوفمبر)، أعلن رئيس الوزراء ف.إ. أورلاندو أن الحرب كانت أعظم ثورة سياسية -اجتماعية في التاريخ. وفي اليوم نفسه، كان انطونيو سالانديرا، وهو زعيم نافذ للمحافظين الإيطاليين، يحث الشباب على تأكيد وجودهم: "لا أحد يعتقد بأن نهاية العاصفة تعني العودة بسلام إلى الماضي"<sup>(4)</sup>. في الواقع، كانت أوروبا كلها مشحونة بالثورة: كان قد أطيح بعائلي هوهنزولرن وهابسبورغ من على عرشيهما، وكانت هناك الثورة البلشفية في روسيا والمجر وبافاريا، وانفجرت انتفاضة الإسبارطيين في برلين. وكتب بييترو نيني يقول: "كل الأحداث الاستثنائية والصاخبة التي وقعت في نهاية عام 1918 وبداية عام 1919 ألهمت الخيال وأوحت بالأمل بأن العالم القديم كان على وشك الانهيار وأن الإنسانية أصبحت على عتبة عصر جديد ونظام اجتماعي جديد"<sup>(5)</sup>.

وبالنظر للأوضاع الإيطالية في عام 1919 يبقى من المدهش عدم اندلاع الثورة. فأكثر المحاربين السابقين، سواء من الفلاحين أم من العمال، عادوا من الحرب بأفكار ديمقراطية متقدمة إن لم تكن اشتراكية. وفي حزيران(يونيو) 1919، عقدت "الجمعية الوطنية للمحاربين القدماء" أمل مؤتمر لها في روما وتبنت برنامجا يدعو إلى إقامة جمعية تأسيسية، وإلغاء مجلس الشيوخ، وإلى مفهوم ماتريزي للقومية المرتبطة بالإنسانية عموما و"المتميزة عن الأناثية القومية"<sup>(6)</sup>. في الوقت ذاته، كان الفلاحون قد بدؤوا يطالبون بإعادة توزيع للأراضي كانت قد استحقت منذ زمن طويل، في حين أن عدد العمال المنتسبين إلى "الاتحاد العام للعمال" ازداد من 25 ألفا في عام 1918 إلى 100 ألف في عام 1919<sup>(7)</sup>. وبحلول عام 1919، كان الحزب الاشتراكي الإيطالي، أو أكثرية قادته على الأقل، قد ارتد عن تسويات منتصف الطريق، مثل مطالبات المحاربين القدماء والعمال والفلاحين. وفي اجتماع لإدارة الحزب عقد في كانون الأول(ديسمبر) 1918، انقلب سيراتي، مدير صحيفة "افانتي"، على موقفه السابق، وأعلن وقوفه ضد إقامة جمعية تأسيسية ومع إقامة دكتاتورية البروليتاريا. وتم تبني هذا الموقف كخط رسمي للحزب.

على العموم، في اجتماع كانون الأول(ديسمبر) قدمت بعض الطلبات الفورية إلى الحكومة، مثل العودة إلى الحريات الديمقراطية والإنهاء السريع لحالة التعبئة. هذه المطالب التي أوحى بها إصلاحيو توراني كانت بعيدة عن الثورية<sup>(8)</sup>. وأبرز الاجتماع أحد مواطن الضعف الأساسية في الحزب الاشتراكي الإيطالي في فترة ما بعد الحرب، ألا وهو تعايش العناصر الثورية والتدرجيون في جسم واحد. ومنذ أيلول(سبتمبر) 1918 وحتى الانتصار النهائي للفاشية كان الثوريون، أو "القصويون" يسيطرون على آلة الحزب. ولكن النواب الاشتراكيين في البرلمان كانوا تدرجيون باستمرار في هذه الفترة، بالرغم من أن رأي قاعدة الحزب كثيرا ما أجبرهم على أن يظهروا أكثر يسارية مما في الواقع. وكان قادة "الاتحاد العام للعمال". وهو المنظمة النقابية، إصلاحيين تقليديا في نظرهم، ولكنهم كثيرا ما حاولوا إتباع خط وسط بين إدارة الحزب والمجموعة البرلمانية نتيجة لضغط القاعدة<sup>(9)</sup>.

وكما أشار بييرو نيني (في كتابه Storia di quattro anni)، فإن كل حزب اشتراكي في دولة رأسمالية هو -في الوقت نفسه- حزب المستقبل الذي يحمل أهدافا تتجاوز بكثير الوقائع الاقتصادية والسياسية الراهنة، وحزب الحاضر الذي يجب عليه أن يتوصل إلى توافق مع هذه الوقائع. وقليلة هي الأحزاب الاشتراكية التي نجحت في حل هذه المعضلة، ولكن أحزابا قليلة أخرى رفضت -على العكس من ذلك- مواجهة المعضلة، كما فعل الحزب الاشتراكي الإيطالي في تلك الأيام. لقد تحققت حاجة الحزب إلى الوحدة، ولكن الأجنحة المختلفة للحزب تابعت التباعد فيما بينها أكثر فأكثر.

وكان الخلل الرئيسي الآخر داخل الحزب الاشتراكي الإيطالي مرتبطا بذلك الأول، إذ لم تكن لدى الحزب خطة لمواجهة الأزمة الثورية في عام 1919. وكانت المواقف النظرية المتباينة داخل الحزب أحد الأسباب في هذا الفشل، وعلى العموم، فإن عمى الحزب عن الوضع الإيطالي الفعلي كان الأكثر أهمية. وكان الإصلاحيون يقولون بأن الرأسمالية الإيطالية ستنتهار بحكم ترهلها عندما تنتزع الظروف. أما القصويون فاعتمدوا على الثورة الروسية لحل مشاكل الثورة الإيطالية من خلال هزيمة ساحقة للأعداء داخل وخارج روسيا. وبالتالي فإن العمود الرئيسي في "افانتي" كان مكرسا بالدرجة الأولى لتسجيل انتصارات البروليتاريا الأممية<sup>(10)</sup>. ولاحظ غرامشي أن الجماهير في إيطاليا كانت تقود و"تعلم" الحزب بدلا من العكس<sup>(11)</sup>.

وفي المناطق التي كان الحزب أكثر فاعلية لم يفعل إلا أن يبرز ضعفه كجهاز للبروليتاريا الإيطالية. أما في معظم أمور تضامن البروليتاريا الأممية، مثلا، فكان الحزب الاشتراكي الإيطالي ناشطا. وكانت قيادة الحزب قد قررت في 18 آذار(مارس)، وبعشرة أصوات ضد ثلاثة، الخروج من الأممية الثانية والانضمام إلى "الكومنترن" الذي كان قد أسس في موسكو قبل أقل من أسبوعين فقط<sup>(12)</sup>. وأدت عمليات الحلفاء العسكرية في روسيا في عامي 1918-1919 إلى موجة احتجاجات قوية شاركت فيها كل الجماعات الاشتراكية الإيطالية<sup>(13)</sup>. وكان الإضراب الدولي العام يومي 20 و21 تموز(يوليو) 1919 قد شكل ذروة هذه الاحتجاجات.

وكان الهدف من الإضراب هو التعبير عن التضامن مع السوفييتات الروسية والمجرية، وكان يفترض به أن يجري في آن واحد في كل من انكلترا وفرنسا وإيطاليا. وفي النهاية لم يشترك غير الإيطاليين في الإضراب، ولكن مشاركتهم كانت شبه شاملة<sup>(14)</sup>.

ولم يكن الحزب واضحا دوما حول أغراض ونتائج الإضرابات التي كانت تشكل التكتيك الوحيد الذي كان الحزب يستخدمه لقيادة الجماهير. وكان يبدو وكأن الكثير من الاشتراكيين ينظرون إلى الإضرابات باعتبارها العمل الوحيد اللازم لتوليد الثورة<sup>(15)</sup>. وقال آخرون من النتائج النفسية الخطرة، في الفترة ثورية، حتى لأكثر الإضرابات نجاحا. وكان الإضراب العام في تموز (يوليو) 1919 أفضل مثال على ذلك. بالرغم من أن العديد من القادة الاشتراكيين اهتم بأن يصف الإضراب بأنه "تعبيري وليس ثوريا"، فإن التحرك كان هائل الحجم إلى درجة أن شنت طاقة العمال كلها من دون أن يحسن موقعهم السياسي. وبطريقة ما، كان العمال يتوقعون الثورة، وكما أفاد "الاتحاد العام للعمل" فيما بعد، فإن عدم اندلاع الثورة "لم يؤد إلى الإحباط بل إلى خيبة أمل عنيفة لدى العمال، وحرص الصناعيين الذين كانوا ضعيفي الإرادة في السابق على بدء نضال الهدف منه تحطيم قوة النقابات"<sup>(16)</sup>.

وحصل الحزب الاشتراكي الإيطالي على 32 بالمائة من الأصوات في انتخابات تشرين الثاني (نوفمبر) 1919، وعلى 156 مقعدا في البرلمان<sup>(17)</sup>. ولكن هذا كان يعني أن على الاشتراكيين أن يتوصلوا إلى اتفاق سريع حول السياسات الجوهرية، وأن على الحزب أن يحدد برنامجه له. وخلال الأيام 5-8 تشرين الأول (أكتوبر)، أي قبل الانتخابات بشهر واحد، كان الحزب الاشتراكي الإيطالي قد عقد مؤتمره الوطني السادس عشر في المدينة بولونيا<sup>(18)</sup>. واتضح خلال المؤتمر القوى والمواقف الخاصة بالعديد من أجنحة الحزب، وبرزت هناك معظم الشخصيات المسؤولة عن إدارة تحركات الجناح اليساري خلال فترة ما بعد الحرب.

ولا شك في أن الإصلاحيين، بقيادة فيليبو توراتي ولودوفيكو داراغونا (السكرتير العام للاتحاد العام للعمل) كانوا يشكلون الجماعة الأكثر تجانسا. وكان هؤلاء يسيطرون على الكتلة البرلمانية الاشتراكية وعلى المكاتب المركزية لـ "الاتحاد العام للعمل" ومعظم نقابات العمال والإدارات البلدية الاشتراكية. وأدت الخبرات البرلمانية والإدارية الطويلة للإصلاحيين إلى أن يميل هؤلاء باتجاه الالتزام القوي بطرق ووسائل الديمقراطية البورجوازية. وكان فشلهم في فهم الطابع الثوري لتلك الأيام قد حد من جاذبيتهم السياسية بين الجماهير.

أما قصويو ج.م. سيراتي (أو "الانتخابيون القصويون" كما كانوا يسمون أنفسهم يومها) فقد شكلوا الأكثرية الساحقة للمندوبين في بولونيا، ولكنهم لم يكونوا جماعة موحدة بشكل من الأشكال. وكانت قوتهم تكمن في السيطرة على إدارة الحزب وعلى عدد من مكاتبه وفي امتلاكهم لصحيفة الحزب اليومية "أفانتي". ومع نمو الأزمة السياسية والاقتصادية في البلاد تحول موقف سيراتي بسرعة نحو اليسار في الأشهر التي سبقت مؤتمر بولونيا. وبحلول موعد المؤتمر كان سيراتي يريد الثورة، ومن خلال العنف إذا دعت الضرورة، ولكنه لم يرغب في المغامرة بوحدة الحزب بفرض موقفه على الجميع. وكان كوستانتينو لاتزاري (سكرتير الحزب 1912-1919) يحمل أهدافا مماثلة، ولكنه كان يأمل بتجنب العنف.

الجناح الثالث كان حاضرا في بولونيا هو جماعة الامتناعيين التي كان أماندو بورديغا قد جمع أفرادها من بين صفوف "المتصلبين الثوريين" خلال عامي 1917-1918. وأخذت هذه الجماعة اسمها من مبادئها القائلة بأن على الحزب أن يتمتع عن المشاركة في الانتخابات، التي كانت الجماعة تنظر إليها على أنها انحراف عن المهمة الأساسية التي هي تحضير الثورة. وكان للامتناعيين شبكة من المجموعات الصغيرة في أنحاء إيطاليا، ولكن مركزهم كان في نابولي حيث كان بورديغا ينشر صحيفة "السوفييت" منذ كانون الأول (ديسمبر) 1918. وكان بعض متصلبي تورينو قد انضم إليهم، وبين هؤلاء كل من جوفاني بويرو وجوفاني بارودي. وكان معظم قادة "اتحاد الشباب الاشتراكي"، بمن فيهم سكرتيره لويجي بولانو من الامتناعيين. وكان هؤلاء يؤيدون دكتاتورية البروليتاريا وإيطاليا بالطرده الفوري للإصلاحيين وكل الآخرين من ذوي المواقف الغامضة من الاستخدام المحتمل للعنف أو من برنامج "الأممية الثالثة".

كانت الدولة الليبرالية الإيطالية في تلك الأيام قيد التفتت السريع، وكان هناك تحريض واسع الانتشار داخل الجيش للعصيان، وكان التضخم قفازا. وهكذا وافق مؤتمر الحزب بشبه إجماع على إجراءات مثل الانضمام إلى الأممية الثالثة، والتخلي عن برنامج الحزب العائد إلى عام 1892 باعتباره لم يعد صالحا، والاستبدال المحتمل للسوفييتات أو مجالس العمال بالدولة البورجوازية. وفي الاقتراع على الاقتراحات النهائية للأجنحة سجل قصويو سيراتي انتصارا صارخا بـ 48000 صوت. أما اقتراح لاتزاري، المشابه لاقتراح سيراتي ولكنه يشدد على ضرورة تجنب العنف إن أمكن، فلم يحصل إلا على 1400 صوت. وصوت الإصلاحيون، الذين كانوا يعرفون أن بياننا يمينيا بشكل واضح لن يحظى بأي دعم، إلى جانب لاتزاري. ولم يحصل شيوعو بورديغا إلا على 3000 صوت نظرا لأن مندوبين قلائل كانوا على استعداد لطرده الإصلاحيين، وأقل منهم كان ما زال راغبا في مقاطعة الانتخابات.

وعكس مؤتمر بولونيا الطابع المتهب لتلك الأيام، ولكن نتاجه موهت اللتباسات التي سرعان ما كانت لتذهب بوحدة الحزب. وعلى سبيل المثال، فإن الإصلاحيين قيموا انضمامهم إلى "الأممية الثالثة" على أنه عمل "مثالي" للتضامن مع الثورة، وتركوا أنفسهم بذلك أحرارا في انتقاد البرنامج المحدد للأممية<sup>(19)</sup>.

### غرامشي والحزب الاشتراكي الإيطالي عام 1919

لم يكن غرامشي منغمسا بعمق أبدا في سياسات الأجنحة داخل الحزب الاشتراكي الإيطالي. وكانت اهتماماته الحقيقية تتركز على تعليم الطبقة العاملة ووضع أسس ثقافية لمجتمع المستقبل. ومع ذلك، فإن التغييرات المتوالية في قيادة فرع تورينو حافظت عادة على وجود غرامشي في الإدارة. وفي أيار (مايو) 1919، عندما أسس غرامشي صحيفة "النظام الجديد" (أورديني نويو)، كان هو المفكر الوحيد الذي أدخل في اللجنة التنفيذية الجديدة للفرع. وكانت هذه اللجنة قد انتخبت على أساس تضمن المشاركة في الانتخابات الوطنية "باعتبارها صيغة للتنقيب الثوري للجماهير"<sup>(20)</sup>.

ووافق غرامشي على هذا الرفض لـ "الامتناعيين" إلى حد ملحوظ. وكان لا يحب ميل هؤلاء الفتوي إلى التركيز على إيجاد حزب شيوعي "حقيقي"، متجاهلين في الغالب مهمة تعزيز الشروط التي تضمن نجاح مثل هذا الحزب بين الجماهير<sup>(21)</sup>. واعترض غرامشي بشكل خاص على الهجمات المذهبية التي كان الامتناعيون يشنونها على مشاركة الحزب في الانتخابات، ودعم غرامشي النشاطات الانتخابية لأنه كان يعتقد أن وجود عدد كاف من النواب الاشتراكيين "سيجعل من المستحيل على أي من القادة البورجوازيين

أن يشكل حكومة مستقرة وقوية<sup>(22)</sup>. وكان هذا سببا سلبيا بحثا يعكس حالة الفوضى في عام 1919. وكان غرامشي يقول بإيجابية أكثر أنه يمكن للاشتراكيين أن يستخدموا البرلمان لجذب انتباه الجماهير إلى المشاكل الحقيقية للبلاد وإبراز الحلول لهذه المشاكل<sup>(23)</sup>. ومع ذلك، فإن الامتداعيين تركوا تأثيرا قويا في نفس غرامشي بتلهمهم إلى طرد الإصلاحيين والتزامهم المطلق ببرنامجه "الأممية الثالثة". وبقي موقف غرامشي تجاه الإصلاحيين يتسم بالازدراء والمعاداة كما كان عليه أيام كتابة "المدينة المستقبلية"، ولكن تقييمه للقصويين لم يكن معاديا بشكل مكشوف بعد. وكان غرامشي يأمل بأن يعطي المؤتمر السادس عشر للحزب القصويين طابعا "أكثر واقعية"، أي أن يحملهم على هجر الشعارات البحتة والبدء بتنظيم شروط محددة من أجل ثورة إيطالية<sup>(24)</sup>. وبالتالي، فإنه احتفظ بحكمه على القصويين حتى نهاية 1919.

وكان غرامشي نفسه، في الأشهر الأولى من عام 1919، مذنبا بعض الأحيان في بعض الأخطاء التكتيكية التي ارتكبتها جماعة سيراتي. وفي 15 نيسان (أبريل) أحرقت الفاشيون المقر الرئيسي لصحيفة "أفانتي" في ميلانو، فحيا غرامشي مقاومة مديري الحزب لأولئك الأعضاء المتعطشين إلى الانتقام باعتبارها "أحد المواقف الأقوى التي تبناها الحزب في هذه الفترة"<sup>(25)</sup>. واهتمامه بالخشية من أن تصبح الجماهير محروضة بأسرع من اللازم هو أمر مفهوم، ولكن النتائج السياسية لمقاومة غير ملائمة للعنف غير الشرعي بعد عام 1920 دلت على أن غرامشي كان ينظر أحيانا إلى الصراع السياسي في إيطاليا بجهود خاطئة. ولكن القصويين ارتكبوا عددا من الأخطاء التي لم يشارك فيها غرامشي، حتى في هذه المرحلة المبكرة، إذ نادرا ما أزعج القصويون أنفسهم بشرح فوائد الاشتراكية للطبقات الوسطى، وكثيرا ما أثاروا مخاوف هذه الطبقات بالتشديد الصاحب على العنف. على العموم، كان غرامشي يتشد على الطابع "الوطني" لثورة البروليتاريا في المستقبل. وكانت الاشتراكية قد طرحت لتحسين أوضاع كل الطبقات المختلفة الامتيازات في الأمة، بما في ذلك البرجوازية الصغيرة، وهي ترغب في تحرير الاقتصاد الإيطالي من التبعية للرأسمال الأجنبي<sup>(27)</sup>.

وبالرغم من أن غرامشي وأكثرية الحزب أرادا تحالفا للعمال مع الفلاحين، فإن الحزب لم يدرس أبدا بصورة جدية مشاكل هذا التحالف. واستاء غرامشي من عدم توفر المعلومات عن مشكلة فلاحي الجنوب في صحافة الحزب، وهو غياب أجبر الاشتراكيين الإيطاليين على العودة إلى المجالات الأجنبية<sup>(28)</sup>. والواقع أن النفوذ الاشتراكي في الجنوب كان ما زال ضعيفا، ولم تكن نسبة الجنوبيين بين نواب الحزب الاشتراكي الإيطالي المنتخبين عام 1919 تزيد عن 10 بالمائة<sup>(29)</sup>. ونسب غرامشي هذا الضعف إلى الميل الإصلاحية لتفضيل "الرستراوية" الطبقة العاملة في الشمال على جماهير فلاحي الجنوب<sup>(30)</sup>. ورأى غرامشي خطرا في إطلاق التصريحات المتهمة حول دكتاتورية البروليتاريا المقبلة، كما كان يفعل القصويون، في وقت لا يطلب من العمال غير التوقعات السلبية. وكما قال بييترو نيني فإن جماعة "النظام الجديد" بقيادة غرامشي مثلت "المحاولة الوحيدة لمواجهة الجانب التقني من الثورة" في فترة 1919-1920<sup>(31)</sup>. وفي أواسط عام 1919 عرف غرامشي أن الأمل الوحيد في نجاح الثورة الإيطالية يكمن في بعث المؤسسات الاشتراكية وفي التنقيب السياسي والاقتصادي للعمال.

### تأسيس "النظام الجديد" وبرنامجه

بعد الحرب، أعاد تاسكا وتولياتي وتيراشيني وغرامشي جمع الطلبة القدامى في "اتحاد الشباب الاشتراكي" بنية تأسيس صحيفة تدار جماعيا الهدف منها نشر النظرية والثقافة الماركسيين. وكان تدريب هذه المجموعة الأكاديمية وتجربتها الاشتراكية الوفيرة يؤهلها لأداء المهمة، وشعر أفراد المجموعة بأن المطبوعات الموجودة في هذا الحقل غير صالحة، فصحيفة "أفانتي" كانت تتحدث عن الثورة دون أن تفعل شيئا من أجلها، و"كريتا سوشالي" كانت صحيفة إصلاحية، و"إل سوفيتت" - التي أسسها بورديغا أخيرا في نابولي كصحيفة أسبوعية - كانت تركز جل اهتمامها على الامتناع عن المشاركة في الانتخابات. وهكذا، اجتمعت المجموعة في مكتب غرامشي في مقر صحيفة "أفانتي" في تورينو. وفي نهاية نيسان (أبريل) 1919 وضعت الخطة لإصدار صحيفة أسبوعية باسم "أورديني نوفو"، أي "النظام الجديد"، وظهر العدد الأول من هذه الصحيفة في الأول من أيار (مايو) 1919. وكانت لهذه الصحيفة أهميتها في التاريخ الحركة العمالية الإيطالية لسببين اثنين:

الأول، لأن الرجال الذين ساهموا في إصدار "النظام الجديد" أصبحوا بمرور الزمن النواة المدبرة للحزب الشيوعي الإيطالي، والثاني، لأن الصحيفة كانت الأداة التي شن غرامشي من خلالها حملته لتنظيم السوفييتات الإيطالية (مجالس المصانع)، وكانت هذه السوفييتات موضوعا أساسيا لفترة ما بعد الحلاب مباشرة.

كانت جماعة "النظام الجديد" تكاد تكون جدية بشكل مميز، وهي صفة لوحضت سابقا كطابع اختص به اشتراكيو بيمونتي الأكثر شباهًا. وحذر غرامشي أعضاء الحزب من أن "عليهم أن يتمتعوا ببرودة الأعصاب وصفاء الذهن في كل الحالات، وألا يسمحوا لأنفسهم بالانحراف وراء الشعور بالأهمية المبالغة أو وراء الحلول المتسرعة للأسف، إن الدول لا تبنى بالبطولات والمشاعر السخية، والصفات الأساسية هي الانضباط والمثابرة والانسجام وازدراء اللامسؤولية"<sup>(32)</sup>. وباستخدام هذه "الصفات الأساسية"، المأخوذة من الدراسة الأكاديمية الجديدة، حاول غرامشي والرجال الذين حولته التخلص من البلاغة الكلامية التي كانت شائعة بين الثوريين الإيطاليين. بالرغم من جدية مؤسسي "النظام الجديد" فإن أحدا منهم لم يكن يتوقع لها أن تغير المستقبل الروحي للعمال الإيطاليين، والواقع أن غرامشي أكد أن "الشعور الوحيد الذي وحدنا في تلك الاجتماعات [المبكرة] كان عشقا غير واضح المعالم لثقافة بروليتارية مبهمة"<sup>(33)</sup>. ومع ذلك، كان غرامشي قد اقترح أفكارا محددة تماما كانت قد سجلت في مسودات هذه الاجتماعات.

في ذلك الوقت، اقترح غرامشي أولا إقامة مؤسسات إيطالية شبيهة بالسوفييتات الروسية. وحتى وقت قريب، كانت خلفية هذا التحول في فكر غرامشي قد بقيت غامضة. فقد أعلننا ببعض التأثيرات العامة التي دفعت غرامشي إلى دراسة المؤسسات التمثيلية للجماهير العمالية. وكان بين اهتماماته - إلى جانب السوفييتات - حركة ممثلي العمال داخل المصانع الانكليزية، والمجلة الأمريكية "ذي لبيرييتور"، والاشتراكي الأمريكي دانييل دي ليون<sup>(34)</sup>. وبفضل مقالة نشرها أخيرا إيميليو سوافي أصبح يمكن الآن إثبات أن غرامشي وقادة تورينو الشباب عموما أظهروا اهتماما متزايدا ب"التنظيم البروليتاري" منذ بداية عام 1918<sup>(35)</sup>.

ووجد سوافي أن زاوية التنظيم البروليتاري التي كانت تظهر بشكل منتظم في "إل غريجو ديل بوبولو" كانت تحتوي على "كمية مذهلة من المعلومات" عن المؤسسات العمالية. وفي 27 نيسان (أبريل) 1918 نشرت "إل غريجو" - التي كان غرامشي يرأس

تحريرها منذ أب (أغسطس) السابق- مقالة غير موقعة حول "تطور النقابات العمالية" استبقت الكثير من انتقادات غرامشي الموجهة إلى البنية التقليدية للنقابات.

وعلى سبيل المثال، فقد هاجمت المقالة الاتحادات القديمة باعتبارها "في الأساس كوربوراتيفية وتقليدية ومحافظة"، ونظرا للمركزية البيروقراطية للنقابات "فإن الجماهير تكفي بالموافقة والطاعة السلبية"، في حين أن "السلطة التنفيذية تقوم بكل العمل". وقال كاتب المقالة المجهول أن الانتشار الواسع لطرق الإنتاج الحديثة خلال الحرب يتطلب تطويرا أكبر لمؤسسات النضال الطبقي. وقبل كل شيء، فإن على النقابات أن تمنح البروليتاريا مسؤولية أكبر بحيث تتولد "المبادرة ودوافع العمل عند الجماهير وفي المصانع"<sup>(36)</sup>. وانتهت المقالة بوصف تفصيلي للحركة التمثيلية العمالية في انكلترا، حيث كان الانكليز يحاولون تجاوز محدودية النقابات العمالية من خلال التمثيل المباشر للعمال في المصانع.

وظهرت مقالة أخرى في الزاوية نفسها من "إل غريديو" توجز التطورات الأخيرة في الاتحاد الألماني لعمال المعادن، وتعلق المقالة مؤيدة تقوية العناصر اليسارية في الحركة الألمانية وانطلاق المظاهرات العفوية في برلين ولايبزغ. وانتقدت المقالة بقسوة ميل كل النقابات الأوروبية تقريبا إلى التعاون مع حكومتها. وقالت "إل غريديو" أن الانخفاض التالي بالنقابات إلى مستوى الوظائف الاقتصادية والتقنية جعل المنظمات النقابية "لا معنى لها"، في حين أن مهمتها الحقيقية كانت "التحويل الكامل لمؤسساتها الامتياز الرأسمالي"<sup>(37)</sup>.

ومما لا شك فيه أن كاتب هذه المقالة كان مدركا للعلاقة بين إضرابات عمال المعادن في إيطاليا وانكلترا وألمانيا وروسيا بين سنتي 1916 و1918. وللمرة الأولى في تاريخ الحركة العمالية الأوروبية أصبحت النقابات جزءا من البنية الحكومية في بلدانها، وذلك من خلال المشاركة في هياكل الإنتاج. من الناحية الشكلية، أدى هذا الاندماج إلى منح النقابات بعض السلطة والمسؤولية، ولكنه حد من قدرة النقابات على حماية مصالح العمال. وقد يصلح المثال الانكليزي للدلالة على كل الحالات الأخرى: "إن قادة النقابات... بتخليهم عن حق الإضراب ولجؤهم إلى التعاون، بشروط، مع الحكومة وأرباب العمل، تخلوا عن قوتهم وسلطتهم لقيادة سياسية نضالية لرفع مستوى الأجور أو للدفاع عن المطالب النقابية"<sup>(38)</sup>. وكما يقول سوفي فإن الحركة العمالية، لكي تدافع عن نفسها، "كانت مجبرة في كل مكان تقريبا على التعبير عن نفسها بأشكال جديدة كثيرا ما كانت غير منظمة و"عفوية" مالت في المناطق الأكثر تطورا رأسماليا إلى أن تصبح مجالس لمدنوبي الورشة والمصنع"<sup>(39)</sup>. في هذا الإطار، يجب أن ينظر إلى السوفييتات كاتجاه عام لدى الحركة العمالية الأوروبية كما في روسيا. وفي عام 1921 ذكر ريتارد مولر، مؤسس مجالس العمال في برلين أيام الحرب، أن هذه المؤسسات "جاءت نتيجة للمضاعفات الاقتصادية للحرب، ولقمع كل حرية للحركة في الطبقة العاملة نظرا لحالة الحصار وللعجز الكامل للنقابات والأحزاب السياسية". وبالإشارة إلى إضراب برلين في تموز (يوليو) 1916، لاحظ مولر أن المجالس "عملت بشكل مماثل تماما للجان الورشات في الشركات الكبرى في بتروغراد سنة 1905، بالرغم من أن [عمال برلين] لم يكونوا يعرفون شيئا عن [هذه اللجان]... ولم يكن للنضال السياسي في تموز (يوليو) 1916 أن تقوده الأحزاب ولا النقابات"<sup>(40)</sup>.

وبقدر ما هو معروف، فإن غرامشي لم يكتب في عام 1918 أية مقالة يناقش فيها بشكل مباشر مسألة المؤسسات العمالية في المصانع. ومع ذلك، ففي مقالة نشرها في تشرين الأول (أكتوبر) 1918 أشار غرامشي إلى عدم الرضى عن التنظيمات العمالية الإيطالية القائمة، فالنقابات "بعيدة جدا عن تمثيل تلك القوى الديمقراطية القادرة على المراقبة والضبط المتبادلين الضروريين للعمل عند أية طبقة سياسية واقتصادية". وفي رأي غرامشي أن نقطة الضعف الأكبر عند البروليتاريا الإيطالية كانت أن "أقلية صغيرة من الأعضاء تشارك في الحياة الداخلية للعصابات ولغرف العمل". والأسوأ من هذا، هو أن الأكثرية، السلبية عادة، كان بإمكانها أن تتدخل "في لحظات تقريرية من حياة التنظيم، بحيث تضيق إلى موافقتها تفاهة وطيش أولئك الذين، لأنهم لم يساهموا بشيء في النشاط اليومي للتنظيم ولا يفهمون المعنى المحتمل والنتائج الممكنة للقرار، لا يملكون شعورا بالمسؤولية عن أعمالهم". وبهذا، "يصبح لقادة النقابات نفوذا وأهمية ما كان يمكن أن تكونا لهم في اعتماد روح المساواة الديمقراطية أساسا للتنظيم"<sup>(41)</sup>. وفي مقالة أخرى تعود إلى الفترة نفسها اشتكى غرامشي من أن الحزب الاشتراكي لم ينجح في خلق أجهزة يمكنها أن تنظم الجماهير بشكل دائم. ولكن غرامشي، على العموم، لم يقترح في هذه المرة طرقا جديدة للتنظيم، بل اكتفى بالبحث على التنسيب المكثف لأعضاء جدد في الحزب الاشتراكي الإيطالي وفي "الاتحاد العام للعمال"، وهما "الجسمان الضروريان والكافيان لتطور منضبط وواع للنضال الطبقي"<sup>(42)</sup>.

وكان كثيرون من القادة الثوريين الإيطاليين يأملون بقيام سوفييتات في إيطاليا. وفي 13 آذار (مارس) 1919 دعا جوفاني بويرو، الذي كان يومها أمينا لفرع الحزب في تورينو، إلى إدخال نظام السوفييتات في تلك المدينة. وعلى العموم، فإن بويرو لم يكن قادرا على اقتراح أية وسائل عملية لتشكيل هذه السوفييتات<sup>(43)</sup>. وفي الشهر نفسه، نشر الفونسو ليونيتي مقالة هامة في صحيفة "أفانغورديا" (الطلبة)، وهي صحيفة "اتحاد الشباب الاشتراكي"، بعنوان "في فجر النظام الجديد"، دافع فيها عن إقامة السوفييتات باعتبارها "الضمانة الأكيدة للتحرك باتجاه الاشتراكية" والوسيلة الأفضل لإعطاء طابع حديث للحركة العمالية الإيطالية<sup>(44)</sup>. ولكن غرامشي، الذي كان يرأس جماعة صغيرة من المفكرين الاشتراكيين، كان أول من رأى أنه يمكن للسوفييتات أن تقوم في تورينو بتحويل "اللجان الداخلية" إلى سوفييتات، وكانت هذه اللجان عبارة عن مؤسسات لها تاريخ طويل، وإن كان مخجلا ومتقطعا، في المدينة.

بحلول عام 1918، كان هنالك عدد ملحوظ من اللجان الداخلية المقامة في تورينو، وخصوصا في مصانع المعادن. على العموم، ومع بعض الاستثناءات القليلة، لم تكن هذه اللجان تحظى بالاعتراف الرسمي لدى الصناعيين والحكومة<sup>(45)</sup>. وفي شباط (فبراير) 1919، عندما وقع عقد العمل بين "اتحاد موظفي وعمال المعادن" وتجمع صناعة السيارات، حصلت اللجان الداخلية على هذا الاعتراف الرسمي<sup>(36)</sup>. وكانت هذه اللجان قد شكلت بالطريقة التالية: استشار "اتحاد موظفي وعمال المعادن" "أفضل العمال" في كل منشأة، وتم الاتفاق على لائحة تضم خمسة أعضاء، ثم إن هذه اللائحة "قدمت ونوقشت ووافق عليها في اجتماع [لعمال المنظمين] حضره ممثل للاتحاد". في البداية، تم اختيار رجال اللجان من بين أولئك المقبولين لدى الإدارة، أما فيما بعد فكانوا كثيرا ما يختارون من بين أعضاء الحزب الاشتراكي<sup>(47)</sup>. وهكذا، لم تكن اللجان الداخلية أجساما منتخبة ديمقراطيا تمثل بدقة وجهات العمال كلهم. وفي أغلب الأحيان كانت هذه اللجان تمثل أفكار قادة النقابات، في حين كانت تهمل العمال غير المنظمين إهمالا كلياً تقريبا. وأكثر من ذلك،



فان مهمات اللجان كانت تقتصر على النزاعات المعتادة حول الأجور وساعات العمل وشروطه. أما المشكلات الأساسية بالنسبة للسوفييتات، أي السيطرة البروليتارية على الإنتاج وتحضير البروليتاريا لتكون طبقة حاكمة، فلم تؤخذ في الاعتبار أبداً. واقترح غرامشي على رفاقه أن يدرسوا أوضاع اللجان الداخلية وأن يعثروا على الوسائل المناسبة لتحويلها إلى سوفييتات حقيقية وكاملة، كأجسام عمالية أكثر منها جماعات نقابية. وكان على رفاق غرامشي كذلك أن يدرسوا وحدة المصنع الرأسمالية "كصيغة ضرورية للطبقة العاملة، وكجهاز سياسي، وك"أرض وطنية" للحكم الذاتي للطبقة العاملة"، وهو ما اعتبره غرامشي ضرورياً للربط بين المصنع والعمال الاشتراكي بنفس الطريقة التي تربط بين البلدية أو المنطقة الانتخابية و"المواطن" البروجوازي<sup>(48)</sup>. واعترض أنجيلو تاسكا على جعل هذا البرنامج هدفاً ل"النظام الجديد"، وبشكل أكثر دقة فإنه اعترض على الدعاية للبدء بإقامة السوفييتات قبل الاتفاق المسبق مع الصناعيين والنقابات. وكان تاسكا قد دخل "اتحاد الشباب الاشتراكي" منذ عام 1908 وكان ناشطاً في إضرابات عمال المعادن الكبرى خلال عامي 1912-1913. ولذلك، فقد كان له ارتباط حميم بقيادة الحركة العمالية في تورينو، وقد تردد في الموافقة على برنامج قد يهدد مصالح هؤلاء. وأكثر من ذلك، فإن فهم تاسكا لصحيفة تمثل "الثقافة الاشتراكية" كان يختلف كثيراً عن فهم غرامشي لهذه الصحيفة. فبالنسبة لتاسكا، كان الغرض من مثل هذه الصحيفة هو مراجعة تاريخ الفكر الاشتراكي، وكان لأعمال أنطونيو لابريولا -المساهم الإيطالي الوحيد ذو الأهمية في الفكر الاشتراكي- أن تشكل النقطة المركزية في هذه الدراسة التي كان هدفها الأخير إجراء إعادة نظر شاملة في الماركسية.

ودعم تولياتي وتيراشيني خطة غرامشي. ولكن، نظراً لأن تاسكا كان الوحيد القادر على استدانة مبلغ 6000 ليرة إيطالية ضرورية للبدء بنشر الصحيفة، فإن الأعداد الأولى من الصحيفة الجديدة عكست نفوذه. ووصف غرامشي شكل الصحيفة حتى 21 حزيران (يونيو) بأنه ليس أكثر من "مقتطفات أدبية مختارة" أو "مراجعة لثقافة تجريدية"، وكانت هذه الثقافة تجريدية بالنسبة لغرامشي لأنها لم تكن تحتوي على شيء من مشكلات تورينو، بل كان يمكن أن تنشر "في نابولي أو كاتانيسيسا أو برينديزي"<sup>(49)</sup>. ولم يكن للصحيفة برنامج محدد ولا فكرة مركزية قادرة على تحريك الجماهير التورينية.

وبدأت الأصالة في "النظام الجديد" مع صدور العدد السابع منها في 21 حزيران (يونيو)، بعد أن قام غرامشي وتولياتي في منتصف حزيران (يوليو) ب"انقلاب تحريري" ناجح. وكان غرامشي قد طرح مشكلة اللجان الداخلية وتحويلها إلى سوفييتات في افتتاحيته الأولى المعنونة "الديمقراطية العمالية"، وحصل على نجاح فوري. ودعت نوادي العمال والعديد من اللجان الداخلية لغرامشي وتولياتي وتيراشيني على مناقشة السياسة الجديدة ل"النظام الجديد"، التي سرعان ما انظم إليها كثيرون. وربما كان الخطاب الأهم لغرامشي هو ذلك الذي ألقاه في 24 حزيران (يونيو) 1919 أمام مجموع فرع الحزب الاشتراكي. وبعد الدعوة إلى تحويل اللجان الداخلية إلى سوفييتات من النوع الذي أقيم في روسيا والمجر، و"استناداً إلى الخبرات الثورية للجماهير العاملة الانكليزية والأمريكية"، أكد غرامشي أن إقامة السوفييتات ستكون أسهل بكثير قبل الثورة منها بعد الثورة، عندما "يصبح الجدل والصدام بين الاتجاهات المختلفة أكثر حدة". وفي نداء موجه إلى الامتناعيين، الذين كانوا يزدادون قوة في تورينو، قال غرامشي أن إقامة السوفييتات سيشكل، بحد ذاته، نقداً إبداعياً وفعالاً لقيمة النشاط البرلماني<sup>(50)</sup>.

في آب (أغسطس) 1919 حصل برنامج غرامشي على نتائجه الأولى الملموسة. ففي مؤتمر ل"اتحاد الشباب الاشتراكي" عقد في وقت مبكر من ذلك الشهر نوقش برنامج "النظام الجديد" طويلاً. وأعلن ماريو مونتانيانا أن صحيفة "النظام الجديد" يجب أن تصبح بالنسبة للاشتراكيين ما كانته صحيفة برتيزوليني "لافوتشي" بالنسبة للبروجوازيين<sup>(51)</sup>. والأهم من هذا هو أن اللجنة الداخلية في "فيات-المركز"، وهو أكبر مصنع في تورينو، استقالت ودعت إلى انتخاب مجلس يضم "مفوضاً" عن كل قسم صناعي في المنشأة. وبحلول 26 تشرين الأول (أكتوبر) 1919، كان قد تم تنظيم أكثر من 50 ألف عامل توريني في 30 مصنعا<sup>(52)</sup>. وازداد العدد إلى 150 ألفاً في نهاية العام<sup>(53)</sup>. وفي 1 تشرين الثاني (نوفمبر) انتخب فرع تورينو ل"اتحاد موظفي وعمال المعادن"، الذي يبلغ عدد أعضائه 16 ألفاً، لجنة تنفيذية جديدة تبنت مبادئ مجالس المصانع، ومنذئذ، كان لهذه المجالس أن تمثل النقابة داخل الورشات. وفي كانون الأول (ديسمبر) قبلت المجالس أيضاً لدى فرع الحزب الاشتراكي الإيطالي وفي تورينو، وعين الفرع لجنة للدراسة برئاسة تولياتي<sup>(54)</sup>. وأخيراً، وفي كانون الأول (ديسمبر) أيضاً أقرت "غرفة العمل" في تورينو، وبأكثريّة كبيرة، قراراً يوافق على حركة المجالس - ووصفت هذه الحركة بأنها "منطلقة عفوية من مصانع تورينو- باعتبارها "دلالة على نضج الطبقة العاملة"<sup>(55)</sup>.

### الأساس النظري لمجالس المصانع عند غرامشي

لم ينفق غرامشي الوقت والجهد في تحويل اللجان الداخلية إلى سوفييتات "حقيقية" لأنه اعتقد بوجود التقليد التبعي للثورة الروسية، بل بسبب الاحترام الكبير الذي كان هنالك ل"المجالس" في كل مكان تقريباً في أوروبا ما بعد الحرب، ونتيجة لفهمه العام للنظرية الاشتراكية للثورة. بالنسبة للماركسية، كانت البروليتاريا طبقة جديدة محتواة ضمن بنية الرأسمالية، وكان وجودها ذاته يسرع في انهيار تلك البنية. وكطبقة جديدة، فإن البروليتاريا ستخلق دولة جديدة، اشتراكية الطابع نتيجة لأوضاع الصناعة الحديثة وإيمان العمال بأن الاشتراكية وحدها قادرة على وضع حد لاستغلال طبقة أخرى.

واستناداً إلى غرامشي فإن هذه الدولة الاشتراكية "موجدة كإمكانية في مؤسسات الحياة الاجتماعية المميزة للطبقة العاملة المستقلة"<sup>(56)</sup>. وعلى العموم، فإن إيجاد هذه الدولة الجديدة يستدعي بالضرورة تحديد الشروط الأساسية لتحقيق الانتقال إليها. وكان الشرط الأساسي هو، بالتأكيد، دخول كل العمال في إطار المؤسسات الاشتراكية، لأنه بذلك فقط يمكن للطبقة كلها أن تصبح واعية لدورها في خلق الدولة الجديدة. ولم يكن لأي من المؤسسات القائمة للطبقة العاملة أن تحقق هذا الشرط. وكان الحزب في وضع يصعب عليه معه استيعاب الطبقة العاملة بأسرها خلال فترة قصيرة من الزمن، وحتى لو استطاع الحزب أن يفعل ذلك فإنه سيتوقف عن كونه "طليعة" للبروليتاريا ومنارة للمستقبل. وبدلاً من ذلك، فإنه سيخضع لسيطرة حقائق اللحظة الراهنة. وكانت النقابات لا تتحدث إلا باسم أعضاء مهن معينة، وكان لها -في كل الأحوال- أهداف محدودة مثل تحسين الأجور وساعات العمل، وبالتالي فإن المستقبل لم يكن من مهمات هذه النقابات.

وكان لا بد من خلق مؤسسة جديدة يمكنها أن تنظم البروليتاريا "التثقيف نفسها وتجميع الخبرات واكتساب الوعي المسؤول للواجبات المترتبة على الطبقات التي تمسك بسلطة الدولة". وكان على المؤسسة الجديدة أيضاً أن تضم، في ذاتها، نموذج الدولة

البروليتارية<sup>(57)</sup>. وكانت السوفييتات بالطريقة التي نشأت بها في روسيا قد لبثت هذين المطلبين كليهما، وكان غرامشي ينظر إلى اللجان الداخلية كسوفييتات ممكنة، وبالتالي فإنه سعى إلى تحويل هذه اللجان إلى أداة فاعلة.

وكانت إحدى نقائص اللجان هي أنها تمثل فقط أولئك العمال المنظمين في النقابات. أما العمال غير المنظمين - وهم غالبيتهم من غير المهرة ومن ذوي الياقات البيضاء - فلم يكونوا ممثلين. وكما في النقابات، كانت اللجان الداخلية تقصر نشاطها على مسائل الأجور وساعات العمل. ونظرا لأن العمال لم يكونوا ممثلين كلهم فإن "تثقيف" الطبقة العاملة بأسرها لم يكن ممكنا. وبالشكل نفسه، فإن الواجبات المقتصرة على العلاقات بين أرباب العمل والموظفين لم تكن لتعد العمال لمسؤوليتهم الكبرى في الدولة الاشتراكية المقبلة. وكان التحول الفاعل للجان إلى سوفييتات، أو مجالس، يستدعي القضاء على حالات الخلل هذه.

وقد مكنت طبيعة اللجان الاشتراكيين من إيجاد الشروط اللازمة للثورة مباشرة داخل المصنع، الذي هو الوحدة الأساسية للمجتمع الاشتراكي. واستنادا إلى غرامشي، فإن مراكز القوة الرأسمالية كانت تجارية ومالية (مصاريف وتبادل عملات واحتكارات "كارتل" و"تروسونات" وغرف تجارة)، أما مراكز قوة المجتمع البروليتاري فكان يمكن أن تكون صناعية (المصنع ومجموعات المصانع)<sup>(58)</sup>. وكان جوهر الثورة الاشتراكية يكمن في الاعتراف بهذه الحقيقة الاقتصادية وفي العمل لجعل المصنع مؤسسة اقتصادية. وإذا كان الاقتصاد يسبق السياسة فإن الثورة هي عمل سياسي، وبالتالي فإن على المصنع أن يعطي "الشكل العضوي والتنظيمي" اللازم لجعله قاعدة للثورة السياسية<sup>(59)</sup>.

وحالة التخلف التي كان الاقتصاد الإيطالي يعاني منها كانت تجعل هذا التحرك أكثر ما يكون ضرورة. ولم يكن لاندلاع الثورة يضمن انتصار الثورة الاشتراكية في إيطاليا، حتى وإن أطيح بنجاح بالدولة البورجوازية<sup>(60)</sup>. وقد يمكن لأكثرية السكان أن توافق على تدمير النظام الحالي، ولكن عمال المصنع وحدهم يستطيعون ضمان انتصار الاشتراكية. وهم وحدهم - خلافا للفلاحين وصغار البورجوازيين - متأكدون "حسابيا" من أنهم لن يصبحوا أصحاب نظام رأسمالي، وبالتالي فإنهم وحدهم يؤمنون تماما بأن الاشتراكية، كنظام جديد يقوم على الملكية الجماعية، ضرورية<sup>(21)</sup>. لهذا، فإن مستقبل الاشتراكية كان يتطلب تنظيم العمال داخل المصانع. وبالنسبة لغرامشي، فإن تطوير مجالس المصانع لم يكن مجرد رغبة، فشرط وجود هذه المجالس قائمة فعلا.

وكانت التطورات التكنولوجية في المصنع قد غيرت من موقع المعلمين الحرفيين والتقنيين داخل المنشآت الصناعية. وصار باستطاعة العامل أن يتابع عمله بدون إشراف مباشر عليه في معظم مهماته التقنية، وحصل بالتالي على استقلال ذاتي أكبر. والتقني، الذي لم يعد ضروريا عندما حل الانضباط الذاتي محل الانضباط المادي للمصنع، كان قد "انحدر إلى مستوى المنتج" المرتبط بالرأسمالي "بعلاقة عارية وفجة بين المستغل والمستغل"<sup>(62)</sup>. وبالتالي، فإن نفسيته أصبحت بروليتارية أكثر منها بورجوازية صغيرة. إن نمو الرأسمالية المالية، بفصلها المادي المرافق بين صاحب العمل والمصنع، جعلت دور الرأسمالي هامشيا. ولم تعد بصيرته ومبادراته ومصالحه الفردية ضرورية للإنتاج.

"لقد أصبح قبطان الصناعة فارسا صناعيا مختبئا في المصاريف والصالونات والبورصات والأروقة الوزارية والبرلمانية. وأصبح مالك رأس المال فرعا ميتا في حقل الإنتاج، ومنذ أن أصبح غير لازم بالضرورة - بعد أن ضمرت وظائفه التاريخية - تحول إلى مجرد عميل للشرطة. إنه يضع مصالحه مباشرة في أيدي الدولة التي ستحميها بلا شفقة"<sup>(63)</sup>.

لقد حصل عمال المصنع على درجة عالية من الاستقلال الذاتي من خلال إزالة الدور الشرعي للرأسمالي في الإنتاج. وكان العمال على استعداد لاستخدام هذا الاستقلال الذاتي بفائدة جيدة، لأن حياة المصنع، بإنتاجها الكثيف والمنهجي، علمتهم احترام النظام والدقة. لقد كان تضامن الطبقة العاملة - وهو قوة العمال - يعتمد على هذه الصفات وعلى تقسيم للعمل مصاحب لها، كما يرى في المصنع. ووصل كل عامل إلى التفكير بنفسه على أنه قابل للانفصال عن رفاقه في القوة العاملة. "وكلما زاد تخصص البروليتاريا في مهنة ما، شعر أكثر بالحاجة الكبيرة إلى رفاقه، وصار يفكر بنفسه كخلية في جسم منظم.. ويشعر أكثر بالحاجة إلى النظام والمنهجية والدقة...". وبدأ العامل يفهم المجتمع على أنه "مصنع واحد كبير، منظم بنفس الدقة والمنهجية والنظام الذين يراهم العامل غاية في الأهمية داخل المصنع حيث يعمل"<sup>(64)</sup>.

### برنامج مجالس المصانع وتنظيمها

في 31 تشرين الأول (أكتوبر) 1919 ناقشت أول جمعية عمومية لمفوضي مصانع تورينو برنامجا للمفاهيم العامة والنواظم المعينة لتنظيم مجالس المصانع، ووافقت على هذا البرنامج، أولا في تورينو (حيث كانت الحركة قد أصبحت تضم 50 ألف عامل)، ثم في مقاطعة بيمونتي، ثم -احتمالا- في كل أنحاء إيطاليا. هذا البرنامج، الذي نشر كاملا في عدد "النظام الجديد" الصادر في 8 تشرين الثاني (نوفمبر)، عكس بشكل مباشر أفكار غرامشي حول الغرض من إقامة هذه المجالس. وحتى لغة الوثيقة، بلهجتها الهيجلية المبالغية، هي لغة غرامشي، بالرغم من أنه وصف البرنامج، توضحا، بأنه نتاج جماعي لـ "الجنة الدراسة" التي عينها المفوضون<sup>(65)</sup>. وكانت المجالس قد أنشئت بعناية كبيرة لتجنب النواقص الموجودة في التنظيمات الاشتراكية الإيطالية المعاصرة.

بعد تحليل مطول للعلاقة بين النقابات والمجالس، شدد "البرنامج" على أهمية المبادئ الديمقراطية في عملية المجالس: فالذين يجري انتخابهم كمفوضي مصنع ما عليهم أن ينفذوا إرادة جمهور العمال في المصنع. وعلى العموم، فإن هذه الديمقراطية لم تكن تقوم فقط على أساس التعبير الرقمي عن إرادة الجمهور، بل هي -بالإضافة- تعكس وظائف العمال والتنظيم الذي "اتخذته لنفسها بشكل طبيعي الطبقة العاملة من خلال عملية الإنتاج الصناعي المتخصص مهنيا وفي المصانع"<sup>(66)</sup>. ودخل كل قسم من أقسام مصنع ما، انتخبت كل "فرقة عمالية" -وهي جماعة متخصصة بوظيفة أو عمل واحد ما- مفوضا واحدا. وأخيرا، كان لابد لموظفي الإدارة من أن يمثلوا، سواء كانوا مهندسين أم تقنيين أم موظفين مكتبيين<sup>(67)</sup>.

ولضمان تمتع المفوضين الدائم بثقة واحترام العمال، فإنه كان يمكن سحب التفويض المعطى إليهم من خلال استفتاء يمكن أن يجري في أية لحظة<sup>(68)</sup>. وبهذه الطريقة كان يؤمل بتجنب "التبخرط" السخيف الذي عرفته النقابات. ولم يوضع سوى شرط واحد يحد من المساواة التامة بين كل بروليتاريي المصنع، إذ كان لكل عامل الحق في التصويت، ولكن المنظمين داخل النقابات كان لهم وحدهم حق أن يصبحوا مفوضين<sup>(69)</sup>. وكان هذا الشرط مبررا بعدم النضج السياسي للكثير من العمال غير المنظمين، وبخطر التحريب الرأسمالي داخل المؤسسة الجديدة، وبالحاجة إلى التدخل المتوالي للمجلس في أمور تتعلق بالنقابات<sup>(70)</sup>. وأعطى البرنامج أيضا مسؤولية

مزدوجة للمفوضين. فهم كانوا يمثلون طبقة اجتماعية كممثلين لكل بروليتاريا المصنع، وكانوا ناطقين باسم فئات النقابات داخل كل منشأة.

وكانت نواظم، أو قواعد، البرنامج تنص على تسمية لجنة تنفيذية تختار من مجلس المفوضين وتتألف مما يتراوح بين ثلاثة وتسعة أعضاء حسب المصنع<sup>(71)</sup>. وهذه اللجنة التنفيذية أخذت محل اللجنة الداخلية القديمة وكان عليها أن تحصل على اعتراف المصنع باعتبارها كذلك<sup>(72)</sup>. وكان للمجلس طبعاً -وبالتالي للجنة التنفيذية- سلطات أوسع بكثير مما كان للجنة الداخلية، ولكن كان لا بد من تأمين اعتراف مبرر للإدارة بالمؤسسة الجديدة.

وكانت للمفوضين مهمات مختلفة عديدة، وبالرغم من ذلك، لم يكن يسمح لهم بترك وظائفهم في مصانعهم إلا في الظروف التي تتطلب وجودهم خارج أقسامهم. ويحتوي "البرنامج" على إحدى عشرة مادة مرقمة تحت عنوان "مهمات المفوضين في المصانع". ويمكن اختصار هذه المواد بشكل أساسي إلى ثلاث: الدفاع عن حقوق العمال، والاستعداد لاننزاع السلطة في المصانع، وتنقيف العمال. وكان "البرنامج" ينظر إلى تنقيف العمال بطريقة جديدة كلياً. وكان المفوضون مسؤولين عن تنظيم مدرسة داخل المصنع لزيادة مهارات العمال في مهنتهم أو وظائفهم الصناعية<sup>(73)</sup>. وبالإضافة إلى "مدرسة العمل" هذه أقامت "النظام الجديد" مدرسة للثقافة والدعاية الاشتراكيين" في كانون الأول (ديسمبر) 1919. انتمى إليها سواء الطلاب الجامعيون أم العمال. وكان غرامشي وتولياني وتاسكا وباستوري يلقون المحاضرات هناك، كما كان يفعل عدد من أساتذة الجامعة<sup>(74)</sup>. وقد بحثت هذه المدرسة فكرة "دولة المجالس" كدولة جديدة كلياً تحل "نظام المجالس" محل الدولة الليبرالية.

وحاولت "النظام الجديد" نفسها دفع التنقيف العمالي إلى الأمام من خلال إقامة دروس منتظمة، مثل ذلك المسمى "معركة الأفكار"، وتقديم مساهمات خاصة، مثل دراسة آدو أوبردوفر عن ليوناردو دافينشي أو ترجمات تولياني لوالث ويتمان<sup>(75)</sup>. وكان في رأي غرامشي أن الخلل في الثقافة الإيطالية أصاب أكثر ما أصاب الطبقة العاملة، وهي الطبقة الوحيدة القادرة على أن تربط عضويتها بين الثقافة والحياة. ومن خلال التنقيف وحده يمكن للعمال أن يتوصلوا إلى النضج الذي يمكنهم من الاستيلاء على السلطة، وبالتالي، فقد أراد غرامشي أن يفتح الطبقة العاملة، من خلال المجالس، بأن مصلحتهم الخضوع إلى نظام دائم للثقافة، لكي يطوروا لأنفسهم مفهوماً للعالم وللنظام المعقد والمتشابه للعلاقات الإنسانية، الاقتصادية منها والروحية، التي تشكل الحياة الاجتماعية للكون<sup>(76)</sup>.

وكان البرنامج التنقيفي يتعلق بشكل مباشر بمهمة أخرى لمفوضي مجالس المصانع، ألا وهي الاستعداد للاستيلاء على السلطة. وكانت هذه المهمة تتلخص، بالدرجة الأولى، في تحضير العمال لأن يصبحوا منتجين مستقلين ذاتياً. وبالتالي، فإن المطلوب من المفوضين كان دراسة "الأنظمة البورجوازية للإنتاج"، وعندما يكون ذلك ممكناً: اقتراح طريق لتسريع الإنتاج بإلغاء العمل غير اللازم. وإذا كانت التجديدات التقنية -حتى الذي تقترحه الإدارة منها- تبدو مفيدة للإنتاج، فإنه يجب حث العمال على قبولها، حتى وإن كان الثمن "ضرباً مؤقتاً" يلحق بمصالحهم، على أن يكون الصناعيون أيضاً راغبين في تقديم التضحيات<sup>(77)</sup>. وبهذه الطريقة، سيكون على العامل ألا يفكر بنفسه ككاسب للأجر بل كمنتج، مع الوعي الكامل بمكانه الدقيق في عملية الإنتاج "بكل مستوياتها، من المصنع، إلى الأمة، إلى العالم"<sup>(78)</sup>. وكان غرامشي يعتقد أن هذه النظرة الموسعة هي أفضل ضمانة للتغيير الكامل للنظام الرأسمالي القائم.

وكان الهدف النهائي للمجالس قد أعلن بوضوح كبير في ما يكتبه تولياني في كانون الثاني (يناير) 1920: "ليس لتأسيس المجالس قيمة إذا نظر إليها كبدائية واعية للعملية الثورية. وليس للسيطرة على الإنتاج أي معنى إلا إذا كانت جزءاً... من هذه العملية... إن البرنامج النموذجي المضاد للثورة فيما يختص بتأسيس المجالس، أجهزة المجتمع المستقبلي، يتركز على هذه المجالس تعترف بالدولة، الجهاز الأعلى للمجتمع الحالي... ولا يمكن أن تكون هنالك أية تسوية بين التنظيم البورجوازي وتنظيم العمال. وما من سلطة يمكن اقتسامها بينهما، هناك سلطة واحدة يجب الاستيلاء عليها"<sup>(79)</sup>.

واعتقد غرامشي بأنه يمكن للمجالس، إذا سمح لها بتنمية الوظائف المشار إليها أعلاه، أن تحل الدولة البورجوازية: "إن مجلس المصنع هو نموذج الدولة البروليتارية. وكل المشاكل المتعلقة بتنظيم الدولة البروليتارية هي مشاكل تتعلق بتنظيم المجلس. وفي الحالتين يتراجع مفهوم المواطن ويحل محله مفهوم الرفيق، مفهوم التعاون لإنتاج الثورة... ومضاعفة روابط التعاطف والأخوة. كل إنسان ضروري، وكل إنسان في مكانه، ولكل إنسان وظيفة ومكان عمل. حتى الأكثر جهلاً وتخلفاً من العمال، وحتى الأكثر تفاهةً و"حضارة" من المهندسين، قد يمكنه أن يفتح نفسه بهذه الحقيقة في تجربة تنظيم المصنع. وكل إنسان يحتمل أن يكتب وجهة نظر شيوعية من خلال فهم الخطوة الكبيرة إلى الأمام التي يمثلها الاقتصاد الشيوعي بالنسبة إلى الاقتصاد الرأسمالي. والمجلس هو الجهاز الأكثر ملائمة للتنقيف والتنمية المتبادلين للروح الاجتماعية الجديدة التي نجحت البروليتاريا في تحقيقها... إن تضامن الطبقة العاملة... في المجلس هو أمر إيجابي ودائم وحاضر حتى في أقل اللحظات أهمية في الإنتاج. إنه موجود في الوعي المبتهج بالكون كلا عضواً ونظاماً منسجماً ومتماسكاً يؤكد سيادته، بالعمل المفيد والإنتاج اللامصلي للثروة الاجتماعية، ويحقق سلطته وحرية كصانع للتاريخ"<sup>(80)</sup>.

لهذه الأسباب، أكد غرامشي في أيلول (سبتمبر) 1919 أن "تشكل نظام للمجالس يمثل التأكيد الأول الملموس للثورة الشيوعية في إيطاليا"<sup>(81)</sup>. وكان لبعض الوقت أن يمر قبل أن يكتشف غرامشي أن حركة المجالس كانت آخر تقدم حققته "الثورة الشيوعية في إيطاليا".

### النقابوية ومجالس المصانع

إن الأهم بين المشاكل التي أثيرت في تشكيل مجالس العمال كانت العلاقة بين المجالس والنقابات والحزب الاشتراكي الإيطالي. وأوضح غرامشي أن الحزب والنقابات قاموا في فترة تاريخية تسيطر عليها الرأسمالية. وبهذا فإن الحركة البروليتارية بكاملها لم تكن مستقلة. فهي لم تكن تتصاح "القوانين" متضمنة في الحياة والتجربة التاريخية للطبقة العاملة، بل لقوانين تفرضها عليها الطبقة المالكة، طبقة الرأسماليين. وكأية ظاهرة أخرى من ظواهر المرحلة لم تكن الحركة البروليتارية إلا تطوراً "للتنافس الرأسمالي الحر". كانت النقابات "تدخل هذه المنافسة" اقتصادياً، وكان الحزب يدخلها سياسياً. وبسبب هذا الواقع، رسم غرامشي خطوط "كل النزاعات الداخلية، والانحرافات، وحالات التردد والتسويات التي ميزت كل حياة الحركة البروليتارية، والتي توجت بإفلاس الأممية الثانية"<sup>(82)</sup>.

وفي رأي غرامشي أن الخطأ الأكبر المتعلق بالأصول التاريخية للحركة النقابية كان ميل الكثيرين من قادتها إلى النظر إلى صراعها الاقتصادي مع الرأسمالية على أنه نشاط أساسي من نشاطات الثورة الاجتماعية، ورأى غرامشي هذا على أنه نضال مؤقت وطارئ وليس دائما. النقابة بحد ذاتها كانت قد ولدت كرد فعل لشروط تاريخية معادية (مفروضة)، وليس كتشكيل مستقل للعمال (مفتوح). ونظرا لاعتماد النقابات على القوانين الرأسمالية، فإنها لم تكن تملك "خطا ثابتا ويمكن التنبؤ به للتطور"، وبالتالي فإنها كانت عاجزة عن تجسيد حركة ثورية إيجابية.<sup>(83)</sup>

ولأن النقابوية كانت مجرد صيغة من صيغ المجتمع الرأسمالي، فإنها نظمت العمال كمجموعة داخل النظام الرأسمالي مكلفة ببيع سلعة تسمى "العمل". ولبيع هذه السلعة بأعلى سعر، نظمت النقابات العمال على أساس مبدأ أو اثنين، حسب الظروف: استنادا إلى أداة مهنة ما، وهو ما أعطى نقابوية الحرفة، أو استنادا إلى المادة المراد تحويلها (مثل تحويل الحديد إلى الفولاذ)، وهو ما أعطى النقابوية الصناعية. هذان الميدان كانا مفروضين على النقابات من قبل النظام الرأسمالي. ونظرا لأن استخدام المخزونة بدلا من النوال، مثلا، أو صناعة الفولاذ بدل الثياب، كان يعتمد على المستويات المختلفة لقدرة العمال وتدريبهم، فإن كلا من كميات الجهد وكميات الربح كانت شديدة الترتاب. وهذا ما أدى بالعمال إلى أن لا ينظروا إلى عملهم ك"عملية للإنتاج، بل كوسيلة للربح فحسب"<sup>(84)</sup>. على العكس من ذلك، فإن مجلس المصنع أدى بالعمال إلى أن ينظروا إلى أنفسهم ك"جزء لا يفصل من نظام شامل للعمل جمع في شيء مؤلف". وساعد المجلس العامل على تحقيق "وحدة العملية الصناعية، التي تتطلب تعاون العمال غير المهرة والعمال المهرة والموظفين الإداريين والمهندسين والمديرين التقنيين"<sup>(85)</sup>. وشدد غرامشي على كون هذا المفهوم أساسيا بالنسبة للعملية الثورية. وبالرغم من أن النقابة كانت أداة للصراع الطبقي (أو "التنافس الطبقي") فإنها لم تحقق أية انتصارات ذات مغزى على مؤسسات الملكية الخاصة والربح. والمعني المبكر بأن القضاء على الرأسمالية أبعد مما تقوى عليه (وهذا يعود طبعا إلى أصل النقابة ومفهومها للعمال) سرعان ما أدى بالنقابة إلى توجيه كل جهودها إلى الهدف الفوري الذي يتلخص في رفع مستوى معيشة العمال عن طريق المطالبة بأجور أعلى، وساعات عمل أقل، وهيكلة للتشريع الاجتماعي. وقد تحسن مستوى المعيشة نسبيا. ولكن كل الانتصارات النقابية، تم تحقيقها في إطار نظام الملكية الخاصة. ونادرا ما تأثر الربح. وعندما كان معدل الربح يخفض بنجاح من خلال جهد النقابة كان هذا يؤدي إلى "إيجاد استقرار جديد: عن طريق المنافسة الحرة في حالة الأمم ذات الاقتصادات العالمية، كانكترا وألمانيا، وعن طريق تعريفات الحماية في حالة الأمم ذات الاقتصادات المحدودة، كفرنسا وإيطاليا". وهكذا، فإن تزايد تكاليف الإنتاج الصناعي كان يحول إلى كاهل جماهير المستعمرات أو كاهل شريحة واسعة من السكان في الدول المستقلة الأكثر تخلفا. وفي كلتا الحالتين كان يمكن للعمل النقابي أن يبتج ثورة اجتماعية<sup>(86)</sup>.

كان مما يحد من حرية عمل النقابة خضوعها المتزايد للشرعية الضيقة في علاقاتها مع الطبقة المالكة<sup>(87)</sup>. والواقع أن شرعية النقابات كانت أفضل ضمانة لقدرتها على القيام بمهمتها، أي بالتفاوض على عقود العمل. وتزايد حجم النقابة ونمو البيروقراطية المركزية فيها أبعدها تدريجيا عن الجماهير. ولكن هذا الضعف الظاهري كان قوة حقيقية للحركة النقابية، فبيروقراطيتها المنفصلة عن الجماهير كانت أبعد من أن تصل إليها الجماهير الصاخبة والهائجة، وبالتالي، فقد كانت النقابة قادرة على التعاقد على اتفاقات والارتباط بالتزامات. وكان لصاحب الصناعة أن يكون متأكدا من أن النقابة هي تنظيم مستقر قادر على الحصول على احترام الجماهير العاملة لالتزامات التعاقد. وهذا التأكيد هو قاعدة "الشرعية الصناعية" التي حسنت، بلا شك، من أوضاع الطبقات العاملة. ومع ذلك، فإن الشرعية الصناعية لم تكن من تسوية مؤقتة لا يبررها شيء سوى الظروف غير الملائمة للطبقة العاملة. ويقدر ما تعترف النقابات بالطبيعة المؤقتة للتسوية وتحاول زيادة قوة الطبقة العاملة وتعددها لدور أكثر إيجابية في المجتمع، تصبح أداة ثورية في الصراع الطبقي. وحتى إن تمت تقوية الشرعية الصناعية بمثل هذه الأهداف في الذهن، فإن هذا يمكن تبريره بالحاجة إلى الانضباط الثوري. وعلى العموم، وللأسف، فإن حركة النقابات كثيرا ما نظرت إلى الشرعية الصناعية على أنها تسوية أبدية. وفي هذه الحال، كان من غير الممكن تجنب الصدمات مع المؤسسات الصريحة الثورية للطبقة العاملة.

أما مجلس المصنع فأبطل الشرعية الصناعية، نظرا لأن غرضه كان تثقيف الطبقة العاملة بهدف الاستيلاء على السلطة من خلال السيطرة على الإنتاج، في حين إن النقابات الساعية إلى ضمان استمرار عمل وأجور العمال كانت تصر على الحفاظ على الشرعية الصناعية. "إن المجلس، نتيجة لعفوئته الثورية، يميل إلى إطلاق العنان للحرب الثورية في أية لحظة، أما النقابة، ونتيجة لصيغتها البيروقراطية، فتميل إلى المنع الكلي لإطلاق العنان للحرب الثورية".

وأخيرا، فإن غرامشي نظر إلى المهمات المحددة للنقابة والمجلس باعتبارها متعارضة كليا في المبدأ، وأكد أولوية دور المجلس. ولكن هذه الأولوية لم تكن تعني أن دور النقابات قد انتهى. وما دام المجتمع مبنيا على مبدأ الملكية الخاصة، فإن الحركة العمالية ستستمر في المساومة مع موظفيها. وحتى في الدولة الاشتراكية، سيكون على النقابات أن تسيطر على التثقيف التقني لكل العمال في مهنة معينة أو عملية صناعية معينة.

ولكن، كان هنالك مصدر خطر حقيقي في محاولات النقابات لكبت المجالس أو للتخفيف من أثر وجودها. ومن أجل التطور الناجع للحركة البروليتارية، يجب تبيان الدور المحدد لمؤسسة. وأوصى غرامشي بالتعاون بين النقابة والمجلس "لخلق الشروط التي يمكن هجر الشرعية (هجوم الطبقة العاملة) أن يتم في اللحظة الأكثر ملائمة للطبقة العاملة"<sup>(88)</sup>.

### العلاقة بين الحزب ومجالس المصانع

كانت أفكار غرامشي حول العلاقة بين الحزب الاشتراكي ومجلس المصنع تقوم على أساس المقدمة نفسها التي استخدمها غرامشي في تحليله للنقابة، أي على أساس أن تطوير الحزب لكي يصبح جهازا ثوريا يواجه عقبة أصل نشوء الحزب في مجتمع رأسمالي، باعتبار كونه جهاز تنافس مع البورجوازية. وبالرغم من أن القيود التي تفرضها على الحزب طبيعة أصوله كانت مختلفة عن تلك التي عانت منها النقابة، فإن الاثنين تقاسما فشلا واحدا. فبمقدار ما كان الاثنان صيغتين من صيغ الليبرالية الديمقراطية، فإنهما سوف يتراجعا بانتهيار الرأسمالية، المعبر عنها سياسيا بالليبرالية الديمقراطية<sup>(89)</sup>.

هذا الخطر كان يتهدد الحزب أكثر من النقابة نظرا لأن انهيار الرأسمالية بعد الحرب سيؤدي إلى زوال النظام الاجتماعي والسياسي دون النظام الاقتصادي القائم على المصنع. وكان الحزب الاشتراكي، خلافا للنقابة، مؤسسة سياسية بحتة. وبالربط بين أزمة

الدولة الإيطالية بعد الحرب ومشهد حزب اشتراكي تحيط به الخلافات الداخلية، طرح غرامشي فكرة ذات قيمة نظرية كبرى تميز تاريخيته المتطرفة<sup>(90)</sup>. واستنادا إلى غرامشي، فإنه يمكن للحزب تجنب الأخطار المتعلقة بهذا الوضع من خلال تشجيع نمو حركة مجالس قوية، وهو ما سيجذب وجود الحزب في الحياة الاقتصادية للطبقة العاملة ويضعه أمام التحدي المستمر لكسب أكثرية صديقة داخل كل مجلس.

وكان الحزب، كـ"طليعة للبروليتارية"، مؤلفا -في رأي غرامشي- من أفراد الطبقة العاملة الأكثر وعيا طبقيا وانضباطا. وكان الحزب يقف فوق المصالح العابرة لتلك الطبقة وإلى جانب الصراع المباشر والطويل الأمد من أجل الاستيلاء على السلطة. وانضباطه المتفوق، ومعرفته بـ"قوانين" التطور التاريخي، وتحليله عن قرب للأحداث المعاصرة، ووعيه الحميم للأوضاع بين الجماهير العاملة، كان الحزب مؤهلا لرسم إستراتيجية وتكتيكات الصراع الطبقي<sup>(91)</sup>.

من ناحية أخرى، كان المجلس مكلفا بالتنقيف الاقتصادي والسياسي لكل الجمهور العامل، على أن يتم إنجاز ذلك من خلال السيطرة على الإنتاج. ففي النهاية، سوف تحل المجالس محل الدولة كجهاز حكم. ومع ذلك، فقد اعترف غرامشي باحتمال أن تقوم مجالس عديدة، ولفترة قصيرة، بدعم إيديولوجيات بروليتارية غير اشتراكية، وخصوصا منها النقابية والفوضوية. وهذا ما ينجم عن أن الديمقراطية غير المحددة للمجلس تعكس المصالح المؤقتة والرغبات الهائلة لدى الجماهير<sup>(92)</sup>.

هذه الفوارق كانت تميز الفكر الماركسي-اللينيني بشكل عام، ولكن غرامشي تابع لكي يربطها بتحليله للأخطار الكامنة في أصول الحزب. ووصف غرامشي الحزب بأنه مؤسسة "طوعية" أو "خاصة"، في حين أن المجلس جهاز "تمثيلي" أو "عام"<sup>(93)</sup>. وكان الحزب تنظيما "طوعيا" لأن العامل ينضم إليه عبر "عملية واضحة الوعي" أو -بلغة النظرية السياسية التقليدية- عبر "الموافقة العلنية". وكان باستطاعة العامل أن يسحب موافقته في أية لحظة، وذلك بإنكار "العقد" القائم بين نفسه والحزب. على العكس من ذلك، كان المجلس تنظيما "تمثيلا" لأنه جهاز للحكم، فعلي وكإمكانية. وتعكس بنية المجلس موقع أعضائه في عالم الإنتاج، وكل عامل يشارك فيه بفضل دوره في الإنتاج وليس عبر موافقته كفرد. وكان الحزب "قد ولد في حقل الحرية السياسية، وفي حقل الديمقراطية البورجوازية، كتأكيد وتطور للحرية والديمقراطية بشكل عام"، أما المجلس فوجد "في حقل الإنتاج الصناعي، داخل المصنع"، وما من ديمقراطية هناك، ومن مهمات المجلس إيجادها.

إن مشكلة كيفية عمل الحزب والمجلس في وضع ثوري تبقى قيد المناقشة<sup>(94)</sup>. لقد كان الحزب هو العامل الأهم في العملية الثورية. وبمقدار ما قبلت الجماهير تحليله للأحداث وتوقعاته للمستقبل، كان تقنت النظام القديم يزداد سرعة<sup>(95)</sup>. ومع ازدياد عدد الأعضاء الذين يتبعون توجيهات الحزب تزداد سيطرة هذا الأخير على الثورة. ولكن العملية الثورية ذاتها لم تكن لتوجد في ساحة الحرية والديمقراطية الليبرالية الملائمة للحزب، بل في العلاقات الاجتماعية داخل المصنع "حيث ليس للحرية وجود" و"حيث تكون العلاقات المضطهد بالمضطهد، علاقات المستغل بالمستغل".

ولن تكون للحزب سيطرة على سير الأحداث بين الجماهير إلا إذا منحته الجماهير ولاءها. ولكن التماثل الكامل بين الحزب والجماهير العاملة ليس ممكنا إلا بعد فترة طويلة من التنقيف. في هذا الوقت، يمكن للمجلس، الذي كان قادرا على تنظيم كل الطبقة العاملة، أن يحاول السيطرة على العملية الثورية. ولا يمكن للمجلس، بدوره، أن يسهل الثورة ويضبطها إلا بشرط أن تكون الثورة مستجيبة كليا لعمالها، أي ديمقراطية حقا. ولهذا السبب تم حث الحزب على عدم فرض آراءه ومعتقداته على المجالس خشية أن تفقد هذه صلتها مع المزاج السائد فعلا بين الجماهير. واستنادا إلى غرامشي، فإن الحركة الثورية الألمانية في عام 1919 فشلت لأن الاشتراكيين الديمقراطيين حاولوا أن يفرضوا على العمال مجالس يسيطر عليها رجالها، وبالتالي فإن الثورة "اهتزت ودجنت"<sup>(96)</sup>. في مثل هذه الحالة يمكن للحركة الثورية أن تستمر بالتأكيد، ولكنها بعدئذ خاضعة لأية سيطرة لأن المجلس، وهو الجسم الوحيد الذي يستجيب فورا لمزاج العمال، لن يكون ممثلا حقيقيا لرغباتهم.

وأخيرا، فإن نظرة غرامشي إلى العلاقة بين الحزب والمجالس كانت مماثلة تماما للنظرة الماركسية إلى العلاقة بين السياسة والاقتصاد: "لا يمكن لأي شكل من أشكال السلطة السياسية أن يفهم ويبرر تاريخيا إلا كهيكل حقوقي للسلطة الاقتصادية الفعلية"<sup>(97)</sup>. وإذا كان للحزب الاشتراكي أن يتسبب في الثورة في إيطاليا فإنه يجب تأمين القاعدة الاقتصادية للدولة الاشتراكية. وهذا بالتحديد ما كان المجلس يحاول أن يفعله بمساعدته العمال على تنقيف أنفسهم كمنتجين. فقط من خلال مثل هذه العملية يمكن للثورة أن تتحول من كونها مجرد عصيان ضد الدولة البورجوازية إلى إعادة بناء اشتراكي لإيطاليا. وبتشجيع التطور الحر للمجالس يمكن للحزب والنقابة أيضا أن يساعد على خلق الشروط الاقتصادية من أجل انتصار هذه المرحلة الثانية من الثورة:

"يجب على الحزب والنقابة أن لا يعتبرا نفسيهما أوصياء بنى فوقية جاهزة بالنسبة لهذه المؤسسة الجديدة [المجالس] التي تتخذ فيها العملية التاريخية للثورة صيغة تاريخية قابلة للضبط. بل على الحزب والنقابة أن يعتبرا نفسيهما عاملين واعييين يسهمان في تحرير الثورة من قوى القمع المتمركزة في الدولة البورجوازية. وعليهما أن ينظما الشروط العامة الخارجية (السياسية) التي يمكن من خلالها لعملية الثورة أن تطور سرعتها القصوى، والتي تجد القوى الإنتاجية المحررة من خلالها توسعها الأكبر"<sup>(98)</sup>.

وشدد غرامشي على واجبات الحزب والنقابة تجاه المجلس إلى درجة أن بدت كلماته أحيانا كثيرة وأنها توحى باعتقاده بإمكانية الثورة "العفوية" للطبقة العاملة من دون الإدارة السياسية للحزب ومن دون ضبطه للأمور. ولم يكن الحكم النظري لغرامشي على الأحزاب السياسية، كأحزاب سياسية، بهذه السلبية في الواقع. وعلى العموم، فإنه أصبح متزايد الإدراك لكون الحزب الاشتراكي الإيطالي يعاني من كثير جدا من النواقص مما لا يسمح له بتوجيه مسار الثورة بنجاح. وفي عام 1919 اعتقد غرامشي بأنه يمكن تجديد الحزب من القاعدة وذلك بإقامة المجالس، ولكن الأحداث الكارثية لعام 1920 أفضت على إعادة التنظيم الشاملة للحزب هي الوسيلة الوحيدة لضمان نجاح المجالس.

### غرامشي في مواجهة إدارة الحزب الاشتراكي الإيطالي حول مسألة مجالس المصانع

لم يكن غرامشي أبدا متحمسا للمديرين القصويين في الحزب الاشتراكي الإيطالي، ومع ذلك، فإن عداه لهم يتغلب على رغبته في المحافظة على وحدة الحزب إلا في أواخر عام 1919. ومنذئذ، أخذ الشقاق بين "النظام الجديد" والقصويين في الاتساع، مما ساهم أخيرا، وإلى حد كبير، في انشقاق الحزب الاشتراكي في ليفورنو، في كانون الثاني (يناير) 1921.

ومع "النظام الجديد" كانت الحركة العمالية التورينية ككل تتباعد بشكل متزايد عن القيادة الوطنية للحزب الاشتراكي. وكان هذا واضحا في وقت مبكر يعود إلى تشرين الأول (أكتوبر) 1918، عندما رصد عمال المدينة مبلغ 10000 ليرة إيطالية لأجل تأسيس طبعة بيبومنتية من صحيفة "أفانتي" يحرر الجزء الأكبر منها في تورينو<sup>(99)</sup>. وعارض ج.م. سيراتي، الزعيم القصوي ورئيس تحرير "أفانتي" في ميلانو، مثل هذه الخطوة على أساس أنها ستتميل إلى شق وحدة إدارة الصحيفة<sup>(100)</sup>. وكانت هذه الحادثة الأولى في سلسلة طويلة ومتزايدة العنف من الجدل بين سيراتي والحركة العمالية في تورينو.

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) 1919 أعلن سيراتي معارضته لإدخال غير المنظمين (نقابيا) في بنية مجالس المصانع. وفي 6 تشرين الثاني (نوفمبر) رفضت جمعية عمومية، ضمت العمال والتقنيين والموظفين في تورينو، موقف سيراتي، وذلك بعد خطاب ألقاه غرامشي ومناقشة حية جرت في الجمعية<sup>(101)</sup>. في الوقت نفسه، وللأسبب نفسه، قامت صحيفة "باتاليي سينداكلي" (معارك نقابية) الناطقة بلسان "الاتحاد العام للعمل"، هي أيضا، بمهاجمة حركة المجالس. ولكن غرامشي رفض النقد الذي وجهته الصحيفة ملاحظا أنه نظرا لأنها ناطقة باسم الإصلاحيين، فإن أي نقاش يجري بينها وبين "النظام الجديد" كان "يستحيل عضويا"<sup>(102)</sup>. وكان غرامشي يرى أن معارضة القصويين وحدها يجب أن تؤخذ جديا.

ومن قبيل المفارقة، أن رسالة مديح كان لينين قد أرسلها إلى سيراتي هي التي وفرت لغرامشي مادة هجومه الأول على الزعيم القصوي. وشكلت هذه الحادثة مثالا نادرا لتبني غرامشي موقفا ناقدا تجاه لينين. وكانت الرسالة قد كتبت في 29 تشرين الأول (أكتوبر) 1919، ونشرتها صحيفة "أفانتي" في إيطاليا للمرة الأولى يوم 6 كانون الأول (ديسمبر). وبعد تهنة سيراتي على الانتصار "الشيوعي" في مؤتمر بولونيا (مدينة في شمال إيطاليا) عبر لينين عن رضاه التام عن قرار الحزب الاشتراكي الإيطالي بالمشاركة في الانتخابات: "وسيكون لمثال الحزب الاشتراكي الإيطالي تأثير كبير على العالم بأسره". وحذر لينين من أن "الانتهازيين المكشوفين أو المموهين" داخل الحزب الاشتراكي الإيطالي قد يحاولون إلغاء قرار بولونيا، ولكنه قال أنه يشعر أن القيادة الاشتراكية الراهنة سوف تقوى بنتائج المؤتمر. وأخيرا، كان لينين مقتنعا بأن "العمل الممتاز للشيوعيين الإيطاليين يشكل ضمانا أكيدة لنجاحهم في أن يكسبوا للشيوعية كل البروليتاريا الصناعية والزراعية، وكذلك صغار الملاكين"<sup>(103)</sup>.

ولم يختلف غرامشي مع الأفكار السياسية والاقتراحات التي تضمنتها الرسالة، ولكنه شعر مديح لينين ل"الشيوعيين" الإيطاليين (أي للقصويين) كان مديحا لا يستحقونه، والواقع أنه "خلق حالة ليست سعيدة ولا مطمئنة". واستنادا إلى مبادئ لينين نفسها، فإن على الثوري "الماهر" أن يعرف عملية تطور الثورة، وأن لا يكون مجرد محرض. لقد اعترفت بروليتاريا العالم و"الأممية الثالثة" بأن هذه العملية تتميز الآن بظهور المجالس، ولكن الحزب الاشتراكي الإيطالي لم يفعل شيئا لدفع التطور الملموس للمجالس إلى الأمام. وبدلا من إعطاء القوة لنظام المجالس، ومن النضال للحصول على أكثرية شيوعية داخل هذه المجالس، حافظ الحزب الاشتراكي الإيطالي على "كوروبراتيفية نقاباته وفئوية الحزب"<sup>(104)</sup>. وإسنادا إلى غرامشي فإن كلمات لينين فيها كانت تدين سياسة القصويين. ولم يكن في نية مجموعة سيراتي شن هجوم شامل على الإصلاحيين، كما تمنى لينين أن يفعلوا<sup>(105)</sup>. وأيضاً، وكما ذكر سابقاً، فإن السياسات الراهنة للحزب الاشتراكي الإيطالي لم تكن محسوبة لتعمل على هدي نصيحة لينين بأن "تكسب للشيوعية كل... البروليتاريا الزراعية".

من الواضح أن خلاف غرامشي مع سيراتي كان عاما، وكان يقوم على فهم مختلف تماما للعملية الثورية. وكان سيراتي قد رأى هذه العملية على أنها "أساس عمل حفنة من "تقنيي" السياسة والدعاية والإدارات والنقابوية، الذين تتلخص مهمتهم في أن يجرفوا معهم كل الكتلة اللامبالية من العمال"<sup>(106)</sup>. ويستخدم البرتو كاراتشولو تعبير "البلانكوية" لوصف هذه النظرة "الارستقراطية" و"الفئوية" للحزب، نظرا لتشابهها مع نظرة اوغوست بلانكي، الثوري الفرنسي من القرن التاسع عشر. أما غرامشي فقد أظهر اشمزازا من هذا الفهم للحزب والثورة. واعتبر أن الحزب كان مجرد "وكيل" للثورة، في حين يجب أن يكون العمال أنفسهم تجسيد الثورة. وبالتالي، فإن غرامشي شدد على الجمع بين الديمقراطية الكاملة في المصانع وبرنامج التنقيف "الشيوعي"<sup>(107)</sup>. ولهذا، كان الشقاق بين غرامشي والقصويين أكثر بروزا حول مسألة مجالس المصانع.

واتفاقا مع مقررات مؤتمر بولونيا، وافق مجلس وطني للحزب الاشتراكي الإيطالي، عقد في فلورنس في كانون الثاني (يناير) 1920، على مشروع وضعه نيكولا بومباتشي لإقامة المجالس. وكان لهذه المجالس أن تكون "أجهزة فريدة للسلطة والإدارة العليا لتنظيم الإنتاج والتوزيع، وكذلك لضبط مجموعة العلاقات الاقتصادية والأخلاقية والسياسية التي تنجم عن ذلك"<sup>(108)</sup>. المعالجة القانونية البحتة في مشروع بومباتشي هي التي أثارت اشمزاز غرامشي. وشعر غرامشي أنه لا يمكن للمجالس أن تقام بمرسوم بيروقراطي، بل فقط بالتحريض الذي يؤدي بالعمال أنفسهم إلى تشكيل مثل هذه الأجسام. أما بومباتشي فقد تجاهل مسؤولية الحزب في مثل هذا التحريض. وعكس اومبرتو تيراشيني آراء غرامشي في المشروع عندما علق قائلا: "إذا كانت الموافقة على المشروع، التي قرئت في فلورنس، كافية لخلق دولة العمال، فإن التنفيذ سيكون حقا رخيصا جدا"<sup>(109)</sup>.

على العموم، لم يكن دعم مشروع بومباتشي -مهما كانت قيمته- بلا شروط بشكل من الأشكال، وحتى بين الامتناعيين والقصويين مثل بورديغا وسيراتي<sup>(110)</sup>. وقد اعترض سيراتي على إيجاد نظام للمجالس مستقل كليا عن النقابات، وسمى الذين يدعمون مثل هذا المشروع "هامبرغيين" لأن الفكرة نسبت في الأصل إلى النقابيين الثوريين في هامبرغ<sup>(111)</sup>. وكان سيراتي يقف على أرض أكثر صلابة عندما عبر عن خشيته من أن الحزب الاشتراكي الإيطالي كان يعامل مسألة مجالس العمال بالطريقة الثورية الزائفة نفسها التي عالج بها مشاكل أخرى كثيرة في هذه المرحلة. وعلق سيراتي قائلا بسخرية: "إن من يتكلم اليوم عن التأمل والدراسة لا يمكن إلا أن يكون إصلاحيا حقيرا. أما الثوري الأكبر فهو الذي يعد الجماهير بأنها تستطيع لمس السماء بأصبعها بمجرد أن يقف على رؤوس أصابع أرجلها". وبالرغم من أن غرامشي ربما كان متفقا مع هذا النقد، فإن سيراتي لم يعترض على روح مشروع بومباتشي فحسب، بل أيضا على مجالس العمال نفسها، إذ أنه أنهى المقالة بالتوصية بأن تقام مثل هذه الأجهزة في البداية، في محلة واحدة أو محافظة واحدة فقط، لأنه كان يشك بتوافقها مع الأوضاع الإيطالية<sup>(112)</sup>.

واعترض بورديغا أيضا على الفكرة التي تقول بأن مجالس العمال هي أجهزة ثورية<sup>(113)</sup>. وفي مناقشة ذكية، وإن كانت خادعة، أكد بورديغا أن فكرة المجالس، باعتبار هذه المجالس أدوات اقتصادية -تقنية للسيطرة على الإنتاج، كات فكرة إصلاحية بحتة: "والخطأ هو القول بأنه يمكن للبروليتاريا أن تعلق نفسها بكسب الأرض في العلاقات الاقتصادية في حين ما زالت الرأسمالية تمسك

بزم السلطة السياسية من خلال الدولة<sup>(114)</sup>. وبعد أشهر قليلة، أصر بورديغا على أنه "لا يمكن تحقيق السيطرة على الإنتاج إلا عندما تكون السلطة قد انتقلت إلى أيدي البروليتاريا"، وتابع متهما جماعة "النظام الجديد" بالمبالغة في التشديد على هذه المسألة، وربما لأن أوضاع الإنتاج المتقدمة في تورينو أدت بقيادة طبقتها العاملة إلى المبالغة في أهمية المصنع في الحياة الوطنية<sup>(115)</sup>. ولم يكن سيراتي، خلافا لبورديغا، راغبا في إجراء التغييرات الأساسية في طبيعة الحزب، التي كان غرامشي قد بدأ يعتبرها ضرورية لإقامة نظام فاعل للمجالس. ويمكن إعادة عداء غرامشي المكشوف لقيادة الحزب الاشتراكي الإيطالي إلى تاريخ الافتتاحية المعنونة: "لنجدد الحزب أولا"، والتي نشرت في "النظام الجديد" في كانون الثاني (يناير) 1920. وأعلن غرامشي أن الحزب الاشتراكي الإيطالي لم ينجح إلا في الجزء الأكثر ابتدائية من مهمته التاريخية، ألا وهو التحريض بين الجماهير وجذب هذه الجماهير إلى البرنامج الثوري. ولكن الحزب لم ينجح في مهمته الأكثر تقدما، وهي الاستيلاء على السلطة السياسية. وبدلا من ذلك، كان تسابق الأحداث يتجاوزها، ويفقد السيطرة حتى على مصيره نفسه:

"إن الشروط اللازمة والكافية للثورة البروليتارية قائمة، سواء على المستوى الدولي أم على المستوى الوطني. ولكن الحزب الاشتراكي غير جدير بنفسه ولا برسائله. إنه حزب من المحرضين والمنكرين والمتصلبين في المسائل التكتيكية العامة، وحزب من حواريات النظريات الابتدائية، لم ينجح في تنظيم وضبط الجماهير الكبيرة المتحركة"<sup>(116)</sup>. والتوضيح الرئيسي عند غرامشي لهذا العجز كان يكمن في استمرار وجود الإصلاحيين داخل الحزب. كان الإصلاحيون هم الذين "يخربون بشكل منتظم كل العمل الثوري"، وكانوا "حزبا داخل الحزب، والحزب الأقوى، لأنهم سادة المراكز المحركة لجسم الطبقة العاملة"<sup>(117)</sup>. وأشار غرامشي بمرارة إلى ما نجم عن ذلك من شلل للحزب الاشتراكي خلال الإضرابات الراهنة (كانون الثاني - يناير 1920) لعمال البريد والبرق وعمال السكك الحديدية. هذه الإضرابات انحدرت بالدولة إلى موقع قريب من الانهيار ودفعت البورجوازية، في الوقت نفسه، إلى الاقتراب أكثر من الهجوم على الطبقة العاملة. ومع ذلك، فإن العمال اقتقدوا الإدارة السياسية لهذه الحالة، وبدلا من حصولهم على هذه الإدارة تعرضوا إلى الدعاية الفوضوية المتطرفة. لذلك، يقول غرامشي، "يجب تجديد تشييط الحزب الاشتراكي إذا كان هذا الحزب غير راغب في الإطاحة به وسحقه نتيجة لتسابق الأحداث. ويجب تجديد نشاطه لأن هزيمته يمكنها أن تعني هزيمة الثورة"<sup>(118)</sup>.

في هذا الوقت، كان غرامشي قد كسب أكثرية فرع تورينو إلى جانب وجهة نظره. وكتب بنفسه "برنامج العمل" للجنة الانتخابية التابعة للفرع، وهو البرنامج الذي حدد معايير اختيار المسؤولين الجدد في الفرع. أساسا، كان البرنامج عبارة عن ورقة اتهام للحزب الاشتراكي الإيطالي لأنه سمح بتزايد مستمر للنفوذ الإصلاحية في أجهزته الإدارية، وهو وضع عكس الاضطراب والشكوك المتنامية في صفوف القسويين.

بالنسبة لغرامشي، كان الرد الوحيد على هذه المشكلة هو إعادة إقامة الاتصال بين الحزب والجماهير بإيجاد شبكة من مجالس العمال في كل أنحاء إيطاليا بأسرع ما يمكن. ونظرا لعدد المجالس الموجودة فعلا في تورينو، فإن فرع تورينو سيتحمل المسؤولية الأولى في شن الحملة<sup>(119)</sup>. ولمحاربة سيطرة الإصلاحيين داخل النقابات اقترح غرامشي "تشكيل جماعة شيوعية دائمة التنظيم" داخل كل نقابة. واستبقا للنزاعات مع الإدارة التي يترأسها سيراتي لصحيفة "أفانتى" قال غرامشي بأن تكون طبعة تورينو من الصحيفة مداراة "بما يتلاءم مع الاحتياجات المتنامية لإقليمنا"، أي بطريقة أكثر استقلالية<sup>(120)</sup>.

### تقييم حركة مجالس المصانع الغرامشية

في عام 1954 كتب أنجيلو تاسكا يقول أن مقالات غرامشي التي نشرت في "النظام الجديد" خلال عامي 1919-1920 "تشكل التعبير الأكثر أصالة وقوة عن الفكر الاشتراكي خلال السنوات الخمسين الأخيرة"<sup>(121)</sup>. من الأكيد أن في هذا القول شيء من المبالغة. وفي عامي 1919-1920 كان لأفكار اشتراكية ذات مغزى أن تصاغ من خلال علاقة وثيقة بالتطورات في روسيا، نظرا لأن الدولة الاشتراكية وجدت هناك فعلا. وأراد بعض الاشتراكيين القلائل، وحتى الأكثر تحريفيين، أن يفصلوا أنفسهم كلياً عن "التجربة" الروسية، وحتى دراسة عرضية لكتابات لينين ووثائق الكومنترن تكشف مصدر الكثير من فكر غرامشي.

ومع ذلك، فإن هذا الفكر نقي ومثير، وليس مجرد نسخة لما قيل قبلا في روسيا. وهناك الكثير من الأصالة في عمل غرامشي بالرغم من أن أصلاته أكثر محدودة من أصالة لينين. إن مفاهيم غرامشي لأصول الحزب والنقابات ولمهمات مجالس المصانع يتضمن بالتأكيد نظرات غير مألوفة، كما الأمر بالنسبة لموضوعاته حول الأدوار التاريخية للفوضوية وللديمقراطية المسيحية<sup>(122)</sup>. وحتى أسلوب غرامشي الأدبي، وهو أسلوب ذكي لاذع، يعود في أصوله الصدفية إلى دراسته السابقة للبهغلية وصيغتها المنطقية الباردة التي يتخللها نوع من الإلحاحية الكثيفة، هو أسلوب غاية في الشخصانية إلى درجة أنه يمكن تمييز أي عمل له فوراً.

ومثل لينين، والواقع أنه مثل التيار الرئيسي للاشتراكية الماركسية، لم يكن غرامشي حتمياً. كانت الماركسية بالنسبة إليه فلسفة تطبيق عملي، واعتقاد بأنه يمكن إنجاز هدف تحرير البروليتاريا من خلال النشاط السياسي الطوعي للبروليتاريا نفسها، أو بالأحرى عن طريق الجدلية المستمرة التقدم بين البروليتاريا وطلبتها ذات الوعي الطبقي. وخلافا لكل من القسويين والإصلاحيين، لم يعتقد غرامشي بأن من الضروري انتظار "نضوج الزمن" للوصول إلى الثورة. وفي رفضه للقبول سلباً بمحدوديات الوضع الإيطالي المعاصر، ومعالجته لبرنامج بناء للذهاب إلى أبعد من هذا الوضع، ميز غرامشي نفسه بين الاشتراكيين الإيطاليين لتلك المرحلة. بعد بضع سنوات، وعندما أصبح غرامشي وكل ما ناضل من أجله مهدداً بالإبادة من قبل الفاشية المنتصرة، قادته جهوده اليائسة لإعادة بناء حركة عمالية قوية إلى التامل في تجاربه التي عرفها خلال 1919-1920:

"علينا السعي إلى إعادة بناء جو مماثل لذلك الذي كان في عامي 1919-1920 بالوسائل المتوفرة لنا. في تلك الأيام، لم يكن يتم تنفيذ أي مشروع إلا بعد اختياره من خلال الواقع وحتى نكون قد تفحصنا بطرق عديدة آراء العمال. وبالتالي، فإن مشاريعنا كانت تحظى دوماً تقريباً بنجاح فوري وواسع، وكانت تبدو كترجمة لحاجة يتسع الشعور بها، وليس أبداً كتطبيق بارد لبرنامج فكري"<sup>(123)</sup>. وهناك بالتأكيد لحظات قليلة جدا في تاريخ الحركة العمالية - ليس في إيطاليا فقط - كان فيها السعي إلى رأي القاعدة بهذه القوة، ومقدرا حق قدره.

وكان غرامشي قد تفحص الأوضاع الإيطالية على ضوء طروحات لينين، واستقى منه الكثير من نظريته حول مجالس المصانع، ولكنه كيف عمله بحسب تجربته وبحسب الأوضاع المحددة في تورينو. ووجد غرامشي "جرثومة" السوفييت في اللجان الداخلية، كما عثر على إمكانية الوصول إلى سوفييتات كاملة النمو في التقاليد النضالية لبروليتاريا تورينو. وقد خصص لمسرح نشاطه، مدينة تورينو، دورا خاصا. وكان لجهود غرامشي الشخصية بعض الفضل في أن طورت هذه "المدينة البروليتارية بامتياز" طبقة عاملة كانت "متراسة ومنضبطة ومتميزة كما في مدن قليلة أخرى من العالم"<sup>(124)</sup>.

والدليل على هذا القول، وهو دليل أيضا على طاقة غرامشي الإبداعية، أن حركة مجالس المصانع في تورينو نجحت في أن تضم إليها أكثرية الرجال العاملين في المدينة. وكان هؤلاء العمال، استنادا إلى بييرو غوبيتي، "يتكلمون لغة هيغلية دونما وعي" تعكس نفوذ صياغات غرامشي للفكر اللينين على خلفيته التربوية والثقافية.

إن شعور غرامشي بالأزمة الشاملة هو ما أعطى أعماله هذه القوة والصراحة، وكاتن هو سبب وجود برنامجه كله في تلك السنوات. لقد نظر إلى الوضع في إيطاليا ما بعد الحرب كانهيار شامل لكل تقاليد الدولة الليبرالية الإيطالية. والطبقة العاملة وحدها لم تصب بأذى في هذا الانهيار. وعلى العموم، فإن مؤسساتها، كالحزب والنقابات، كانت مفسدة بأصولها في النظام الرأسمالي. وكان لا بد من تجديد حيويتها. وكانت للمؤسسة الجديدة التي هي مجلس المصنع، والمعبرة عن قيم طبقة حاكمة جديدة من المنتجين، أن تؤمن استقلالية البروليتاريا وبالتالي ديمومة حياتها.

ولم يميز غرامشي تمييزا تاما بين الدور الآتي لمجالس المصانع كأداة للنضال ضد البورجوازية، ودورها النهائي كوحدة قاعدية للدولة البروليتاريا الجديدة. وهذا ما جعل بإمكان بورديغا وآخرين أن ينتقدوا تشديد غرامشي على وظيفة المجالس في التنقيف التقني -الذي هو جزء من الدور النهائي- باعتباره مجرد طبعة أخرى من الإصلاحية التي تساعد -في النتيجة- الرأسماليين. ومع ذلك، فإن هذا التشديد انبثق مباشرة من رغبة غرامشي في إعداد العمال إعدادا كاملا من أجل هيمنتهم المقبلة على الطبقات الاجتماعية الأخرى. وليس ما يضمن هذه الهيمنة غير التفوق الشامل للعمال، اقتصاديا وتقنيا وسياسيا وثقافيا، على الطبقات الأخرى.

إن طبيعة تلك الأيام استتارت شعورا بالأزمة عند أناس كثيرين، ولكن استجابة أي كان في إيطاليا لهذا الشعور لم تكن باتقاد وحماسة استجابة غرامشي. كانت كل طاقات حركة "النظام الجديد" موجهة باتجاه إعادة رسم كاملة لخطوط ثقافة العمال كمنتجين، وذلك عن طريق المجالس. وكان هذا البرنامج فريدا في إيطاليا، وكذلك كانت المجالس المنبثقة عنه.

## 5- الحركة العمالية التورينية عام 1920

"إن تورينو اليوم.. هي المدينة الصناعية بامتياز، إنها مدينة البروليتاريا بامتياز. إن الطبقة العمالية التورينية متماسكة ومنضبطة ومتميزة كما هو الحال في مدن قليلة في العالم".

غرامشي -17 كانون الثاني (يناير) 1920

### الأوضاع السياسية في مطلع 1920

استمر التفسخ السياسي والاقتصادي للدولة الإيطالية بسرعة مذهلة في أواخر عام 1919 ومطلع عام 1920. وكان احتلال دانونزيو الناجح لفيومي في أيلول (سبتمبر) 1919 قد استتار مشاعر القوميين المتطرفين من الإيطاليين بدلا من تهديتها، وكانت هذه المشاعر ثائرة أصلا نتيجة للإهمال المزعم للمصالح الإيطالية في فرساي. وكذلك، فقد شجعت هذه المغامرة التحريض على العصيان داخل الجيش، وبالتالي فإنها أضعفت قوى القانون والنظام في البلاد. وأكثر من ذلك، فإن الأحزاب التقليدية للدولة الليبرالية الإيطالية لم تعد تتمتع بالأكثرية داخل مجلس النواب، وأصبح تشكيل حكومة مستقرة ومقبولة لدى كل الكتل البرلمانية ولا تواجه عداء المعارضة الموحد والناشط، مشكلة في غاية الصعوبة.

عدم الاستقرار السياسي هذا ترافق بمشكلات اقتصادية ذات مضمون سياسي كبير. فقد اجتاحت إيطاليا في عام 1920 تضخم متسارع، وازداد متوسط النفقات الأسبوعية لعائلة عادية في ميلانو من 109,24 ليرة في شهر تموز (يوليو) 1919 إلى 124,67 ليرة في كانون الثاني (يناير) 1920، ثم إلى 189,76 ليرة في كانون الأول (ديسمبر) 1920<sup>(1)</sup>. وكان هذا التضخم مدمرا للطبقات الوسطى المأجورة التي بقيت مداخيلها متخلفة كثيرا عن مستويات الأسعار المتزايدة الارتفاع، وهو ما ساهم في دفعها النهائي للانضمام إلى الفاشية. ولم يكن تصاعد الأسعار مرافقا لزيادة في ارتفاع الإنتاج وارتفاع مستويات الاستهلاك. على العكس من ذلك، فقد انخفض الإنتاج فعلا في العديد من الصناعات، وأصبحت البطالة واسعة الانتشار في عام 1920، وخصوصا في بدايته ونهايته<sup>(2)</sup>. ومن ناحيتهم، وجد العمال الصناعيون صعوبة كبيرة في المحافظة على قوتهم الشرائية في مستويات الأسعار هذه، بالرغم من الإضرابات العديدة التي جرت خلال هذه الفترة للمطالبة بزيادة الأجور.

والواقع أن الأشهر الأولى من سنة 1920 مثلت ذروة موجة الإضرابات التي عمت أوروبا بعد الحرب<sup>(3)</sup>. وكان لمعظم هذه الإضرابات أهداف اقتصادية أكثر منها سياسية، لكن الحوادث المحددة التي تسببت في هذه الإضرابات كثيرا ما كانت تافهة إلى درجة تبين بوضوح الإضراب الاجتماعي والاستياء السياسي اللذين كانا يكمنان خلفها بشكل مؤلم<sup>(4)</sup>. وبالتأكيد، لم تكن هذه الإضرابات منسقة بالمعنى السياسي، إذ كان عمال البريد والبرق قد أعلنوا إضرابهم يوم 21 كانون الثاني (يناير)، أي بعد يوم واحد من بدء عمال السكك الحديدية لإضرابهم. وكان الإضراب الوحيد الهام الذي كان له هدف سياسي هو الإضراب العام في نيسان (أبريل) في تورينو، وهو الإضراب الذي سيرد تحليل له في هذا الفصل.

وسرعان ما لوحظ التحفظ السياسي للمنظمات العمالية، وللقيادة الاشتراكيين بالتالي، لدى ممثلي الدولة والصناعيين. وفي خريف 1919 أعاد فرانثيسكو نيبي، رئيس الوزراء من حزيران (يونيو) 1919 وحتى تموز (يوليو) 1920، تنظيم أجهزة الشرطة التي



كانت سلطاتها شبه معدومة في الأشهر الأولى من تلك السنة. وأسس نيتي كذلك "الحرس الملكي"، الذي كان يضم 377 ضابطا و25 ألف رجل، وزاد عدد رجال "الكارابينيري" (الدرك) إلى 160 ألف رجل<sup>(5)</sup>. وكانت هذه القوات مسؤولة عن مقتل 100 عامل وفلاح بين تشرين الأول (أكتوبر) 1919 وأيار (مايو) 1920<sup>(6)</sup>. وأخضع العمال الاشتراكيون، وكذلك النواب الاشتراكيون، لعنف عصابات الطلبة والفاشيين والجماعات القومية الأخرى. وفي أوائل 1920 انبثقت معارضة الحركة الاشتراكية بقوة.

وردت الرأسمالية الإيطالية على الخطر الاشتراكي بإقامة "الاتحاد العام للصناعة" (المسمى اختصارا "كونفيندوستريا") في آذار (مارس) 1920<sup>(7)</sup>. وضم هذا الاتحاد كل الصناعات الكبيرة وثلاثة أرباع الصناعات المتوسطة والصغيرة، وبلغ مجموع عدد أعضائه 11 ألفا. وتبنى "الاتحاد العام للصناعة" برنامجا كاملا ومفصلا للعمل أبرز الطرق التكتيكية لمحاربة الإضرابات واقتراح إعادة الاعتبار سياسيا لجوفاني جوليتي<sup>(8)</sup>. وأطلع جينو أوليفتي، السكرتير القادر للمنظمة، زملائه على موضوع مجالس المصانع مؤكدا وجوب تدمير هذه المجالس<sup>(9)</sup>. وكانت الوحدة التنظيمية للرأسمالية الإيطالية كاملة في 18 آب (أغسطس) عندما أنشئ "الاتحاد العام للزراعة" على أساس مماثل للاتحاد العام للصناعة. وقال أوليفتي: "إن المستقبل ملك للطبقات المنظمة".

هذه الدلالات على المقاومة المستجدة للاشتراكية كانت جلية لغرامشي، بالرغم من أن القليل من القادة الآخرين للييسار الإيطالي فهموا ذلك، نتيجة لأن الحملة الانتخابية الاشتراكية كانت ناجحة، وكانت ستستمر كذلك خلال عام 1921. وفي أيار (مايو) 1920 تنبأ غرامشي صراحة بان الاشتراكية، وكذلك الرجعية المكشوفة، ستنتج الأحداث: "إن المرحلة الحالية من الصراع الطبقي في إيطاليا هي المرحلة التي تسبق سواء استيلاء البروليتاريا الثورية على السلطة السياسية... أو رجعية رهيبه يقودها الرأسماليون والطائفة الحاكمة، وسوف تستخدم كل أنواع العنف لإخضاع البروليتاريا الزراعية والصناعية"<sup>(10)</sup>.

### إضراب تورينو العام في نيسان (أبريل) 1920

التطورات المتضاربة خلال عام 1919 ومطلع عام 1920، مثل التقدم المتردد للاشتراكيين، وزيادة قوة الأجهزة القمعية كال"كارابينيري" و"الحرس الملكي"، والفوضى الاقتصادية، والإجراءات الرجعية البورجوازية، والنمو السريع لمجالس المصانع بالرغم من معارضة الحزب الاشتراكي الإيطالي، ساهمت كلها في خلق حادث ذي أهمية كبيرة جدا، هو إضراب بيمونتي العام في نيسان (أبريل) 1920. وأدى هذا الإضراب إلى كارثة شاملة بالنسبة لكل الاشتراكية الإيطالية، وبالتالي فإن من المهم استعادة تسلسل الأحداث التي أدت إلى الإضراب نفسه.

المرحلة الأولى من مراحل هذه الكارثة كثيرا ما سميت "إضراب عقارب الساعة". وكانت الاستفادة من نور النهار قد انتشرت بشكل واسع في إيطاليا خلال الحرب، وبقيت عموما قاعدة سارية بعد الحرب. وعلى العموم، فقد اعترض بعض العمال على الاستفادة من نور النهار باعتباره مثالا آخر على تطفل الدولة البورجوازية على شؤونها الحياتية. وكان اتهام العمال للدولة يقوم على أساس أن مكاسب شركات الكهرباء سوف تزداد من خلال هذا النظام، بالرغم من أن السبب في ذلك لم يكن واضحا. ورفض العديد من البلديات وغرف العمل الاشتراكية تبني نظام الاستفادة من نور النهار في ربيع 1920. ونسب إضراب تورينو في بدايته إلى أن عمال شركة "فيات" رفضوا قبول قرار الإدارة بتبني هذا النظام.

وتتحدث عدد المؤرخين -الذين يبدو أنهم اعتمدوا كلهم على رواية لويجي إيناودي -عن مقاومة نظام الاستفادة من نور النهار باعتباره كان واسع الانتشار بين العمال، حتى أن تاسكا أعلن أن الموضوع "كشّف عن الحالة الذهنية التي كانت سائدة في تلك الفترة في بعض المراكز الصناعية"<sup>(11)</sup>. ولكن ماريو مونتانيانا، الذي كان يومها واحدا من عمال شركة "فيات"، يصر على أن الحملة ضد "التوقيت القانوني" كانت قد جرت ببادرة عن "قليل من قدامى القسويين"، ولم يكن أي مضمون سياسي جدي<sup>(12)</sup>. وإذا كان الطرح الأول صحيحا، فإن هذا يعني أن تصلب العمال وقادتهم بشأن موضوع قليل الأهمية نسبيا هو الذي تسبب في الإضراب. وإذا كان قول مونتانا هو الصحيح، فإن هذا يعني أن الجسم الرئيسي للعمال وقادتهم لم يهتموا فعلا بمسألة "عقارب الساعة"، وأن السبب الحقيقي للإضراب كان مختلفا تماما. وبشكل عام، يبدو طرح مونتانيانا أكثر ترجيحا، لأنه يفسر بشكل أفضل المسار الفعلي لتطور الإضراب.

واستنادا إلى مونتانيانا، فقد بدأت الحادثة صباح يوم 29 آذار (مارس)، عندما تم تقديم الساعات في كل مصانع تورينو ساعة واحدة، في مصنع "الصناعات المعدنية" في تورينو، وهو مصنع تابع لشركة "فيات" قام عامل بإعادة الساعات ساعة واحدة إلى الوراء دون إذن من أحد. وعندما تعرف حراس المصنع إلى العامل صاحب الفعلة تم تسريحه فورا. وعندئذ طلب مجلس المصنع من العمال الاحتجاج بإضراب الجلوس في المكان، وردت الإدارة فورا على هذه بإغلاق المصنع. وأدى إغلاق مصنع "الصناعات المعدنية" إلى إضراب جلوس في المكان في كل مصانع "فيات"، وبعد يومين أعلن إغلاق كل مصانع "فيات"، في تورينو<sup>(13)</sup>.

وكانت تلك هي المرحلة الأولى من الإضراب نيسان (أبريل)، عندما كان الإضراب مقتصرًا على عمال المعادن في تورينو. وهناك بعض التناقض الهام بين هذه الرواية والأحداث التي رواها المؤرخون الذين استندوا إلى رواية إيناودي. واستنادا إلى هؤلاء، فإن مجلس المصنع نفسه هو الذي أدار عقارب الساعة إلى الوراء. وللبرهان على ذلك قيل أن الإدارة سرعان ما طردت مجلس المصنع في "الصناعات المعدنية"<sup>(14)</sup>. وعلى العموم، ونظرا للعداء العام الذي كان الصناعيون يشعرون به تجاه المجالس، فإن الطرد لا يشكل بحد ذاته برهانا على مشاركة مجلس المصنع في الحادثة. وأكثر من ذلك، فإن هذا الطرح يفترض أن المجلس كان تواقا إلى الجسم مع الإدارة، أو كان على الأقل راغبا في مواجهة مباشرة معها. ولكن الحقائق تناقض هذا الافتراض.

وقد لاحظ قادة الحركة العمالية في تورينو، وبقلق كبير، الاستعدادات المعقدة لصناعية المدينة لصدام تقريبي مع العمال. وبدأ هذا الهجوم المعاكس يوم 7 آذار (مارس) بالتقرير الذي قدمه جينو أوليفتي (وأعاد غرامشي نشره فيما بعد في "النظام الجديد" إلى "الاتحاد العام للصناعة" حول ضرورة سحق حركة مجالس المصانع. وبعد ذلك بوقت قصير أرسلت أعداد كبيرة من القوات إلى تورينو. ورأت صحيفة "إل جورنال ديتاليا" الصادرة في روما أن هذا الحادث من الأهمية بحيث يستوجب إرسال مندوب خاص للصحيفة إلى المدينة<sup>(15)</sup>. وهذا ما جعل غرامشي يعلن أن الصناعيين تمسكوا بحادث عقارب الساعة ك"أنف كليبوترا"، أي كحادث صدفى يمكنه أن يغير مسار التاريخ إذا ما استغل كما يجب<sup>(16)</sup>.

خلال المرحلة الأولى من الإضراب أظهر العمال وقادتهم ابتعادا عن الموقف المتصلب. وفي 9 نيسان (أبريل) صوت عمال المعادن بقبول اقتراحات الوساطة التي قدمها حاكم المدينة<sup>(17)</sup>. واستنادا إلى تاسكا، الذي يشاع تفسير إنياردي للحدث، أقرت الاقتراحات من قبل "الجمعية العمومية لمفوضي الأقسام". ومع ذلك، فإن فرص التوصل إلى تسوية مبكرة زالت تماما عندما اجتمع ممثلو العمال والصناعيين في 11 نيسان (أبريل). في ذلك الوقت طالب أصحاب المصانع بـ "توضيح" لدور مجالس المصانع<sup>(18)</sup>. والواقع أنهم أصروا على أن ليس لهذه الأجهزة سلطات تفوق السلطات التي كانت للجان الداخلية القديمة. وكانت الموافقة على هذا الطلب تعني التخلي كليا عن الصفة المميزة للحركة العمالية في تورينو. وكما لاحظ غرامشي، فإن "الطبقة العاملة في تورينو جرت جرا الصراع، ولم يكن لها في ذلك خيار".

عمليا، إن مغزى إضراب نيسان (أبريل) لا يكمن في أسبابه المباشرة بقدر ما يكمن في ما أصبح عليه بعد 11 نيسان (أبريل) كنزاع بين مبدئين لا يمكن التوفيق بينهما: السيطرة المطلقة لأرباب العمل على المصانع، وسيطرة الطبقة العاملة على الإنتاج كما يراها غرامشي ومؤيدون آخرون لمجالس المصانع. وفي صفاء التأمل اللاحق، أشاد غرامشي بالإضراب باعتباره أنها "المرحلة الأولى في التاريخ التي تخوض فيها البروليتاريا نضالا للسيطرة على الإنتاج دون أن يدفعها الجوع أو البطالة إلى ذلك"<sup>(20)</sup>.

في 13 نيسان (أبريل)، أعلنت "غرفة عمل تورينو" بالاشتراك مع "اتحاد موظفي وعمال المعادن" وفرع الحزب الاشتراكي، إضرابا عاملا دفاعا عن مجالس المصانع. وأدان البيان نوايا "عصابة الصناعة" الهادفة إلى تدمير اللجان الداخلية "التي أظهرت كونها... قادرة على أن تصبح أداة لإنجازات جديدة"<sup>(21)</sup>. بعد 15 نيسان (أبريل) أصبحت طبعة بييمونتي من "أفانتي" هي "النشرة اليومية للإضراب العام"، وأوقفت "النظام الجديد" صدورها مؤقتا. وأصبح الإضراب عاما، أولا في مدينة تورينو، ثم في المحافظة، وأخيرا في معظم أنحاء مقاطعة بييمونتي. وقال ريكاردو باكي:

"في انتشاره، كان (الإضراب) أكبر حركة تضامن يمكن للإنسان أن يتذكرها في إيطاليا. فقد أفلتت كل المصانع، ولم تستمر في العمل إلا أهم الخدمات العامة، وبتخفيض كبير. وأضرب كذلك حراس البلدية وموظفو الجمارك، وعمال حافلات الترام وعمال السكك الحديدية وعمال البريد والبرق"<sup>(22)</sup>.

وفي ذروته، كان الإضراب يشمل حوالي نصف مليون عامل صناعي وزراعي، وانعكس تأثيره على سكان يصل عددهم إلى أربعة ملايين<sup>(23)</sup>. ولقي الإضراب دعما كذلك من عمال السكك الحديدية في جنوة وبيزا فلورنس وليفورنو، الذين منعوا بنجاح تحرك قوات أخرى إلى تورينو<sup>(24)</sup>.

ومع ذلك، أصبح من الواضح في 19 نيسان (أبريل) أن الإضراب ما عاد يستطيع الاستمرار أكثر من ذلك. وفي 23 نيسان (أبريل) وافق الفرع الاشتراكي على كون المعركة انتهت، وقيل بشروط التسوية التي اقترحتها الحاكم تيديا. واعترفت النشرة الأخيرة الصادرة عن لجنة الإضراب أن العمال هزموا، وقالت: "نظرا للفشل في توسيع الحركة من أجل سيطرة العمال إلى كل أنحاء إيطاليا، فإن مفوضي الأقسام يعترفون بأن الصناعيين المدعومين بالقوات المسلحة وبالبورجوازية فرضوا إرادتهم مرة أخرى". ولم يكن لهذا الاعتراف بالهزيمة أن يمحي بالإعلان الختامي القائل: "إن المعركة من أجل الشيوعية، هذه المعركة الأولى وليست الأخيرة، تدل على أن المقاومة السلبية التي تقوم بها البروليتاريا، في اللحظة الراهنة هي مقاومة عقيمة... لقد انتهت هذه المعركة، ولكن الحرب مستمرة"<sup>(25)</sup>.

وكانت الحركة العمالية في تورينو قد هزمت، وبجدية تفوق كثيرا ما تدل عليه الشروط التي قبلت لإنهاء الإضراب، فقد تراجعت سيطرت مجالس المصانع على العمال، ولكن تلك الأجهزة استمرت في الوجود، ولم تتخذ أية إجراءات انتقامية ضد المضربين<sup>(26)</sup>. ومع ذلك، وإذا كان الأمر صحيحا كما يقول تولياتي- فإن هذا الإضراب العام كان "الحركة الأكثر إثارة في كل فترة ما بعد الحرب في إيطاليا"<sup>(27)</sup>، ثم كان فشل العمال في الدفاع عن مؤسساتهم هزيمة جدية. وكانت الأبعاد الكبيرة لتلك الحركة، عند مقارنتها بالنتائج السلبية، محبطة للعمال. ويعتبر مونتانيانا إضراب نيسان (أبريل) العام نقطة الذروة في الحركة العمالية في إيطاليا، ولن يكن احتلال المصانع في أيلول (سبتمبر) إلا نتيجة دراماتيكية للكارثة<sup>(28)</sup>.

وكان فشل العمل الكبير ناجما عن أسباب ثلاثة. أولا، إن الفعالية السياسية لأي إضراب، مهما كان شاملا، نادرا ما تكون كبيرة جدا. ثانيا، كان الصناعيون على استعداد وأجبروا العمال، بالفعل، على الانخراط في صراع شامل. ثالثا، كان الإضراب بأكمله تقريبا مقتصرًا على إقليم واحد في إيطاليا<sup>(29)</sup>. وأصر غرامشي على أن القيادة الوطنية للحزب الاشتراكي الإيطالي قد عزلت طوعا البييمونتي عن بقية الأمة برفضها لدعم الإضراب.

### الحزب الاشتراكي الإيطالي والإضراب العام

وفي أيام 19-12 نيسان (أبريل)، وفي عز الإضراب العام، اجتمع قادة الحزب الاشتراكي في كونفرس وطني. وكان قد خطط لعقد الكونفرس أولا في تورينو، ولكنه نقل فجأة إلى ميلانو، كما لاحظ غرامشي بسخرية، لأن "مدينة فيها إضراب عام ليست ملائمة للنقاشات الاشتراكية"<sup>(30)</sup>. وبالرغم من أن تولياتي أرسل لحضور الكونفرس كمثل لفرع تورينو، فإن نشرة واحدة لم تطبع لدعم الإضراب، ورفضت طبعة ميلانو من صحيفة "أفانتي" حتى نشر بيان الإضراب الصادر عن فرع تورينو<sup>(31)</sup>. وكانت المعارضة لجماعة تورينو شاملة، ورفضت أكثرية المندوبين التصريح بتوسيع الإضراب إلى خارج حدود بييمونتي<sup>(32)</sup>.

وكانت قد سبقت هذا الرفض مناقشة غير مركزية للخط السياسي العام للحزب ونقاش آخر حول إمكانية إقامة مجالس العمال، كما لو أن هذا لم يقرر في بولونيا وفلورنس. ولم يتردد العديد من أهم قادة الحزب في مهاجمة برنامج المجالس بأكمله. وقال بورديغا، بالرغم من كونه في أقصى اليسار، أن السوفييتات لا يمكنها أن تقوم "كصيغة مناسبة للدولة البروليتارية المنتصرة" إلا بعد الانتصار التاريخي السياحي<sup>(33)</sup>. وأصر المتحدثون الأكثر اعتدالا، مثل فينشينزو فاشيركا على أن السوفييتات قد تخترق من قبل العناصر الغوغائية، وحث لاتزاري الحزب الاشتراكي على أن يفعل حسنا "بتذكر التقاليد الشائعة للشعب الإيطالي وتعاطف العمال مع المؤسسات التي أقامتها الحزب حتى الآن"، بدلا من إتباع فكرة "غير عملية" مثل فكرة السوفييتات<sup>(34)</sup>.

صحيح أنه تمت الموافقة على مشروع لإنشاء المجالس، مرة أخرى، بأكثرية كبيرة، ولكن، عندما كان قادة الحزب يثرون حول المشاريع النظرية في ميلانو، كانوا يسمعون بتدمير الواقع الحقيقي (للمجالس) في تورينو. "وقرروا كيفية تنظيم المكاسب التي لم تنجز بعد، وتركوها لبروليتاريا تورينو تواجه مصيرها"<sup>(35)</sup>.

وفي 29 نيسان (أبريل) حاول سيراتي لرد على هذا النقد:

"إننا لسنا ملزمون بقبول دخول المعركة في كل مرة يشعر فيها العدو بأنه قوي ومستعد، فيثير المعركة. ويبدو أن قادة تورينو مختلف تماما. فبعد أن رأوا أنفسهم هدفا للهجوم تخلوا عن دفاعهم بدلا من تفادي الضربة. وعندما أخضعوا لضغوط كبيرة سارعوا في اللحظة الأخيرة إلى البحث حولهم عن مساعدة أولئك الأقل قوة واستعدادا منهم، بعد إطلاق ما يكفي من التصريحات الاستفزازية لجعل العدو يعتقد بأن عملهم لن يقل عن بدء الثورة في تورينو التي أصبحت الآن جاهزة للشيوعية. وهكذا، بينما كانوا يفاوضون في دار الحاكمية مع كازاليني وفرولا وبوتوزي أعطوا الانطباع في كل مكان آخر بأن الانتفاضة كانت في مطال اليد، بحيث يمكنهم أن يتفلقوا فيما بعد الكاهل القادر لقيادة بالمسؤولية عن هزيمة لم تطلها بناتنا"<sup>(36)</sup>.

وربما كان سيراتي على حق في اتهام لهجة الاستفزازية لاشتراكيي تورينو، ولكنه كان مخطئا في الافتراض بأنه كان باستطاعتهم "تفادي الضربة" التي وجهها الصناعيون.

وفي الرد على سيراتي كانت طبعة تورينو من صحيفة "أفانتي"، في البداية، غير راغبة في الاعتراف بخطورة الهزيمة، فقالت: "إبت للإضراب العام في تورينو مغزى كبيرا في تاريخ البروليتاريا الأممية، إذ لم يسبق لطبقة عاملة أن واجهت مشكلة السيطرة [على الصناعة] إلا عندما قادتها إلى ذلك آلام الجوع"... الخ<sup>(37)</sup>. وكانت الهزيمة حقيقية على العموم، وقد اعترف غرامشي بها في تقريره عن حركة تورينو الذي أرسل إلى اللجنة التنفيذية للكونغرس في تموز (يوليو) 1920. وقد رأى غرامشي أن السبب الرئيسي للهزيمة، كما ذكر سابقا، هو العزل الطوعي لبروليتاريا تورينو عن بقية إيطاليا بإرادة الأجهزة المركزية للحزب "التي لم تفعل شيئا لمساعدتها".

عمليا، أصبحت المعركة بين سيراتي وجماعة "النظام الجديد" معركة بين شيوعيي تورينو وقصويي ميلانو. وكان سيراتي يرى في الاستيلاء على السلطة تنويجا للارتقاء العام للجماهير، في حين إن غرامشي اعتقد أن الجماهير لا يمكنها أن ترتقي إلا بامتلاك السلطة<sup>(38)</sup>. وكان هذا التضارب يحتوي على الاختلاف الرئيسي بين الأميين الثانية والثالثة.

مباشرة قبل انعقاد الكونغرس الوطني للحزب الاشتراكي، كان غرامشي قد كتب إحدى أهم افتتاحياته في تلك الفترة، وكانت بعنوان "من أجل تجديد الحزب الاشتراكي"<sup>(39)</sup>. وكانت هذه الافتتاحية قد قدمت كتقرير إلى الكونغرس في ميلانو بعد أن حصلت على موافقة بالإجماع من فرع الحزب الاشتراكي في تورينو<sup>(40)</sup>. وانتقدت المقالة الحزب الاشتراكي الإيطالي لما فيه من نواقص سياسية وتنظيمية في وضع إيطالي عام لا يمكنه أن ينتهي إلا إلى الثورة أو "الرجعية الرهيبة". وهاجم غرامشي أجهزة إدارة الحزب الاشتراكي قائلا: "إنهم لا يفقهون شيئا مطلقا عن مرحلة التطور التاريخي الوطني والأممي التي تمر في المرحلة الحالية". وقد بقي الحزب الاشتراكي، بالرغم من قرارات مؤتمر بولونيا، "مجرد حزب برلماني يجمد نفسه داخل الحدود الضيقة للديمقراطية البورجوازية"<sup>(41)</sup>.

ولام غرامشي كذلك الإصلاحيين في صفوف الحزب عن عدم كفاءته، لأن القصويين سمحوا ببقائهم:

"لم تفعل الأجهزة المركزية للحزب شيئا لمنح الجماهير تثقيفا سياسيا بالمعنى الشيوعي، ولا لدفع الجماهير إلى إزاحة الإصلاحيين والانتهازيين من إدارة النقابات والمؤسسات التعاونية... وهكذا، بينما كانت الأكتورية الثورية للحزب عاجزة عن التعبير عن أفكارها ورغباتها داخل الإدارة والصحيفة، كانت العناصر الانتهازية منظمة تنظيما قويا وتستغل هيبة ونفوذ الحزب لتدعيم مواقفها في البرلمان وداخل النقابات. وقد سمحت إدارة الحزب لهؤلاء بالتمركز وبالتصويت على قرارات تخالف مبادئ وتكتيكات الأممية الثالثة"<sup>(42)</sup>.

وكانت إحدى النواقص الأخرى في الحزب الاشتراكي الإيطالي، تتعلق مباشرة بقوة الإصلاحيين داخله، وترتبط بالانعزال عن نشاطات الأممية الثالثة، التي كانت قد عقدت فعلا اجتماعين اثنين في أوروبا الغربية. وبدون أي مبرر، لم يكن الحزب الإيطالي ممثلا في هذين الاجتماعين. وقال غرامشي في افتتاحية "أفانتي" أفردت مساحة أكبر للفكر الإصلاحي مما أفردت للخط السياسي للأممية الثالثة، واستمرت صحافة الحزب في نشر أدبيات تمثل مواقف الأممية الثانية متجاهلة التعابير الهامة للأممية الثالثة، مثل مقالة لينين "الدولة والثورة".

وكان رد غرامشي على هذه المشكلة هو أن على الحزب أن يصبح "متجانسا ومتماسكا، له مذهبه وتكتيكاته ونظامه الصلب والعنيد، ويجب إبعاد الثوريين غير الشيوعيين عن الحزب"<sup>(43)</sup>. وفي تلك الفترة كان غرامشي مقتنعا أن حتى مجالس المصانع لا يمكنها أن تقوم بدون وجود مثل هذا الحزب. ولهذا، فإنه اقترح، وباسم الفرع الاشتراكي التوريني، اجتماعا يعقد بين جماعات من رفاق يحملون أفكارا مشابهة وموجودين في كافة الفروع بهدف التحضير لمؤتمر يسعى إلى تخليص الحزب من كل أعضائه غير الشيوعيين. تقرر غرامشي الذي حمله تولياتي إلى ميلانو لم يكذب يجلب انتباه أحد في مقر قيادة الحزب. ولكنه، على العموم، قرئ في موسكو<sup>(44)</sup>، وامتدحه لينين في المؤتمر الثاني لل"كومنترن"، في حين استنكر غياب مندوب عن تنظيم تورينو.

### المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية

شكلت "المسألة الإيطالية" موضوعا رئيسا جرى حوله النقاش في كل مؤتمرات الأممية الثالثة من عام 1920 وحتى 1924. وكانت كل أجنحة الاشتراكية الإيطالية قد أعلنت انضواءها تحت لواء ال"كومنترن" في مؤتمر بولونيا. علي العموم، فإنه بانعقاد المؤتمر الثاني (موسكو، تموز/يوليو-أب/أغسطس 1920) لم يكن مرحبا بالإصلاحيين في موسكو، وهكذا فإن ممثلهم في انوفد الإيطالي (داراغونا ونوفري وكولومبيو) لم يقوموا بأية محاولة مباشرة للتأثير على المؤتمر. وكانت بقية الوفد الضخم تضم: سيراتي وبورديجا وبومباتشي وانطونيو غراتسيادي ولويجي بولانو.

وكان لينين، خلال ربيع 1920، قد دعم سيراتي (الذي كان يومها يمثل أكثرية الحزب الاشتراكي الإيطالي) أملا في جذب على موقع شيوعي أكثر جدية<sup>(45)</sup>. وكان لينين قد تابع الوضع في إيطاليا باهتمام لأنه "يمثل سمات ثورية واضحة" ولأن الحزب

الاشتراكي الايطالي كان كا الحزب الاشتراكي الوحيد المنضم بكامله إلى الأومية الثالثة. وكانت المهمة الرئيسية للمؤتمر الثاني، استنادا إلى لينين، هي توضيح "شروط الانضمام إلى الأومية الثالثة"<sup>(46)</sup>. وبالنسبة للحزب الايطالي، كانت هذه الشروط تشمل إزالة اتجاهين متنازعين: الاتجاه الامتاعي انتخابيا والاتجاه الاصلاحى.

وكان بورديغا، زعيم الجناح الامتاعي، قد أصبح أيا في عام 1920 الزعيم المعترف به لمختلف الجماعات "الشيوعية" في الحزب الاشتراكي الايطالي من خلال وكالة صحيفته الأسبوعية "السوفييت"، التي كانت مكرسة كليا لتنظيم الجناح "الشيوعي". ومع ذلك، فقد كان لينين غاية في الانزعاج من العناصر المتطرفة في موقف بورديغا. وكان بورديغا يخشى أن تؤدي المشاركة في البرلمان إلى إفساد النواب الشيوعيين بقيم "الاشتراكية الديمقراطية". وحتى قبل المؤتمر الثاني، كان لينين قد حذر بورديغا من أن الامتناع لم تكن أكثر من مجرد طريقة رخيصة لتجنب "المشكلة الصعبة التي هي مشكلة محاربة تأثيرات الاشتراكية الديمقراطية داخل الطبقة العاملة"<sup>(47)</sup>. وخلال المؤتمر نفسه، أبرز لينين أنه لا يمكن الإطاحة بالبرلمان، في معظم البلدان، إلا من خلال العمل من داخله لكشف واقع حقيقته وأنه، في الوقت الراهن، "ساحة للصراع الطبقي"<sup>(48)</sup>. وبالرغم من أن بورديغا صوت ضد مشروع قرار بوخارين الذي يؤكد الحاجة إلى العمل المستمر داخل البرلمان، فإنه وافق على وقف معارضته لمثل هذا العمل في المستقبل<sup>(49)</sup>. وكانت مشكلة القضاء على الاصلاحية في أحزاب الأومية مشكلة أصعب. وكانت هذه واحدة من الأغراض الرئيسية للائحة الشهيرة ذات "الإحدى وعشرين نقطة" لشروط الانضمام إلى الأومية. وكانت المواد 7 و 16 و 17 و 21 توضح روحية المؤتمر، وهي تطبيق بشكل خاص على الحزب الايطالي:

"7- إن الأحزاب الراجية في الانضمام إلى الأومية الشيوعية ستكون مجبرة على الاعتراف بالحاجة إلى التخلي الكامل والمطلق عن الاصلاحية وعن سياسة "الوسط" ... وتطالب الأومية الشيوعية بأن تتم هذه القطيعة، بلا قد أو شرط، بأسرع ما يمكن. إن الأومية الشيوعية لا تستطيع أن توافق على أن يكون لانتهازيين معروفين، مثل توراتي وموديليانى وكاوتسكي وهيلفردينغ وهيلكويث ولونغيه وماكدونالد.. الخ، الحق في الظهور كأعضاء في الأومية الشيوعية. ولا يمكن لهذا إلا أن يؤدي بالأومية الشيوعية إلى أن تصبح، في مظاهر عدة، شبيهة بالأومية الثانية التي تفتتت.

"16- كل قرارات مؤتمر الأومية الشيوعية، وكذلك قرارات لجنتها التنفيذية، تلزم كل الأطراف المنتمة إلى الأومية الشيوعية. والأومية الشيوعية، التي تعمل في ظروف الحرب الأهلية الصعبة، يجب أن تصبح أكثر مركزية بكثير مما كانت عليه الأومية الثانية. ولا بد من توجيه انتباه الأومية الشيوعية ولجنتها التنفيذية في كل نشاطاتها إلى الشروط المختلفة التي على الأحزاب المفردة أن تحارب في ظلها، وعليها اتخاذ القرارات ذات الصلاحية العمومية فقط عندما تكون مثل هذه القرارات ممكنة.

"17- وبالعلاقة بهذا، فإن على كل الأحزاب التي ترغب في الانضمام إلى الأومية الشيوعية أن تغير أسمائها. وعلى كل حزب يرغب في الانضمام إلى الأومية الشيوعية أن يسمى حزبا شيوعيا لهذا البلد أو ذاك (فرع الأومية الشيوعية).

"21- أعضاء الحزب الذين يرفضون الشروط والطروحات الموضوعة مسبقا من قبل الأومية الشيوعية، لا بد وأن يطردوا من الحزب"<sup>(50)</sup>.

ومع ذلك، فقد دافع سيراتي عن توراتي في المؤتمر، وقال: "إذا كان توراتي مفيدا لنا فلنحافظ عليه، وإن كان يشكل خطرا علينا فلنعمل على إزاحته. ليست لي أية مشاعر شخصية ضد أحد"<sup>(51)</sup>. ورد لينين على هذا بجفاف: "ليست المسألة مسألة عواطف، رجاء". وكان لينين مدركا لتردد سيراتي، وقد لاحظ في خطابه الرئيسي أمام المؤتمر أنه:

"فيما يتعلق بالحزب الاشتراكي الايطالي، يرى المؤتمر الثاني للأومية الشيوعية أن الانتقاد الموجه إلى الحزب والاقترحات العملية المقدمة إلى المجلس الوطني للحزب الاشتراكي الايطالي باسم فرع الحزب في تورينو، والتي صيغت في عدد "النظام الجديد" الصادر في 8 أيار (مايو) 1920، والتي تتجاوب كليا مع كل المبادئ الأساسية للأومية الثالثة، هي صحيحة في الأساس. ولهذا، فإن المؤتمر الثاني للأومية الثالثة يطلب من الحزب الاشتراكي الايطالي أن يدعو إلى عقد مؤتمر خاص للحزب لمناقشة هذه الاقتراحات، وكذلك لمناقشة كل القرارات المتخذة في مؤتمري الأومية الشيوعية، بغرض تصحيح خط الحزب وتطهيره وتطهير كتلته البرلمانية من العناصر غير الشيوعية"<sup>(52)</sup>.

وهكذا أعلن لينين دعمه الصريح للشيوعية التورينية فضلا إياها على القسوية الميلانية. وفي 30 تموز (يوليو) وفي خطابه عن "شروط الانضمام إلى الأومية الشيوعية" الذي كان يشكل بشكل رئيسي هجوما على سيراتي، كان لينين أكثر صراحة، إذ قال: "إن علينا أن نخبر رفاقنا الايطاليين، بصراحة، أن الاتجاه في منحى الأومية الشيوعية يتوافق مع الاتجاه في منحى "النظام الجديد"، وليس في منحى الأكثرية الحالية للقادة الاشتراكيين وكتلتهم البرلمانية"<sup>(53)</sup>.

وكانت الوثيقة التي امتدحها لينين هي تقرير غرامشي إلى المجلس الوطني للحزب الاشتراكي الايطالي، المعنونة "من أجل تجديد الحزب الاشتراكي"، والتي ذكرت سابقا في هذا الفصل. وكان أعضاء إدارة الحزب الاشتراكي الايطالي قد اختاروا تجاهل التقرير، حتى وجه انتباههم إليه بالقوة في موسكو. "ولكن بعد أن قرأه الرفاق في اللجنة التنفيذية للأومية الثالثة في موسكو، صار يحكم الحزب الاشتراكي الايطالي على أساس هذا التقرير"<sup>(54)</sup>.

وقد دهش لينين لما استثار دعمه لجماعة "النظام الجديد" من عداية لدى الوفد الايطالي كله، بما في ذلك شيوعي بورديغا. ولاحظ بورديغا نفسه في عداية في وقت لاحق أن "أحدا من المندوبين الايطاليين لم يقبل طرح (لينين)". وفي الواقع، وبعد أن أعلن المندوبون الايطاليون، واحدا بعد الآخر، عدم موافقتهم على "النظام الجديد"، أعلن لينين وبوخارين رسميا -استنادا إلى بورديغا أيضا- "أنها لم يقصدا إصدار حكم بشأن توجه "النظام الجديد" الذي ليست لديهما معلومات كافية عنه". ومع ذلك، فإنهما أصرا على أن المقالة المحددة موضوع البحث تمثل موقفا سياسيا يوافقان عليه"<sup>(55)</sup>.

بالرغم من هذه النزاعات، وعد سيراتي -الذي كان قد انتخب عضوا في اللجنة التنفيذية للأومية- بالدعوة إلى عقد مؤتمر استثنائي للحزب الاشتراكي الايطالي للموافقة على النقاط الإحدى والعشرين وطرد الاصلاحيين. على العموم، بعد ذلك الوعد لم يتم عمل شيء إلا القليل لأن سيراتي نفسه كان متذبذبا. وفي خريف 1920 كان واضحا أنه لن يطرد الاصلاحيين.

## خلاف داخل حركة "النظام الجديد"

كان لجماعة "النظام الجديد" تمثيل ضئيل في الأجهزة الوطنية للحزب الاشتراكي الإيطالي. وكانت هنالك أسباب عديدة لهذا النقص. وربما كان أحد هذه الأسباب يعود إلى تحفظ غرامشي المبالغ به في طلب مكان داخل إدارة الحزب. "كانت الجدية الفكرية والاشتمزاز من أي نوع من الغوغائية تترافق عند غرامشي بتواضع شخصي كبير، مما منعه عن استلام القيادة مباشرة كما كان عليه أن يفعل"<sup>(56)</sup>.

وهناك خطأ أكثر جدية ساهم هو أيضا في ضعف حركة تورينو: "لم تواجه حركة "النظام الجديد" بشكل مكشوف مشكلة إنشاء جناح وطني (على مستوى إيطاليا كلها) في الحزب الاشتراكي"<sup>(57)</sup>. وكما يقول تولياتي، فإن جماعة النظام الجديد خلقت حركة جماهيرية واسعة في تورينو، ولكنها كانت مقتصرة على الاتصالات الشخصية وغير المنظمة في بقية أنحاء البلاد. بالمقابل، كان الاصلاحيون يسيطرون على "الاتحاد العام للعمل"، والنقابات العمالية، والتعاونيات والكثير من الحكومات المحلية (البلديات) والكتلة البرلمانية. وكان القصويون يسيطرون على الأجهزة المركزية للحزب وعلى صحيفته اليومية. وكان للامتناعيين شبكة وطنية من الجماعات الجناحية ودعم كبير داخل "اتحاد الشباب الاشتراكي". والواقع أن الفرع الاشتراكي في تورينو نفسها كثيرا ما كان يقع تحت سيطرة الأكثرية الامتناعية<sup>(58)</sup>. ومن هنا، فإن جماعة الامتناعيين الموجودة فعلا كانت هي القوة التي تقوم بالتنسيق بين الأجنحة الشيوعية في الحزب الاشتراكي خلال الأشهر الأخيرة من عام 1920. وفي ظلام كانون الثاني (يناير) 1924 حلل غرامشي أسباب فشل جماعته:

"بشكل أساسي نحن ندفع اليوم ثمن الأخطاء الجدية التي ارتكبتها في سنتي 1919-1920. وخوفا من أن يعتقد الآخرون أننا متعطين إلى السلطة وامتهان الوجود في موقعها لم نحاول إيجاد جناح محدد يمكن تنظيمه في كل أنحاء إيطاليا. ولم تكن نريد إعطاء مجالس مصانع تورينو جماعة إدارية مستقلة كان يمكن أن يكون لها تأثير كبير على البلاد، لأننا كنا نخشى الانشقاق داخل النقابات والطرده المبكر من الحزب الاشتراكي"<sup>(59)</sup>.

وكانت يدا غرامشي مغلولتان تجاه الامتناعيين، اعترف بضرورة دعمهم للإطاحة بالاصلاحيين من الحزب. والواقع أنه لم يهاجم الامتناعيين أبدا بشكل مكشوف بالرغم من أن بورديغا وجد، في المؤتمر الثاني للأمية، أن من الملائم مهاجمة جماعة "النظام الجديد"<sup>(60)</sup>. وصحيح أن غرامشي انتقد أحيانا عناصر الصفائية أو الفتوية في موقف الامتناعيين<sup>(61)</sup>. والواقع أنه خلال المؤتمر الوطني ل"الشبيوعيين الامتناعيين" الذي عقد في فلورنس يومي 8-9 أيار (مايو)، أعلن غرامشي بصراحة، وكان يحضر بصفة مراقب، أنه لا يعتقد بإمكانية إقامة حزب سياسي على أساس مبدأ الامتناع الضيق. كانت الاتصالات الواسعة مع الجماهير ضرورية، وهو ما لا يمكن إنجازه إلا بصيغ جديدة من التنظيم<sup>(62)</sup>. على العموم، فإن غرامشي لم يكن يقصد بهذه الأقوال تهديم الثقة بقيادة جماعة بورديغا.

وأخيرا، فإن السبب الأكثر أهمية لافتقار "النظام الجديد" إلى قوة سياسية وطنية كان غياب الوحدة عن صفوف أفراد الجماعة أنفسهم، وهو ما اتخذ أشكالا عديدة مختلفة. قبل كل شيء، كانت هناك عودة إلى الخلافات القديمة بين غرامشي وتاسكا حول العلاقة بين النقابات والمجالس. وفي 30 أيار (مايو) ألقى تاسكا كلمة أمام مؤتمر لغرفة عمل تورينو حول "القيم السياسية والنقابية لمجالس المصانع"<sup>(63)</sup>. وكما رأينا، كان غرامشي يعتقد أنه يجب على المجالس أن تبقى مستقلة عن النقابات، وحتى عن الحزب، الذي عليه أن يكسب المجالس من داخلها وليس يفرض نفسه عليها ميكانيكيا. على العموم، كان تاسكا يعتقد أن الظروف السياسية لا تسمح بتنظيم مجالس مستقلة كليا، مما سيؤدي حتما إلى صدام مع الحزب ومع "غرفة العمل" والنقابات والدولة. ولهذا كان من الضروري إخضاع حركة المجالس إلى النقابات و"غرف العمل"<sup>(64)</sup>. ولقي خطاب تاسكا موافقة ملحوظة غي "غرفة عمل" تورينو، نظرا لأن الكثير من النقابات الممثلة في الغرفة كانت ما زالت تدار من قبل الإصلاحيين المعادين لمفهوم غرامشي للمجالس.

ورد غرامشي بافتتاحية غاضبة انقض فيها على تاسكا: فتاسكا لم يقتصر على التبرؤ من مفهوم "النظام الجديد" للمجالس بل إنه فشل قبل كل شيء في فهمه، وقد ارتكب أخطاء حقيقية عديدة، معطبا أسبابا خطأ للتغييرات التي جرت أخيرا في السوفييتات الروسية ومعلومات خطأ عن وضع "نظام" المجالس، وقد خربت مداخلته البرنامج التثقيفي الذي كلف جماعة "النظام الجديد" سنة من الجهود المكثفة<sup>(65)</sup>. واستنادا إلى تاسكا فإن هجوم غرامشي كان من الحدة بحيث دفع أحد الرفاق الروس إلى الكتابة إلى صحيفة "النظام الجديد" مستنكرا القطيعة، خصوصا وأن مؤتمرا حزبيا جديدا كان سيعقد قريبا<sup>(66)</sup>.

كانت آخر لجنة تنفيذية لفرع تورينو قد انتخبت في شباط (فبراير). وكانت هذه اللجنة مؤلفة من عناصر "شبيوعية" مختلفة في الفرع، وتضم بين أعضائها غرامشي وتولياتي وعددا من الامتناعيين (بويرو وبارودي هما الأكثر شهرة بينهم). وبالرغم من أن اللجنة التنفيذية كلها وافقت على برنامج يشدد على إقامة علاقات أوثق بين الفرع والجماهير العاملة في تورينو، فإن جهودها بددت في نزاعات دائمة حول الأمور الثقافية، كالاتحاد الانتخابي، والمسؤولية عن هزيمة الإضراب العام في نيسان (أبريل)، والعلاقات بين الحزب والنقابات والمجالس. وكان الخلاف بين تاسكا وغرامشي يشكل جزءا من هذه الحالة. وتسبب الاشتراكيون الأكثر اعتدالا بمزيد من الفوضى بدعمهم للجناح الشبيوعي المؤيد للاشتراك في الانتخابات الوطنية<sup>(67)</sup>. ونظرا لهذه الفوضى المؤدية إلى الشلل والاقتراب موعد الانتخابات البلدية، رأت اللجنة التنفيذية نفسها مدعوة إلى الاستقالة في 10 تموز (يوليو).

ودعا تولياتي، بين آخرين، إلى مناقشة شاملة لكل المشاكل في الفرع. وكان على كل جناح أن يضع برنامجا واضحا بحيث يستطيع أن يختار مجموعة متجانسة لتشكل اللجنة التنفيذية التالية. وظهرت في النقاشات ثلاث مجموعات: "الانتخابيون القصويون" (وسموا أحيانا "الانتخابيون الشبيوعيون")، و"الامتناعيون الشبيوعيون"، و"مجموعة الثقافة الشبيوعية". وضمت المجموعة الأولى تولياتي وتيراشيني وتاسكا، ووقفت إلى جانب معارضة قوية للنفوذ المتزايد للفوضويين والنقابويين في الحركة العمالية التورينية. وأيدت هذه المجموعة المشاركة في الانتخابات، وكذلك تطهير الفرع من "الإصلاحيين والانتهازيين". وكان "الامتناعيون الشبيوعيون" يعارضون طبعاً النشاط الانتخابي، ولكن أملهم كان ضئيلا أيضا في أن ينجح "الانتخابيون" في تطهير الحزب.

المجموعة الثالثة كانت بقيادة غرامشي مدعوما من قبل باتيسستا سانتيا وأندريا فيليونغو وبعض الآخرين، وقد رفضت هذه المجموعة أن تقدم لائحة مرشحين لها كما أحجمت عن التصويت لأية مجموعة أخرى. واعترض غرامشي على تنظيم الأجنحة على أساس "عناصر تكتيكية ثانوية تماما" (الانتخابية مقابل الامتناعية). بالنسبة لغرامشي، كان هذا يعني أنه لا يمكن توقع شيء من القادة غير "تأمر فئوي مماثل للأحقاد والنزاعات التي مزقت الحزب خلال الحرب". والموضوع بأسره إنما يدل على ضعف مستوى التثقيف السياسي حتى بين أعضاء الحزب، وكان لا بد من العثور على النضال الحقيقي "في ساحة العمل الجماهيري: من أجل الجماعات

الشيوعية في المصانع والنقابات، ومن أجل مجالس العمال، ومن أجل وحدة البروليتاريا المهددة بتقلبات القادة الاشتراكيين وقادة النقابات". وكان غرامشي يأمل بتوحيد كل العناصر "الشيوعية" في الفرع بإنهاء الخلافات حول المشاكل التكتيكية والتركيز على "المسائل الأساسية للطبقة العاملة والثورة الشيوعية".

ولكن آراء غرامشي ومواقفه المطروحة في برنامج جناحه لم تكن على العموم، في نواح هامة منها، بالحياد الذي تبذره عليه. فرفضه الانضمام إلى الآخرين من جماعة "النظام الجديد" شكل بحد ذاته خطوة باتجاه الامتناعيين. ولا شك أنه كان يفكر بتاسكا عندما أشار في إعلان برنامج إلى بعض الأشخاص "غير المسؤولين" والذين "ربطوا أنفسهم بالمصالح القائمة للنقابات والتعاونيات" والذين "يعملون في صالات البيرة أو أماكن تأمر النقابات" أكثر مما يعملون بين الجماهير. وأيد الانتخايبون تطهير الفرع ولكنهم قيدوا هذا التطهير إلى درجة أن أصبح بلا معنى، فقد شعر هؤلاء أن الحزب لم يكن مستعدا لانشقاق فوري أو لعمليات طرد عديدة. على العكس من ذلك، وقف غرامشي إلى جانب الامتناعيين في رغبته لإنهاء التسويات التساومية مع الإصلاحيين.

في 24 تموز (يوليو) صوتت العناصر القسومية والإصلاحية في الفرع للائحة الانتخابيين التي كسبت بسهولة. في ذلك الوقت، انتخب تولياتي سكرتيرا لفرع تورينو، وهو منصب حافظ عليه حتى مؤتمر ليفرنو. ومنذ تلك اللحظة، اعتقد غرامشي، والامتناعيون كذلك، أن الحزب الاشتراكي الإيطالي القديم أصبح ميتا بالفعل وأن جثته لا تستحق كبير اهتمام. وتوج غرامشي هذا الموقف في افتتاحيته المعنونة "الحزب الشيوعي"، التي كتبت خلال شهري أيلول (سبتمبر) وتشرين الأول (أكتوبر)، والتي وصفت الحزب الجديد بكونه "ينطلق من رماد الأحزاب الاشتراكية"<sup>(68)</sup>. ولأم غرامشي قادة الحزب الاشتراكي الإيطالي على "الخطأ التاريخي العملاق الذي ارتكبه بظنهم أن باستطاعتهم إنقاذ البنية القديمة للحزب من التحليل من داخلها". وبالنسبة إلى غرامشي فقد أصبح الحزب الاشتراكي الإيطالي "لا يختلف بتاتا عن حزب العمال الانكليزي... تجمعا لأحزاب مختلفة"<sup>(69)</sup>.

في سنتي 1923-1924، وفي بداية صراعه مع بورديغا على قيادة الحزب الشيوعي الإيطالي، أشار غرامشي إلى هذه الحالة السياسية التي كانت سائدة في تموز (يوليو) 1920. ونعرف من الرسائل المرسلّة إلى تولياتي وإلى سكوتشيمارو أن غرامشي قصد بتصرفه في عام 1920 أن يكون بمثابة خطوة باتجاه الامتناعيين<sup>(70)</sup>، وكتب غرامشي إلى تولياتي أنه "لم يكن يرغب في دخول جناحه الشيوعي (جناح تولياتي)، بل أصر على اتفاق أكبر مع الامتناعيين"<sup>(71)</sup>. وبعد بضعة أشهر أوضح غرامشي لسكوتشيمارو أنه فصل نفسه في آب (أغسطس) 1920 عن تولياتي وتيراشيني. "يومها كنت أنا الذي رغب في المحافظة على العلاقات مع اليسار وليس مع اليمين، في حين لحق بالمي وأومبرتو بتاسكا، الذي كان قد انفصل عنا منذ كانون الثاني (يناير)"<sup>(72)</sup>.

### احتلال المصانع

في ذلك الوقت بقيت الأوضاع السياسية في تورينو أكثر توترا حتى مما كانت عليه قبل الإضراب العام في نيسان (أبريل). وكان عمال عديدون قد قتلوا خلال احتفال أول أيار (مايو)، وبعد ذلك أصبحت الصراعات بين العمال ورجال الشرطة أو الجيش أكثر ترددا ودموية<sup>(73)</sup>. ومع ذلك، فإن المعركة الكبيرة الثانية للعمال الإيطاليين في فترة ما بعد الحرب لم تبدأ في تورينو بل في ميلانو. في حزيران (يونيو) 1920 قدم مديرو "اتحاد موظفي وعمال المعادن" إلى الصناعيين مذكرة تطالب بإجراء بعض التعديلات في عقود العمل وبزيادات ملحوظة في الأجور. وبالرغم من أن العقود السائدة كانت وقعت في أيلول (سبتمبر) 1919، فإن التضخم كان كبيرا إلى درجة أن مكاسب العمال كانت قد تبددت نهائيا. وأدت هذه الحالة بالتنظيمات العمالية وجماعات سياسية أخرى (كالكاتوليكيين والفضويين والجمهوريين) إلى تقديم طلبات مشابهة<sup>(74)</sup>.

وفي 15 تموز (يوليو) افتتحت المفاوضات. وطلب "اتحاد موظفي وعمال المعادن" زيادات كبيرة في الأجور بالنظر للارتفاع الكبير في كلفة المعيشة، وبالنظر أيضا لتنازلات مشابهة قدمتها أخيرا صناعات أقل تخصصا بكثير من الصناعات المعدنية. وردت "الجمعية الصناعية للمعادن والميكانيك وتوابعها" (AMMA) بأن الأجور كانت متكافئة بالفعل مع كلفة المعيشة، كما هو مثبت في النشرات الإحصائية الصادرة في ميلانو، وهي مدينة ذات إدارة اشتراكية<sup>(75)</sup>. وأكثر من ذلك، فإن الشروط في الصناعات الأخرى ليست ذات علاقة نظرا لأن الصناعات المعدنية تمر بفترة كساد.

خلال جلستي المساومة التاليتين (29 تموز/يوليو و10 آب/أغسطس) دعم "اتحاد موظفي وعمال المعادن" مقولاته بتقديم تحليل للأوضاع في كل فرع من فروع الصناعة وتقرير عن الوضع الحقيقي للأجور بين عمال المعادن. ثم طالب الاتحاد بأن يتابع الصناعيون مناقشة المذكرة الأساسية والطلبات المفردة الواردة فيها. وعلى هذا الطلب ردت "الجمعية الصناعية للمعادن والميكانيك وتوابعها" بالرفض القاطع، على أساس الزعم بوجود أزمة صناعية ومنافسة أجنبية وضرائب عالية. وتوقفت المفاوضات.

وكان مديرو "اتحاد موظفي وعمال المعادن" يصرون على تجنب الإضراب، الذي كان الصناعيون يكادون يرحبون به نظرا لحالة الكساد في النشاط الاقتصادي في ذلك الوقت. وفي يومي 16 و17 آب (أغسطس) قدمت خطة بديلة للعمل إلى مؤتمر طارئ عقده "اتحاد موظفي وعمال المعادن"، ودعت هذه الخطة البديلة إلى "إضراب أبيض" أو إضراب تباطؤ في العمل، على أن يتم هذا الإضراب مع الالتزام الدقيق بالأنظمة والقواعد الموضوعة لكل عمل صناعي. فكان أن رد أرباب العمل بإغلاق المصانع، واحتل العمال المصانع فوراً. ووافق المؤتمر بالإجماع على هذه الخطة وبدأ التباطؤ في 21 آب (أغسطس). وكان تبرير "اتحاد موظفي وعمال المعادن" للجوء إلى التباطؤ قد وضع بشكل صريح وواضح:

"إن المقصود بالتباطؤ هو إيذاء الصناعيين، نظرا لأن تكاليفهم العامة لن تتغير عندما يهبط الإنتاج. أما العمال من ناحيتهم، فبالرغم من أن مكاسبهم ستتخفض بسبب انخفاض الإنتاج، فإنهم سيتابعون تقاضي أجور كافية لتمكنهم من متابعة النضال لأمد"<sup>(76)</sup>.

في البداية، أهمل الصناعيون هذه "الإعاقعة" على أساس أنها لا تشكل بديلا فعلا للإضراب. ولكن، خلال أيام شعر الصناعيون بقلق شديد نتيجة للهبوط الكبير في الإنتاج، والذي لم يعد يتجاوز 60 بالمائة من مستواه السابق في بعض المصانع<sup>(77)</sup>. وأعلن الصناعيون عندها أن العمال انغمسوا في عملية تخريب، وأن حياة بعض موظفيهم أصبحت مهددة. وفي 30 آب (أغسطس) ادعى مديرو مصنع (الفاروميو) في ميلانو "وجودا مفاجئا بين الموظفين لعناصر استفزاز خارجية"، وأعلنوا إغلاق المصنع<sup>(78)</sup>. ورد العمال فوراً باحتلال مصنع "الفاروميو" واحتلال ما لا يقل عن 280 مصنعا آخر في منطقة ميلانو، كوسيلة للتعبير عن الاحتجاج. وأعلن "اتحاد موظفي وعمال المعادن" أن:

"أحدا لا يجب أن يغادر المصانع، وعلى الجميع أن يبقوا هناك بغرض الاستمرار في العمل حتى ينهي إغلاق كافة المصانع المغلقة. إن لدى الصناعيين القوات المسلحة لتدافع عنهم. لنثبت أن قوتنا أكبر، إنها قوة العمل والإيمان بقضيتنا. ابقوا في أماكنكم، ولا تمسوا الآلات، وابقوا على إيمانكم بالمعركة"<sup>(79)</sup>.

وهكذا، فإن احتلال المصانع لم يبدأ كحركة ثورية، بل كان، على العكس من ذلك، محاولة يائسة قام بها قادة "اتحاد موظفي وعامل المصانع" للثور على وسيلة للاحتجاج أقل كلفة من الإضراب. بل إن بيانهم أعلن أيضا أن العمال سيغادرون المصانع بمجرد أن توافق الإدارة على عدم اللجوء إلى إغلاق المصانع كسلاح. وفي الواقع فإن قادة "اتحاد موظفي وعامل المعادن" الذي كان معظمهم من الإصلاحيين، ربما ما كانوا ليتخذوا خطوة راديكالية كاحتلال المصانع لو لم يكونوا يتوقعون تدخلا حكوميا سريعا، وهو ما كان سيؤدي إلى تسوية سريعة للمسائل الاقتصادية التي أثارها النقابات في الأساس<sup>(80)</sup>. ثم إن الإصلاحيين شعروا أيضا بالحاجة إلى أن يظهر أكثر يسارا مما هم في الواقع. وكان هذا نتيجة لضغط القواعد داخل الحزب الاشتراكي الإيطالي ولقرارات وطروحات ال"كومنترن". وكما قال دارغونا، من "الاتحاد العام للعمل"، فإن "المعتدلين كانوا يعودون إلى الخط خشية عزلهم"<sup>(81)</sup>.

في الأول من أيلول (سبتمبر) تم احتلال مصانع المعادن في تورينو، وبعد وقت قصير تم احتلال كل الصناعات الثقيلة تقريبا في كل أنحاء إيطاليا<sup>(82)</sup>. وكان مثل هذا الانتشار للحركة ضروريا لتفادي انهيار الجهد الأساسي. ولابد من التذكير بأن الاحتلال لم يكن إضراب جلوس بل محاولة للإبقاء على المصانع قيد العمل، بأصحابها أو بدونهم. ولهذا السبب، كانت المصانع تحتاج إلى مواد أولية وإلى قطع لم يكن يستطيع تقديمها إلا مؤسسات صناعية أخرى. وكان من الطبيعي أن يتردد الصناعيون الآخرون في تزويد المصانع المحتلة بهذه المواد، وبالتالي فقد اضطر "اتحاد موظفي وعامل المعادن" إلى توسيع الغرض من التحرك. ونظرا لأن صناعة المعادن تضم شركات غاية في التعقيد، مثل صناعة السيارات، فقد تم احتلال حتى مصانع الصناعات الخفيفة، كصناعة النسيج مثلا.

وبالرغم من أن هذه الحركة التي كانت مميزة لم تبدأ في تورينو، فلا شك في أن عمال المدينة شاركوا فيها بحماسة أكبر من حماسة العمال في أي مكان آخر<sup>(83)</sup>. وخلافا للوضع أثناء إضراب نيسان (أبريل) العام تبد تورينو مرة أخرى معزولة عن بقية الحركة العمالية الإيطالية، وهي نقطة شدد عليها كثيرا المحررون المحليون لصحيفة "افانتي":

"لقد وضعت مسألة سيطرة العمال اليوم في مستواها الوطني بالنسبة لكل الصناعات. واليوم، بعد خمسة أشهر من هزيمة بروليتاريا تورينو، لم تعد سيطرة العمال تبدو جنونا للمتطرفين في عين أي كان، ولا حتى في أعين الصناعيين. وكان عمال تورينو على حق في نيسان (أبريل) 1920. كان عمال تورينو يقفون على عتبة التاريخ، أي على عتبة الثورة العالمية"<sup>(84)</sup>.

وربما اعتقد العديد من قادة تورينو، وكذلك قسم كبير من القواعد فيها، أن الاحتلال بحد ذاته هو الاستيلاء على السلطة<sup>(85)</sup>. وأحد أكثر المراقبين "البورجوازيين" ذكاء في تورينو، وهو بيبرو غوبيتي، تأثر بقوة بالطابع "الثوري" للاحتلال:

"إنني أتابع بتعاطف جهود العمال الذين يبنون حقا نظاما جديدا. ولا أشعر في نفسي القوة للحاق بهم في عملهم، ليس الآن على الأقل. ولكن يبدو لي... أن أكبر معارك القرن قد بدأت. وعندئذ سيكون مكاني إلى جانب الجهة التي تمتلك روح التضحية وتكريس الذات أكثر من غيرها. اليوم تتقدم الثورة بكل طابعها الديني. من المؤكد أن اللحظة صعبة حتى بالنسبة للعمال. وعلى الأقل في تورينو، نجح العمال حتى الآن في تصفية المنظمين والقادة القدامى، التجريديين وغير الشرفاء في ممارساتهم، وهم يسبرون إلى الأمام بقوتهم الذاتية... إن الحركة عفوية وهدفها غير الأهداف المادية. هذه محاولة حقيقية ومناسبة لا لتحقيق الجماعية بل لتحقيق تنظيم عمالي يكون العمال فيه، أو الأفضل من بينهم على الأقل، في المكان الذي يحتله الصناعيون اليوم... إننا أمام حقيقة بطولية"<sup>(86)</sup>.

استنادا إلى البعض، لم يكن غرامشي متفائلا حول احتمالات الثورة. ومع ذلك، ليس هناك في كتاباته ما يؤيد الشك في صحة الحركة<sup>(87)</sup>. على العكس من ذلك، فإن احتلال المصانع كان يعني أن قادة النقابات، بالرغم من إصلاحيتهم ومعاداتهم للبلشفية كانوا مجبرين، بمنطق الأحداث، "على الاستمرار في النضال في ميدان جديد، وإن كان العنف ليس ضرورة فورية فيه، فإن دراسة وتنظيم العنف أصبحت أمرا ذا ضرورة فورية"<sup>(88)</sup>. وهذا التطور الجديد كان مساويا لانتصار مجالس المصانع على النقابات:

"في الوقت نفسه خلقت حالة جديدة ناجمة عن طريقة جديدة في النضال. فعندما كان العمال يقاتلون لتحسين وضعهم الاقتصادي بوسائل الإضراب، كانت مهمتهم في النضال محصورة في الإيمان بقادتهم البعيدين، وكانت مقصورة على تنمية وتطوير فضائل التضامن والمقاومة المبنية أساسا على الإيمان العمومي. أما إذا احتل العمال المصانع ورغبوا في الاستمرار بالإنتاج، فإن الحالة المعنوية للعمال تتخذ فورا شكلا مختلفا وقيمة مختلفة. ولا يكون باستطاعة قادة النقابات أن يستلموا الإدارة عندئذ، بل يخفون في ضخامة حجم الصورة، وعلى الجماهير أن تحل بنفسها، وبوسائلها، وبرجالها، مشاكل المصانع"<sup>(89)</sup>.

وظهر أن "حل مشاكل المصانع" هو، في النهاية، أمر غاية في الصعوبة لأن المصانع المحتلة أخليت من كل مهندسيها تقريبا. في البداية، بدأ الصناعيون أقل نجاحا في الإبقاء على التقنيين خارج المنشآت. وفي الواقع، فإن "الجمعية العامة لتقنيي الصناعات المعدنية وتوابعها" أدانت هذه المحاولة التي قام بها الصناعيون باعتبارها "مناورة تنوي أساسا جعل التقنيين يخرجون عن خطهم الحيادي لينخرطوا ويرموا بأنفسهم في القتال ضد العمال". وفي انفجار حماسي أعلنت الجمعية أيضا أن أعضائها ينوون الاستمرار في العمل وأن لمجرد ضمان "المحافظة على وسائل الإنتاج"، خصوصا وأن الصناعيين كانوا يبديون في الظاهر غير مبالين أبدا بمصير الآلات والتجهيزات في المصانع المحتلة<sup>(90)</sup>. وهذه الملاحظات تبين عمق القوة المعنوية للحركة العمالية التورينية التي أثرت بواسطتها حتى على العناصر غير البروليتاريا بين السكان. على العموم، في النهاية انسحب معظم التقنيين وتركوا العمال لأنفسهم<sup>(91)</sup>.

وكانت هناك مشاكل تقنية أخرى، مثل الصعوبات في الحصول على المواد الخام، وتصريف المنتجات المصنوعة، واستحالة الحصول على قروض، جعلت من المستحيل على مجالس المصانع مواجهة دفع أجور العمال. وقد حلت المشكلة جزئيا باتفاق جرى بين الاتحادات العمالية في المحافظات وتعاونيات العمال، وبموجبه قدمت التعاونيات نسبة معينة من الأجور. وكذلك جرى الاستعداد لتأمين دفعات إضافية تقدم على أساس العمل الفعلي المشغول، بعد تسوية نتائج الحركة. في الوقت نفسه، صرفت للعمال سندات ورقية على شكل 10 ليرات ز 20 ليرة إيطالية، ولكنهم كانوا لا يستطيعون مبادلتها بالسلع<sup>(92)</sup>.

وكانت الإدارة الفعلية للمنشآت الصناعية قد أصبحت في أيدي مجالس المصانع. وفي تورينو، حقق جوفاني بارودي لحظة مجد بإدارته الذكية والمتلزمة لمجمع "فيات" الصناعي. وكان مونتانيانا سانتيا بين القادة العديدين الآخرين الذين سرعان ما أصبح

معظمهم أعضاء في الحزب الشيوعي الإيطالي<sup>(93)</sup>. ونظرا لأنه كان يستحيل على العمال مغادرة المصانع فقد كان لا بد من المحافظة على الحد الأقصى للانضباط. ولهذا فقد منع استخدام المشروبات الكحولية. ورفضت عقوبات قاسية جدا على السرقة. للأسف، لم يكن العمال يستطيعون تكريس كل ساعات عملهم للإنتاج الصناعي، والواقع أن سياسة التباطؤ استمرت طوعا خلال الأيام الأولى القليلة في معظم المصانع. وكان يفترض أن قوات الشرطة قد تهجم المصانع (كانت تورينو مثلا مطوقة بالقوات خلال كل فترة الاحتلال). لهذا فإن بعض العمال راح يصنع أسلحة من أنواع مختلفة. وجدند آخرون في "الحرس الأحمر" الذي نظم أولا لحماية المصانع من الهجمات، واستخدم فيما بعد للمحافظة على النظام بين أولئك الذين بدأت حماسهم وتزول.

ونجحت المجالس لفترة من الزمن في منح العمال مستويات عالية من الانضباط والجدية. وهذه الصفات تبدو واضحة في الوصف التالي لزيارة قام بها غرامشي ومونتانيانا إلى منشأة "فيات-لينغوتو" خلال الاحتلال.

"عندما كنا نتحدث بهدوء، مع ممثلي مجلس المصنع بدأت صفارات الإنذار تطلق أصواتها. وكان هذا دليل إنذار. وكان شباب "الحرس الأحمر" في مصنع "فيات-لينغوتو"، الذين قضوا الليل يجوبون المصنع على دراجاتهم، قد لاحظوا أن بعض الدوريات القوية للجند والحرس الملكي كانت تقترب من مختلف الاتجاهات في وقت واحد. وكان لا بد من الاستعداد لهجوم محتمل.

"وفي جزء من الثانية.. توقفت الآلات. وأسرع العمال إلى أسلحتهم، وهم ما زالوا بثياب العمل، وجوههم ملطخة بالزيت والغبار. وكان بعضهم يحمل المسدسات، ويحمل البعض الآخر القنابل اليدوية أو البنادق، بينما لم يكن في أيدي آخرين غير القضبان الحديدية التي شكلوها وجعلوها حادة بأنفسهم. وكان الجميع على استعداد للدفاع عن منشاتهم، وإن كانت الحياة هي الثمن...

"بعد بضع دقائق، توقفت صفارات الإنذار. وانتهى الإنذار بالخطر، فوضع العمال أسلحتهم جانبا وعادوا إلى آلتهم وكان شيئا لم يحصل، دون إضاعة أي وقت في الثرثرة التافهة. فهذا الحادث البسيط يجب ألا يتدخل في الإنتاج"<sup>(94)</sup>.

مثل هذا الانضباط وهذه الحماسة كان لهما حسابهما في أية نجاحات حققها العمال خلال الاحتلال. ففي مصنع "فيات-المركز" كان الإنتاج يصل إلى ما معدله 37 سيارة يوميا، بدلا من 67 أو 68 سيارة كانت تنتج في الأوقات الطبيعية<sup>(95)</sup>. وفي مصنع الأعمال الميكانيكية في سافيليانو (بين كونيو وتورينو) زاد الإنتاج عن معدله الطبيعي<sup>(96)</sup>. وأنتجت مصانع أخرى في منطقة تورينو بطريقة مؤثرة، مما جعل طبعة بيمونتي من صحيفة "افانتي" تؤكد، يوم 21 أيلول (سبتمبر) 1920، أن العمل في تورينو "كان يجري في كل المصانع. وكان العمل ضئيلا في الأيام الأولى، وكثيرا في الأيام التالية. وفي بعض الورشات تم تجاوز معدل الإنتاج المعتاد"<sup>(97)</sup>. ومع ذلك، كان الكل يعرفون أن الانتصار النهائي لم يكن يعتمد على معدل الإنتاج. وبعد أن مرت الفورة الأولى للحماسة بدأت مجالس المصانع تفهم أن مشكلة الاحتلال يجب أن تحل في الساحة السياسية. فإما أن يستلم العمال السلطة أو يموت الاحتلال موتا طبيعيا.

### جوفاني جوليتي وهزيمة الاحتلال

بالرغم من أن قادة "اتحاد موظفي وعمال المعادن" كانوا قد توقعوا تدخل حكوميا فوريا، فإن حكومة جوليتي الجديدة، بعد محاولة أولية للمصالحة، وفتت بعيدا عن الصراع. ولاحظ أوتورو لايريولا، وزير العمل، والنقابي سابقا، أن حكومته حاولت الحفاظ على الحياد، وأن التدخل سيساعد الصناعيين في الواقع<sup>(98)</sup>. عمليا، كان جوليتي واثقا من أن التدخل لم يكن حلا حكيمًا، حتى بالنسبة لأصحاب الصناعة. وكان جوليتي قد استقبل في الأيام الأولى لاحتلال المصانع وفدا من الصناعيين، وكان أحدهم أكثر غضبا من بقية أعضاء الوفد، فطلب من جوليتي أن يقصف العمال المتصلبين بالمدفعية. وبابتسامته الدمثة والساخرة، رد جوليتي قائلا: "أقسم لي بأن أبدأ القصف في مصانعك؟" وأهمل الاقتراح<sup>(99)</sup>.

بعد سنتين، أشار جوليتي إلى أن رفضه للتدخل كان يقوم على أساس الاعتقاد بأن الاحتلال سيكون بناء بالنسبة للعمال إذا هم أعطوا وقتا كافيا ليروا أنهم لا يستطيعون إدارة الصناعة الإيطالية بأنفسهم<sup>(100)</sup>. وفي كل الأحوال، فإن عدم تصرف جوليتي أدى بقيادة "اتحاد موظفي وعمال المعادن"، إلى إعادة النظر في أغراض الاحتلال. وكان يجب استشارة الحزب الاشتراكي الإيطالي و"الاتحاد العام للعمل" لتحديد ما إذا كان على العمال أن يتحركوا قدما نحو السلطة السياسية أو أن يحاولوا تحرير أنفسهم من هذا الوضع بإعادة فتح المفاوضات الاقتصادية. وبالرغم من أن الحزب الاشتراكي الإيطالي و"الاتحاد العام للعمل" عقدا اجتماعا مشتركا في ميلانو يومي 4 و5 أيلول (سبتمبر) فإنهما لم يدفعوا بهدف الحركة إلى أبعد من المطالب الاقتصادية الأصلية التي تقوم بها "اتحاد موظفي وعمال المعادن". وبدلا من ذلك فقد أصر الطرفان قرارا يؤكد التضامن غير المشروط مع العمال ويهدد بتوسيع نطاق النضال ليشمل كل فئات العمال إذا ما أدى "عناد أرباب العمل" أو "خرق الحكومة لحيادها" إلى منع الوصول إلى "حل مرض للنزاع"<sup>(101)</sup>. ومع ذلك، فإن إدراك وجود خطر كبير ناجم عن هذا الوضع كان يبدا واضحا في اللهجة القوية للقرار<sup>(102)</sup>.

وفي الواقع، كانت البلاد تبدو مشرفة على الثورة. وكان الفلاحون في بعض مناطق صقلية ولوكانيا قد بدأوا "احتلالهم" الخاص للأراضي غير المستثمرة والتي هي جزء من الملكيات العقارية الكبيرة<sup>(103)</sup>. وبالرغم من أنه لم تكن هنالك أية صلة بين الحركتين (وكان يبدو أن قادة الفلاحين أعضاء في "الحزب الشعبي الكاثوليكي" أو من قادة منظمات المحاربين القدماء) فإن توافقهما زاد من حالة عدم الاستقرار في البلاد. وبالرغم من أن الحزب الاشتراكي الإيطالي لم يكن مسؤولا بشكل من الأشكال عن أعمال الفلاحين فإنه حاول الاستفادة من حركتهم. وفي يوم 6 أيلول (سبتمبر) نشر الحزب بيانا "إلى الفلاحين والجنود" طلب فيه دعم الريف لنضال عمال المعادن. وجاء في البيان: "إذا نجح العمال في إلغاء الأرباح الزائدة التي يجنيها المالكون سيصبح ممكنا بيعكم الآلات بأسعار أفضل". وانتهى البيان بروحية وصفها سبريانو بأنها روحية "ما قبل الانتفاضة".

"إذا دقت غدا ساعة المعركة ضد كل المالكين والمستغلين ستأتون أنتم أيضا لمساندة هذه المعركة. استولوا على الحكومات البلدية وعلى الأراضي. أنزعوا سلاح الكارابينيري. شكلوا كتائبكم بالاشتراك مع العمال. سبروا إلى المدن الكبيرة لمساعدة الذين يقاتلون الشرطة المأجورة للبورجوازية، فربما كان يوم الحرية والعدالة قريبا"<sup>(103)</sup>.

عمليا، لم يفعل الحزب شيئا لتسريع "ساعة اتخاذ القرار" سواء بين العمال أم بين الفلاحين. أما فيما يتعلق بمسألة التسليح، التي ركزت عليها الصحافة المحافظة المحافظة اهتماما كبيرا يومها، فقد كانت معالجة الحزب لها دفاعية بحتة، وكتب أنجيلو تاسكا يقول: "في



تورينو، حيث كانت الطليعة أكثر جرأة وأفضل تسليحا" من أي مكان آخر، لم يبد القادة الشيوعيون أية بادرة في هذا الاتجاه، بل أنهم كبحوا مجموعات شركة "فيلت" التي كانت قد أعدت الشاحنات للعمليات الهجومية<sup>(105)</sup>.

تردد شيوعيي تورينو هذا يبدو مثيرا للدهشة للوهلة الأولى نظرا لمواقفهم السابقة، ولكن هذا التردد لم يكن ناجما إلا عن الخشية من أن يبقى التحرك في المدينة معزولا، كما حصل في نيسان (أبريل). ويوم 9 أيلول (سبتمبر) كان تولياتي يحضر في ميلانو، باعتباره سكرتيرا لفرع تورينو الاشتراكي، اجتماعا لمجلس إدارة "الاتحاد العام للعمل". وعندما سئل إذا كان عمال تورينو مستعدين للتحرك أولا في انتفاضة مسلحة، أجاب تولياتي: "لا يمكنكم الاعتماد على تحرك تقوم به تورينو وحدها.. وإذا جاءت الثورة فيجب أن تكون إيطالية وإلا فإن المدينتين الأكثر تقدما، أي تورينو وميلانو، ستهزمان. والاستعداد (للثورة) غير موجود". بعد سنة من هذا الاجتماع، أوضحت افتتاحية ظهرت في "النظام الجديد" أنه لم يكن في استطاعة قادة عمال تورينو "تحمل مسؤولية نضال مسلح من دون أن يضمنوا أن بقية إيطاليا سوف تقاتل أيضا، وبدون أن يضمنوا أن "الاتحاد" لن يدع كعادته القوات العسكرية للدولة تتركز في تورينو، كما حصل في نيسان (أبريل)<sup>(106)</sup>.

وفي 10 و 11 أيلول (سبتمبر) عقد اجتماع ثان مشترك للمجلس الوطني لـ "الاتحاد العام للعمل" ولإدارة الحزب الاشتراكي في ميلانو، ودعا المجتمعون الحزب، لأول مرة، إلى تحديد هدف الإضراب بوضوح. ولم تكن أي من الفئات صاحبة العلاقة راغبة في تحمل هذه المسؤولية. وبدأ برونو بووتزي، سكرتير "اتحاد موظفي وعمال المعادن"، برفض توقيع أي اتفاق لا يوافق عليه "الاتحاد العام للعمل". وعندما أعلن لودوفيكو داراغونا، الناطق بلسان "الاتحاد العام للعمل"، أنه ليس هنالك غير ثلاث سبل للعمل: فيما حصر الاحتلال بعمال المعادن، أو توسيعه ليشمل فئات أخرى والمطالبة بسيطرة العمال على الصناعة، أو بدء انتفاضة مفتوحة. وفضل "الاتحاد العام للعمل" (السبيل الثاني نظرا لأن السبيل الأول أثبت فعلا عدم جدواه، ولأن السبيل الثالث يتطلب عملا خارجا عن هدف الاتحاد العمالي. ومع ذلك، فقد عرض "الاتحاد العام للعمل" أن يجبر الحركة بكاملها إلى الحزب فيما لو رغب هذا باستلام القيادة. عندئذ طلب إيجيديو جيناري، سكرتير الحزب الاشتراكي الإيطالي، الذي كان يصر في السابق على العمل الثوري، أن يقوم "الاتحاد العام للعمل" بإجراء استطلاع للرأي بين ممثلي أعضائه. وطرح مشروعا قرارين، أحدهما يمثل وجهة نظر "الاتحاد العام للعمل"، والآخر يدعو إلى التحول الاشتراكي الفوري في الصناعة (وهو ما يعني: الثورة). ونجح مشروع قرار "الاتحاد العام للعمل" بحصوله على 591245 صوتا مقابل 309569 صوتا للمشروع الآخر، وذلك بشكل رئيسي- نتيجة لدعم العمال الزراعيين الأكثر محافظة، والذين كانوا عديدين، ونتيجة لامتناع "اتحاد موظفي وعمال المعادن" عن التصويت بأصواته البالغ عددها 93623 صوتا<sup>(107)</sup>. وسارع جيناري إلى القبول بنتيجة التصويت بمضمونها القائل يبقى الاحتلال حركة مطلبية اقتصادية، لا أكثر. وأعلن جيناري أن:

"اتفاق التحالف [بين "الاتحاد العام للعمل" والحزب الاشتراكي الإيطالي] يؤكد أن على إدارة الحزب أن تتحمل مسؤولية إدارة الحركة فيما يخص كل المسائل ذات الطابع السياسي.. وفي هذه المرحلة، لا ينوي الحزب الإفادة من هذا الامتياز"<sup>(108)</sup>.

وكما يقول سيريانو، فإن أحد الأسباب الأخرى لهذا التردد لدى قادة الحزب ربما كان الشعور بانزعاجهم عن "الكومنترن". وكانت أنباء الاحتلال شديدة البطء في الوصول إلى موسكو، حتى أن اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية للعمال الإيطاليين أنه لكي يتم تجنب الهزيمة يجب أن يتحول الاحتلال إلى استيلاء عام للطبقة العاملة على السلطة، وهو ما ينظم دكتاتورية البروليتاريا. وكان لهذا أن ينجز من خلال "تغطية إيطاليا كلها بمجالس ممثلي العمال والفلاحين والجنود والبحارة" وطرد الإصلاحيين<sup>(109)</sup>. ولكن الاحتلال كان قد وصل في 22 (سبتمبر) إلى مراحل الأخيرة، وبالتالي فإن صحيفة "افانتي" لم تقم حتى بنشر هذا النداء. ومع ذلك، فإن سيريانو يؤكد أن "الفشل في التنسيق ليس أقل العوامل التي ساهمت في ضعف الحزب الاشتراكي الإيطالي"<sup>(110)</sup>. ولا يبدو هذا الرأي صحيحا، نظرا لأنه يستحيل رؤية كيف كان بإمكان النصيحة الروسية أن تصحح ضعف الحزب الاشتراكي الإيطالي. وعلى كل حال، ففي 27 آب (أغسطس)، أي قبل الاحتلال مباشرة، كان زينويف وبوخارين ولينين قد أرسلوا رسالة إلى الحزب الاشتراكي الإيطالي تؤكد أن "هنالك في إيطاليا، وفي متناول اليد، كل الشروط الهامة الضرورية لثورة بروليتارية عظيمة ذات شعبية أصيلة". ونفى القادة الروس أن يكونوا باستطاعة "التحالف" أن يرسل قواته ضد الطبقة العاملة الإيطالية، وهو التنبؤ المظلم الذي غالبا ما استخدمه الإصلاحيون لحد من هيجان الثوريين الإيطاليين. وفيما حذرت الرسالة من "فتنة مصطنعة" أكدت أن الكومنترن "يعارض أيضا، وبشكل مماثل، أن يحاول الحزب البروليتاري نفسه إلى فرقة نارية تشعل لهيب الثورة عندما يكون هذا اللهيب منتشرًا في كل شقوق المجتمع الرأسمالي"<sup>(111)</sup>. وكان قد تم إبلاغ اقتناع القادة الروس بأن الوضع الإيطالي هو وضع ثوري بوضوح تام. فماذا وكان ينتظر منهم أن يقولوا أكثر من ذلك؟ ومع هذا، لم يكن في ذلك كبير عزاء للثوريين الإيطاليين في أيلول (سبتمبر) 1920.

في هذا الوقت، كان الاجتماع المشترك الذي عقد في 10 و 11 أيلول قد أوضح طريق إعادة فتح باب المفاوضات، وهو ما بدأ في 15 أيلول في تورينو واستكمل يوم 19 من الشهر نفسه في روما. وقد حضر هذه المفاوضات كل من جوليتي نفسه، وحاكما ميلانو وتورينو وممثلون عن الصناعيين وعن "الاتحاد العام للعمل" وعن "اتحاد موظفي وعمال المعادن". وسرعان ما تم الاتفاق على الجوانب المتعلقة بالخبز والزبدة إذ كان الصناعيون يتلطفون على استعداد سيطرتهم على المصانع. وتلقى كل العمال أربع ليرات إضافية على أجورهم يوميا، وهي زيادة تبلغ نسبتها ما يتراوح بين 10 و 12 بالمائة، وتحسينات في معدلات أجور الساعات الإضافية، وفي أجور العمل خلال أيام الاحتلال (ولكن كان للصناعيين أن يحددوا قيمة ذلك الإنتاج). وكذلك ضمن العمال لأنفسهم ستة أيام عطلة مدفوعة في السنة وتصحيحات دورية للأجور حسب الغلاء المعيشية. ووافقت الإدارة على عدم طرد أي عامل له ثلاث سنوات من الأقدمية وعلى عدم اتخاذ إجراءات انتقامية ضد قادة الاحتلال<sup>(112)</sup>.

ولكن، ظهر أن مسألة سيطرة العمال على الصناعة أكثر صعوبة - وكان الصناعيون في البداية غير راغبين حتى في بحث هذه المسألة، وهو ما دعا جوليتي إلى التهديد بتقديم مشروع قانون إلى البرلمان يشمل هذا المبدأ. ووافق المالكون "من ناحية المبدأ" على سيطرة العمال تاركين تحديد معنى وحدود هذه السيطرة للجنة ثلاثية تضم الصناعيين وقادة العمال والمسؤولين الحكوميين. وتمت المصادقة على العقد بكامله في المجلس الوطني لـ "اتحاد موظفي وعمال المعادن" الذي عقد جلسته يومي 21 و 22 أيلول (سبتمبر)، بالرغم من أن مندوبي فرع تورينو للحزب الاشتراكي صوتوا ضده<sup>(113)</sup>. وأجري يوم 24 أيلول استفتاء للعمال الذين

شاركوا في الاحتلال فتمت الموافقة على العقد بأكثرية ساحقة. وحتى عمال تورينو وافقوا على الاستفتاء نظرا لأن عدم موافقتهم كانت تعني العزلة الكاملة والأكثر من تلك التي حصلت أيام إضراب نيسان(أبريل) العام<sup>(114)</sup>. وبين 25 و30 أيلول(سبتمبر) أعيدت المصانع إلى مالكيها.

ولا شك أن نصوص العقد كانت كريمة جدا. الواقع أن معظم الإيطاليين تصوروا أن "اتحاد موظفي وعمال المعادن" حقق نصرا كبيرا. ومع ذلك، وخلال سنة واحدة، تم القضاء على كل هذه المكاسب. فبالنسبة لمبدأ "سيطرة العمال"، قدم مشروع القانون أخيرا إلى البرلمان (ووضع على الرف سريعا) وكان لا يحتوي في الواقع أكثر من مشروع لإقامة لجنة للصناعيين والعمال مكلفة بجمع المعلومات الاقتصادية. وفي نهاية عام 1921 لم تعد المسألة مسألة "سيطرة" بل مسألة تتعلق بالتحري لتحديد "ما إذا كانت أوضاع الصناعة تتطلب حقا خفض الأجور، وهو ما أعلن الصناعيون أنه أمر ضروري"<sup>(115)</sup>.

وانتهى احتلال المصانع بهزيمة لأن هدف الحركة بقي غير واضح حتى النهاية، ولأن توقيت الحدث الذي جاء عشية أزمة اقتصادية كان الأكثر ملائمة للصناعيين أنفسهم. واستنادا إلى اينودي فإن الكثير من الصناعيين رحبوا بالحركة كوسيلة لتصفية موجوداتهم وكوسيلة، في الوقت نفسه، لإلقاء تبعه أمراض البلاد الاقتصادية على الأعمال غير المسؤولة التي يقوم بها العمال<sup>(116)</sup>. وبالنسبة لاشتراكيي تورينو، الذين لم يبدووا الحركة في الواقع، كان التوقيت غاية في السوء نظرا لأن تنظيمهم لم يكن قد شفي بعد من أحداث نيسان(أبريل) العنيفة.

وساهم "حياد" الحكومة في تحقيق الهزيمة نظرا لأنه جعل تردد "اتحاد موظفي وعمال المعادن" والحزب الاشتراكي الإيطالي أكثر سوءا وضررا مما كان يمكنه أن يكون. وقد ركز قادة "اتحاد موظفي وعمال المعادن" آمالهم على نجاح التدخل الحكومي دون أن يأخذوا في اعتبارهم أي مخرج آخر. وكانت إدارة الحزب غير راغبة في إتباع أي من السبيلين اللذين قد يفتح الطريق أمام النصر وهما: الانتحاق بحكومة جوليتي أو بدء الثورة الاشتراكية.

ولم تكن نتيجة احتلال المصانع هزيمة أخرى للعمال فحسب. فالبورجوازيون الإيطاليون خرجوا من هذا النزاع وهم يشعرون بالمرارة، ليس فقط لأن العمال سيطروا على مصانعهم بل لأنهم اقتنعوا أيضا بأن الحكومة لم تعد تستطيع حماية مصالحهم. وكان الصناعيون قد فقدوا أيضا ثقتهم ب"الدولة الليبرالية" وأصبحوا يتقبلون الوسائل السياسية التي هي من طبيعة مختلفة كليا<sup>(117)</sup>. وكانت الحكومة أيضا مصرة على اتخاذ إجراءات، وإن "مؤقتة"، لاجبار العمال على العودة إلى صيغ أكثر تقليدية للنضال. وكانت ساعة الفاشية قد أصبحت على مدى قبضة اليد. وحركة موسوليني التي كانت ضعيفة وقابلة للتجاهل قبل أيلول(سبتمبر) 1920 نمت بسرعة مدهشة خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة من السنة<sup>(118)</sup>.

وبالرغم من أن غرامشي كان مسرورا بالنجاح النسبي لمجالس المصانع خلال الاحتلال فإنه لم تكن لديه أية أوام حول الهزيمة الساحقة للاحتلال نفسه: "إن انتقادنا للحزب والنقابات، اللذين شلتهما اللفظية الديماغوجية وتصلب الشرايين البيروقراطي، تأكد للأسف مرة أخرى من خلال الأحداث"<sup>(119)</sup>.

واستنادا إلى غرامشي فإن الاشتراكيين لن يحاولوا الاستيلاء على السلطة لأنه لم يكن لدى الحزب فهم واضح لدوره كطليعة ثورية بالنسبة للجماهير. وكان استخدام الحزب للاستفتاء مثلا تقليديا على هذا الجهل، وبالتالي فإن غرامشي انتقد هذه الخطوة بأكثر التعبيرات اللينينية تطرفا:

"إن القادة[الحاليين] للحركة البروليتارية يعتمدون على "الجماهير"، وهذا يعني أنهم يطلبون الموافقة المسبقة للجماهير باللجوء إلى استشارتها بالأشكال وفي الوقت الذي اختاروه. ولكن الحركة الثورية لا يمكنها أن تقوم إلا اعتمادا على الطليعة البروليتارية ويجب أن تقاد بلا استشارة مسبقة وبدون جهاز للجمعيات العامة التمثيلية. الثورة كالحرب، على هيئة الأركان العامة للعمال أن تحضرها بدقة، تماما كما تحضر هيئة أركان الجيش الحرب. ويمكن للجمعيات العامة أن تصادق فقط على ما يمكن قد حصل فعلا، إما بالإشادة بالنجاحات أو بالمعاقبة الشديدة على حالات الفشل. إن مهمة الطليعة البروليتارية هي المحافظة على يقظة روح الثورة لدى الجماهير، وخلق الشروط التي تستجيب فيها الجماهير فوراً للشعارات الثورية. وبالطريقة نفسها، يحاول القوميون والامبرياليون... خلق الشروط التي توافق فيها العامة على حرب مفررة فعلا لدى هيئة الأركان العامة والدبلوماسية. وبالطريقة نفسها، فإن ما من حركة ثورية تتقرر في اجتماع جمعية عامة وطنية للعمال، فجمع مثل هذه الجمعية يعني الاعتراف بفقدان المرء الثقة بالنفس"<sup>(120)</sup>. في هذا القول يكمن التناقض الأساسي بين غرامشي وجماعة "النظام الجديد" من جهة والاشتراكية التقليدية من جهة ثانية. وقال غرامشي بأن المهمة الفورية للحزب لم تكن إقامة ديمقراطية أخرى حسب النماذج القائمة، بل إيجاد طليعة ثورية ذات كفاءة تقنية عالية وحرية كبيرة في المبادرة، وإلا فإن حالات الخلل الراهنة سوف تشل تقدم الثورة.

## 6- باتجاه الحزب الشيوعي: الانشقاق النهائي لغرامشي عن القسويين

"الحقيقة هي أن الحزب الاشتراكي لم يكن تجمعا "حضريا" بل كان حشدا "قبليا"، لم يكن جسما متكاملا بل تجمع أشخاص".  
غرامشي -18 كانون الأول(ديسمبر) 1920

إن فهم غرامشي لدور مجلس المصنع ونظريته اللينينية إلى الحزب كطليعة للبروليتاريا أبعد عن الاشتراكية الإيطالية التقليدية. وقد منحه تجاربه في ساردينيا وتورينو -خصوصا تدريبه في التاريخ الكروتشي- نظرة أكثر دقة وتطورا إلى دور قوى مثل الفوضوية، والليبرالية، والديمقراطية المسيحية، وحركة الفلاحين، من النظرة التي لدى زملائه الاشتراكيين. وكان الكثيرون من رفاق غرامشي يهتمون بجديته بالعلاقات الوثيقة التي كانت لغرامشي بين الحين والحين مع تلك الحركات غير الاشتراكية، بالرغم من أنه كان

للفحص الأدق لهذه العلاقات أن يبين أنها لم تكن لتفقد غرامشي إلى أية إعادة نظر في مذهبه الماركسي، بل كان لها فقط أن تؤدي به إلى فهم أفضل لهذه الحركات كقوى تاريخية.

وعلى العموم، فقد لعبت نظرة غرامشي إلى هذه الموضوعات دورا في الانشقاق النهائي الذي وقع بينه وبين القاصيين الإيطاليين في أواخر 1920. هذه النظرة، إلى جانب هزيمتي الحركة العمالية التورينية في نيسان (أبريل) وأيلول (سبتمبر)، ونتائج المؤتمر الثاني للكونغرس في تموز-أب (يوليو-أغسطس)، أوجدت الخلفية اللازمة لفهم الجدل الطويل بين غرامشي وسيراتي، وهو الجدل الذي دمر وحدة الحزب الاشتراكي الإيطالي وأدى إلى تأسيس الحزب الشيوعي الإيطالي.

### غرامشي والفوضيون

إن فكرة المجالس كقوى لتحرير الطبقة العاملة جذبت العديد من الفوضيين إلى حركة غرامشي، مما أزعج كثيرا بعض القادة الاشتراكيين. وفي منتصف صيف 1920، أعلنت المنظمتان الفوضويتان -النقابويتان وقوفهما إلى جانب التعاون مع حركة "النظام الجديد". وألقت اينيا ماتا، وهي مناضلة قديمة، خطابا لقي ترحيبا حول المجالس في مؤتمر بارما ل"الاتحاد النقابي الإيطالي"<sup>(1)</sup>. وفي تموز (يوليو)، تبنى مؤتمر بولونيا ل"الاتحاد الفوضوي" بياناً يدعم المجالس باعتبارها "التنظيمات الملائمة لتضم كل المنتجين اليدويين والفكرين، في أماكن عملهم، استعدادا للثورة. فالمجالس، استنادا إلى أهداف المبادئ الفوضوية الشيوعية، هي أجهزة مضادة للدولة بالطلق، وهي أنوية محتملة لإدارة الإنتاج الصناعي والزراعي في المستقبل"<sup>(2)</sup>.

واشترك عدد من الفوضيين في حركة مجالس تورينو، ومن أبرز هؤلاء ماوريتزيو غارينو وبييترو فيريرو مدير فرع "اتحاد موظفي وعمال المعادن" في المدينة. وبالرغم من أن الفوضيين في تورينو ربما لم يكن كبيراً<sup>(3)</sup>، فإن مساهمات رجال مثل غارينو وفيريرو في الحركة العمالية كانت ملحوظة. ولفترة من الزمن، وصل الحد بصحيفة "النظام الجديد" إلى تعيين فوضوي يدعى كارلو بيتر في هيئة تحريرها<sup>(4)</sup>.

وكان غرامشي متأثرا بشكل خاص بغارينو الذي قام، خلافا لتاسكا، بالدفاع عن نظرية "النظام الجديد" القائلة بأن الوظيفة الرئيسية للنقابة هي تمثيل مصالح العامل على أساس كونه كاسب أجر وليس على أساس كونه منتجاً. بالنسبة لغرامشي، كان عمل غارينو دلالة على أنه "في العملية الثورية الحقيقية تجد الطبقة العاملة، وبشكل عفوي، وحدتها العملية والنظرية، وأن كل عامل، بقدر ما يكون ثوريا مخلصا، سيتعاون في النهاية مع الطبقة بأكملها لتنفيذ مهمة هي من ضمن المجتمع الرأسمالي وليست على الإطلاق هدفا يقترحه الوجدان والرغبة الفردية"<sup>(5)</sup>. ولاحظ غرامشي أنه لا يهمله إلا قليلا ما إذا كان غارينو وفيريرو فوضيين، وإلى الحد الذي يبقى فيه نشاطهما "حقيقيا ولموسا".

وكان أهم دعم تلقاه غرامشي من الميدان الفوضوي -النقابوي قد جاءه من جورج سوريل، منظر النقابوية الثورية. وفي 5 تشرين الأول (أكتوبر) 1919، تساءل سوريل في مقابلة نشرت في صحيفة "ال رستو ديل كارلينو"، قائلا:

"بدلا من أن يطلب [العمال] من كاونتسكي وأمثاله وضع مشروع لمدينة المستقبل، على هؤلاء أن يقوموا بتثقيف أنفسهم بالاستيلاء على سلطات أكبر داخل المصانع. وهذا يجب أن يكون عمل الشيوعيين! إن التجربة التي يمارسون بها في مصانع "فيات" أكثر أهمية من كل المقالات التي تنشرها صحيفة "نوي زايت"<sup>(6)</sup>.

وفي تعليقه على الرأي أعلن غرامشي أيضا تقييمه العام لسوريل. وكان مما يثير الدهشة أن يكون التقييم إيجابيا بالرغم من أن غرامشي أوضح أن الكثير من مذهب سوريل لم يكن مقبولا لديه. وأكثر من ذلك، كان من الضروري بشكل خاص التقريب بين عمل سوريل وعمل تلامذته ومقلديه في فرنسا وإيطاليا، الذين لم يكن غرامشي يكن لهم غير الأزدراء. أما بالنسبة لسوريل فإنه "في أفضل صفاته يبدو وكأنه يعكس في نفسه بعض فضائل أستاذه: منطلق ماركس القاسي وفصاحة برودون العامية الرقيقة". وكان الأهم بالنسبة لغرامشي هو إصرار سوريل على "أن الحركة البروليتاريا تعبر عن نفسها بصيغها الخاصة، وهي التي تعطي الحياة لمؤسساتها". مثل هذا الاعتقاد جعل من الممكن لسوريل أن يبدي إعجابا بحركة السوفييتات في روسيا وفي أوروبا الغربية. ولهذا السبب، شعر غرامشي أن "جورج سوريل بقي كما صنعه برودون، أي صديقا للبروليتاريا غير ذي مصلحة"<sup>(7)</sup>.

ومع ذلك، فإن اعتراضات غرامشي الأساسية على الفوضوية كانت عديدة، خصوصا وأنه كان يخشى أن تؤدي لا كفاءة الاشتراكيين إلى دفع عمال كثيرين إلى الميدان الليبرالي<sup>(8)</sup>. وصحيح أنه نظرا لكون الفوضوية حركة سياسية انعكاسية تختلف قوتها بنسبة عكسية بالمقارنة مع درجة التصنيع في بلد ما، فإن جاذبيتها كانت آخذة في الضعف تدريجيا<sup>(9)</sup>. وفي الوقت نفسه، كان غرامشي ينظر إلى بعض المذاهب الفوضوية على أنها شديدة الخطورة، وخصوصا منها خوف الفوضيين من الدولة كدولة.

وكان موقف غرامشي من الدولة غاية في البساطة، فقد كان يرى أن كل من يقول بأن ليس من الضروري لدولة عمالية، في ظل الشروط الراهنة، أن تقوم بالثورة، فإنه -على المستوى السياسي- يماثل "مشعوذا يقدم جرعة من الماء القراح لمصاب بمرض التيفوس"<sup>(10)</sup>. ولإثبات هذا يعتمد غرامشي على مقولتين، الأولى مأخوذة من النظرة الهيجلية إلى الدولة والثانية مأخوذة من لينين.

ويلاحظ غرامشي أنه صحيح أن الشيوعية هي نظرة أممية، وبالتالي فإنها لا قومية اقتصادية وسياسيا. ولكن، إذا كانت الدولة القومية مكتوبة داخل الشيوعية الأممية، فإن الدولة ك"صيغة" ملموسة للمجتمع أو للجماعة الإنسانية ليست كذلك. لقد كان المجتمع موجودا كنظام وتوازن للدول، أي لمؤسسات ملموسة يكتسب المجتمع فيها وعيا بوجوده وتطوره. "وكل تقدم للحضارة يصبح دائما تاريخيا حقيقيا وليس حدثا عارضا سريع الزوال وسطحيا، لأنه يتجسد في مؤسسة ويجد له صيغة في الدولة"<sup>(11)</sup>.

ثم يطبق غرامشي هذه النظرية على الحركة الاشتراكية:

"الفكرة الاشتراكية تبقى أمرا خياليا، وهما زائلا، وعملا انتقائيا لخيال الإنسان الفرد حتى تصبح مجسدة بالحركات الاشتراكية والبروليتارية، وبمؤسسات تنظيم البروليتاريا المنظمة والدفاع عنها. وبهذه التنظيمات ومن خلالها تتخذ الاشتراكية شكلا تاريخيا وتتقدم. ومن هذه التنظيمات فإنها تولد الدولة الاشتراكية الوطنية المعدة والمنظمة لتكون قادرة على التداخل والتشابك مع دول اشتراكية أخرى شرط أن تكون قادرة على أن تعيش وتنمو فقط باعتبارها منضمة إلى دول اشتراكية أخرى لتحقيق الشيوعية الأممية التي يتحقق فيها، لكل دولة ولكل مؤسسة ولكل فرد، اكتمال الحياة والحرية"<sup>(12)</sup>.

من وجهة النظر الماركسية تبدو هذه المقولة أحيانا وكأنها قريبة من أن تكون دفاعا إيجابيا عن الدولة كظاهرة لا يمكن تجنبها. وعلى العموم، فإن حقيقة عدم موافقة غرامشي على طروحات الفوضويين تصبح واضحة عندما يناقش دكتاتورية البروليتاريا. فبالرغم من أن حدود التنافس الطبقي والصراع الطبقي تكون قد تغيرت في دكتاتورية البروليتاريا، فإن التنافس يبقى وكذلك الطبقات. وعلى دولة العمال أن تحل المشاكل نفسها التي تحلها الدولة البورجوازية، وهي تحديدا: الدفاع الداخلي والخارجي. وسيكون من الأمور الكارثية بالنسبة للطبقة العاملة أن تتصرف وكان هذه المشاكل قد حلت فعلا.

وفي الواقع، فإن التفكك السريع للدولة البورجوازية يجعل من الأمور الأساسية القضاء على بعض الأحكام المسبقة "ضد كل أشكال السيطرة البورجوازية"، وهي الفكرة التي كان قد زرعها كل من الاشتراكيين والفوضويين. إن هزيمة الرأسمالية ستترك بقايا من المشاعر المضادة للدولة، وسيسعى الأفراد والجماعات إلى إعفائهم من الخدمة والنظام اللذين لا بد منهما لنجاح الثورة. ولكن، خنق الدولة يحتاج إلى دولة جديدة، وخنق الاتجاهات العسكرية يحتاج إلى اتجاهات عسكرية جديدة. وخلافا للدولة البورجوازية، فإن الدولة الاشتراكية تطلب المشاركة الناشطة والدائمة لشعبها في حياة مؤسساتها<sup>(13)</sup>.

وبعد الدفاع عن دولة العمال، يهاجم غرامشي مباشرة الفوضوية. فالفوضويون هم جماعة "ماسونية" أو "دينية" تتحدث عن "الحرية" وعن "الحقيقة" كما لو كانا أمرين مطلقين، كما لو كانا أمرين "ملهمين" أكثر منهما محدودان تاريخيا. ومثل هذه الأفكار جعلت الفوضويين يتجاهلون النظام الذي هو من حياة الأحزاب السياسية، وهو النظام المولود من مناقشة القضايا السياسية الملموسة بالعلامة مع المذهب السياسي الأساسي". وبدلا من ذلك فإنهم يستخدمون روابط غير ذات علاقة وتعود إلى الخطأ للتوصل إلى التجانس السياسي، مثل الصداقات الشخصية أو التقدير الشخصي، وامتياز الاسم الكبير، والخوف العام من حمل اسم الخائن<sup>(14)</sup>. إن إيمان الفوضويين بالحقيقة المطلقة يتضمن أن تكون هذه الحقيقة "عفوية" في الطبقة العاملة، وبالتالي، فإنهم يشكون بمحاولات حكم و"إدارة" هذه الطبقة، وعلى هذا يرد غرامشي قائلا:

"نظرا لأننا أكثر حرية روحية [بالمعنى الماركسي لفهم حدود الوضع التاريخي].. من الليبراليين، فإننا نفهم الحقائق نفسها بوضوح أكبر، ولا نحكم على أعمال العامة التي استعقت إلى خطب الفوضويين بأنها عفوية (ليبرالية، إدارية، واعية)، بل نحن نقول: هذه العامة محكومة أيضا، هي أيضا واقعة تحت تأثير السلطة، وهي محكومة بشكل سيء لأن هذه السلطة تمارس بشكل فوضوي"<sup>(15)</sup>. ويتساءل غرامشي أيضا: إذا كان الفوضويون يمتلكون "الإلهام الحقيقية الثورية"، فلماذا لم ينجحوا أبدا في جر الجماهير إليهم؟ لقد تجمدت الحركة الفوضوية لأنها لم تفهم أن حقيقة معنية، وليس الحقيقة المطلقة، ضرورية لتحريك الجماهير إلى العمل: "ولأغراض تاريخ الإنسانية، فإن الحقيقة لا توجد إلا في العمل.. وهي لا تترجم إلا إلى تحركات في العمق وإلى مكتسبات واقعية تحققها الجماهير بأنفسها"، وبمعرفة هذا، كبر الحزب الاشتراكي الإيطالي ونما باعتباره حزب الطبقة العاملة الإيطالية. وأخطاؤه ونواقصه المعروفة هي أخطاء ونواقص الطبقة العاملة الإيطالية نفسها<sup>(16)</sup>.

إن المذهب الفوضوي (وأساسه: فكرة الحرية) ليس محددًا بما فيه الكفاية. ولا يمكن إنزاله إلى مرتبة البرنامج، في حين أن الماركسيين يفسرون الحرية بأنها تنظيم للشروط التي يمكن للحرية أن تتحقق من خلالها. وهذا يعني، في الوقت الراهن، منع البورجوازية من تخريب العمل الإبداعي للبروليتاريا، وتنظيم كل الإنتاج الوطني والأمني على أساس نموذج الصناعة الكبيرة، فقط يجعل طريقة الحياة البروليتارية طريقة كونية شاملة يمكن للعلاقة بين الأفراد أن تقوم على أساس العلاقات الصناعية للإنتاج وليس على أساس العلاقات السياسية للطبقة<sup>(17)</sup>.

وأنكر غرامشي أن تكون الفوضوية إيديولوجية مقتصرة على البروليتاريا. وكان غرامشي قد طرح هذه الفكرة بشكل جزئي في "الدولة الاشتراكية" (حزيران/يونيو 1919). وبعد إعلانه أن الفوضوية، كحركة سياسية، كان مقدر لها أن تنطفئ مع تقدم التصنيع، فإنه اعترف مع ذلك بأنها ستعيش لبعض الوقت ك"هيجان مثالي". وفي الواقع، فإن الفوضوية "سوف تتابع التقليد الليبرالي [المعادي للدولة] من حيث أن هذا التقليد فرض وحقق القيم الإنسانية التي ليس لها أن تموت مع الرأسمالية"<sup>(18)</sup>. وعلى العموم، بحلول ربيع 1920، كان غرامشي قد ذهب إلى أبعد من ذلك في إنكاره للدور الإيجابي للفوضوية في التطور المستقبلي للطبقة العاملة:

"ليست الفوضوية مفهوما ملائما للطبقة العاملة، ولها فقط... إن الفوضوية هي الشعور التخريبي البدائي الموجود عند كل طبقة مضطهدة وهي الميل المنتشر في كل طبقة مسيطرة. ولأن كل اضطهاد طبقي يتخذ له شكلا في الدولة، فإن الفوضوية هي المفهوم التخريبي البدائي الذي يجعل الدولة، بذاتها ومن خلال ذاتها، سببا لكل بؤس وشفاء يحل بالطبقة المضطهدة. وكل طبقة، عندما تصبح مسيطرة، تكون قد حققت مفهومها الفوضوي، لأنها تكون قد حققت حريتها الخاصة بها"<sup>(19)</sup>.

وهكذا فإن البورجوازية، بمعارضتها للدولة الاستبدادية والدولة الأرستقراطية، كانت دولة فوضوية. وقد بقيت الدولة البورجوازية دولة فوضوية بمعنى ما بعد انتصارها لأنها حصلت على الحرية الفعلية وكانت تعيش في ظل قوانينها هي. وعندما تستولي البروليتاريا على السلطة سوف تخشى البورجوازية الدولة ثانية وتعود إلى فوضويتها السابقة. وبشكل مماثل، فإن البروليتاريا تميل إلى الفوضوية نتيجة كراهيتها للبرجوازية، وقد كانت الفوضوية إيديولوجية "هامشية" لكل طبقة مضطهدة. ولكن ليس للبروليتاريا ولا للبورجوازية موقف معادل "الدولة" كمفهوم، بل هما تعارضان حالات معينة فحسب. لقد كانت الإيديولوجيتان المحددتان للبورجوازية والبروليتاريا، على التوالي، الليبرالية والاشتراكية الماركسية. وخلافا للفوضوية، فإن الماركسية تصبح بلا معنى إذا فصلت عن البروليتاريا<sup>(20)</sup>.

### غرامشي وبييرو غوبيتي

كان لغرامشي تأثير ملحوظ على ليبراليي تورينو الأصغر سنا والأكثر التزاما نضاليا، مثل بييرو غوبيتي، الذي كان لغرامشي به علاقة واضحة. وفي شباط (فبراير) 1918، بدأ غوبيتي، وهو ما زال طالبا في الثانوية، بنشر مجلة شهرية هي "قوى جديدة" (إينيرجي نووفي) ساهم غرامشي في تحرير بعضها من حين إلى آخر. وفيما بعد، في شباط 1922، أدار غوبيتي ورأس تحرير "الثورة الليبرالية" (لا ريفولسيون ليبرالي) التي أصبحت مركز المقاومة الليبرالية للفاشية.

وفي آذار (مارس) 1924، أعطى موسوليني أوامره إلى حاكم تورينو "بجعل الحياة صعبة" بالنسبة لغوبيتي<sup>(21)</sup>. ونتيجة لذلك، قامت عصابات القمصان السوداء (الفاشية) بضرب غوبيتي مرتين ضربا مبرحا. وأخيرا، وبعد منع صدور "الثورة الليبرالية" في

تشرين الثاني (نوفمبر) 1925، توجه غويبتي إلى باريس ليبراً من جراحه وللاستمرار في تجميع الليبراليين المعادين للفاشية حول مطبوعاته. ولكن بنيتة الجسدية، كانت مدمرة كلياً، وتوفي في شباط (فبراير) التالي وهو في سن السادسة والعشرون.

ومهما قيل في أهمية غويبتي في المرحلة الأولى لما بعد الحرب لا يمكن أن تكون هناك مبالغة. فباعتباره صاحب فكرة الليبرالية "الثورية"، أو "الثورة الليبرالية"، كان قد أوحى للكثير من غير الماركسيين بمعارضة عميقة وقوية للفاشية. وحتى اليوم، ما زال اسمه يذكر على شفاه أولئك الذين يرغبون برؤية تجديد معنوي وسياسي لإيطاليا. واستيحاء غويبتي لليبرالية الأصلية العالية جاء عن طريق بينيديتو كروتشي، وحركات جوستينو فورتوناتو وغايتانو فيميني "الجنوبية"، وغرامشي.

عن كروتشي، تعلم أن "الليبرالية كمذهب تفسر وتبرر كل الأحزاب ديالكتيكياً، دون أن تتماثل معها، ولا حتى مع ما يسمى "الحزب الليبرالي"<sup>(22)</sup>. وبهذا، فإن الليبرالية هي شكل من أشكال التاريخية التي تقول بأن مجرد وجود القوة السياسية يثبت أن لها وظيفة حقيقية، وأنها ذات مغزى. ومع ذلك، وخلافاً للكثير من أتباع كروتشي، فإن غويبتي لم يكن راضياً بمعرفة الدور التاريخي للحزب فحسب، بل كان راغباً في قيادته إلى الصراع السياسي العملي، الذي سماه "الالتحام الإبداعي مع التاريخ"<sup>(23)</sup>.

وعن فورتوناتو وسالفيميني ومحافظين وليبراليين آخرين مهتمين بفشل الديمقراطية الإيطالية أخذ غويبتي نظرتة السلبية إلى الطبقة الإيطالية الحاكمة، واعتقاده الصميم بأن "النهضة" كانت "نهضة بلا أبطال"، وأنها لا بد أن تستكمل في القرن الحالي إذا كان للأمة أن تبقى على قيد الحياة.

وعلى العموم، فإن تأثير غرامشي هو الذي غزا تفكير غويبتي. وكان ارتباط غويبتي الوثيق بجماعة "النظام الجديد" قد أفتحه بقوة وحيوية هذه الحركة، وقادة إلى أن يكتب مقالاً مطولاً بعنوان "تاريخ الشيوعيين التورينيين مكتوباً بقلم ليبرالي"، وهو إحدى أهم الوثائق التي كتبت عن غرامشي في هذه الفترة. والذي لا شك فيه هو أن ما جذب غويبتي إلى "النظام الجديد" لم يكن اشتراكية هذه الجماعة، بل أصلاتها الإبداعية. واعتقد غويبتي أن "النظام الجديد"، كحركة، قادرة على تجديد الحياة الإيطالية من خلال وكالة الطبقة العاملة. وكذلك فقد جذب غرامشي إليه، باهتمامه بفلاحي الجنوب، غويبتي الذي عرف أن الجماهير الريفية كانت ضرورية لخلق إيطاليا أفضل. وأخيراً، فإن تصلب غرامشي المطلق في مواجهة الفاشية وفر مثلاً يحتذى بالنسبة لغويبتي. وخلافاً للكثير من الليبراليين، فإن غويبتي لم يفتر أبداً في معاداته للفاشية، بالرغم من أن تصلبه قاده في النهاية إلى الموت<sup>(24)</sup>.

وكان غرامشي، من ناحيته، يكن احتراما لغويبتي بسبب "إخلاصه الفكري وتحرره الكامل من أي غرور وأية خسة من مستوى أدنى"<sup>(25)</sup>. ومع ذلك، فقد لاحظ غرامشي أن غويبتي "ليس شيوعياً وربما لن يصبح كذلك أبداً"<sup>(26)</sup>. وشعر غرامشي أن تجربة غويبتي المباشرة مع الطبقة العاملة، والتي حصل عليها من خلال صحيفة "النظام الجديد" (حيث كان قد أصبح محرراً ناقداً للمسرح بشكل منتظم) قد وسعت من رؤيته. وكانت أهمية غويبتي الحقيقية بالنسبة لغرامشي هي في كونه "منظماً للثقافة" وفي كونه مفكراً "وضع خطأ لا تراجع عنه لتلك الفئات من المفكرين الشرفاء والمخلصين الذين شعروا في 1919-1921 بأن البروليتاريا، كطبقة حاكمة، ستكون أفضل من البورجوازية"<sup>(27)</sup>. وكان غويبتي يمثل مرحلة جديدة في تطور المفكرين الإيطاليين. وكرس غرامشي فيما بعد الكثير من فكره لهذا التطور، واستمد قسماً جيداً من أهم إنتاجه النظري من تأملاته.

### غرامشي والديموقراطية المسيحية

لا يمكن لتفوق نظرة غرامشي، ولتمييزه عن معظم الاشتراكيين الإيطاليين في هذه الفترة، أن يكون أكثر وضوحاً مما في آراءه في العمل السياسي الكاثوليكي. وكان لهذا الموضوع أهمية كبيرة بالنسبة للاشتراكية الإيطالية نظراً لأن الحزب الكاثوليكي "الحزب الشعبي الإيطالي" أثبت كونه منافساً الوحيد على دعم الجماهير في الانتخابات عام 1919.

وكان غرامشي في البداية قد أنكر أهمية تشكيل "الحزب الشعبي الإيطالي" باعتباره ناجماً عن مجرد الحاجة إلى "حزب للنظام" ليس كثير التورط في الحرب، لكي يتوسط بين البروليتاريا والطبقات التي هي في السلطة<sup>(28)</sup>. ولكن تراجع الأحزاب البورجوازية الليبرالية استدعى بروز "الحزب الشعبي الإيطالي". وفي خريف 1919، اتضح لغرامشي أن الحزب الجديد سيصبح قوة سياسية هامة. وكانت النتيجة ظهور مقال له عنوان "الشعبيون"<sup>(29)</sup>.

ويقول غرامشي أن مجرد تأسيس الحزب يشير إلى "تجديد روحي للشعب الإيطالي" لأنه يثبت الهرمية الكنسية، ومعها جماهير الفلاحين راحت تنتقل من ميدان الخرافة الدينية إلى عامل العمل التاريخي المبني على دوافع إنسانية<sup>(30)</sup>. طبعاً، كان الحزب الشعبي مجرد تويج لعملية طويلة الأمد. ولعقود زمنية عديدة كانت قد ظهرت في إيطاليا مؤسسات كاثوليكية ذات طابع "أرضي" (لا سماوي)، تحمل أهدافاً "أرضية"، ولم تكن جمعيات المعونة المتبادلة، والتعاونيات، ووكالات الإقراض الزراعي، ونقابات التجار القديمة إلا أمثلة بسيطة على هذه الظاهرة. وبعد أن طردت الدولة الإيطالية الليبرالية الجديدة الكنيسة من حفل "الأمور العامة" اتخذت الكنيسة لها ملجأ في الريف، في النشاطات الاجتماعية اليومية للجماهير الريفية المتخلفة. وبعد أن جردت الكنيسة من أي نفوذ مباشر لها على إدارة الدولة، أصبحت هي التي تهدد الدولة بسيطرتها على المصالح الاقتصادية والاجتماعية المحلية للفلاحين، وهي مصالح كانت الدولة الليبرالية قد تجاهلتها إلى حد بعيد.

وهكذا عادت الكتلة إلى الظهور في عملية التاريخ، ولكن بصيغة مختلفة. "وتحولت الروح إلى لحم، وإلى لحم قابل للفساد، مثل كل الأشكال البشرية، تسببر عليه نفس القوانين التاريخية للنمو والانحطاط التي تتحكم في كل المؤسسات البشرية". وانتقلت الكنيسة من تراتبية هرمية ضيقة باطنية ومن كونها الحاكم المطلق للجماهير المؤمنة إلى موقع تمثيل تلك الجماهير ومصالحها المادية. وصار مصير الكنيسة يعتمد الآن على "النتائج الحسنة أو السيئة للعمل الاقتصادي والسياسي للرجال الذين يعدون بطبيبات الأرض، والذين يقدمون السعادة الأرضية بالإضافة إلى، أو بدلاً من، مدينة الرب". وهكذا، فإن الكنيسة لا تنافس الليبرالية والدولة العلمانية، بل هي تنافس الاشتراكية التي تعد بالأهداف نفسها. ولكن هذا التنافس يجب ألا يثير الحذر، فالحزب الشعبي مرحلة ضرورية في تطور البروليتاريا الإيطالية نحو الشيوعية. إنه يوجد "المشاركة" والتضامن حيث لا تتمكن الاشتراكية من ذلك، وحيث لا تتوفر الشروط الموضوعية لاقتصاد رأسمالي. وبالرغم من أن مشاعر الارتباك والضياح لفترة ما بعد الحرب تؤثر أيضاً على الريف، فإنه ليس لدى الفلاحين نموذج المصنع الحديث الكبير ليقودهم إلى طريق جديدة.

ولم يكن باستطاعة غير "الكاثوليكية الديمقراطية" أن تؤمن اللحمة لهذه الفئة الاجتماعية. ولكن الكنيسة، بعملها هذا، كانت تنتحر، إذ ما أن ينظم الفلاحون حتى يصبح باستطاعة الاشتراكية أن تؤثر فيهم. وعندما يعي الفلاحون قوتهم الحقيقية لن يريدوا أن يتكلم الكهنة باسمهم، بل أن يفعل ذلك رفاقهم الفلاحون.

بعد أشهر قليلة من كتابة هذه المقالة بدأ غرامشي يناقش دور الكنيسة في الدولة الاشتراكية مع "رفيق بولوني" (من مدينة بولونيا في شمال إيطاليا). وقالت "النظام الجديد" أن الكهنة والرهبان والراهبات يجب أن يعاملوا في الدولة الاشتراكية كالعمال طالما أنهم يقومون بعمل فعلا. وروى هذا القول الرفيق البولوني، وكان واضحا أنه يخشى قيام طائفة جديدة من رجال الكنيسة "الاشتراكيين". ورد غرامشي بأن بعض الاشتراكيين رفضوا بالطريقة ذاتها دعم إقامة السوفييتات في إيطاليا لأنهم خافوا أن يسقط سوفييت برغامو (مدينة معقل للحزب الشعبي الإيطالي) في أيدي الكهنة. وسأل غرامشي البولوني ما الذي سيفعله في هذه الحال: "هل نسلط على برغامو النار والسيف؟ هل نستأصل من الأرض الإيطالية أولئك العمال والفلاحين الذين يتبعون سياسيا الجناح اليساري للحزب الشعبي"؟ وأكد غرامشي أنه سيكون للاشتراكية الإيطالية ما يكفيها من الحرب الأهلية ضد الرجعية حتى دون أن تبدأ حربا دينية، وعلى الاشتراكيين أن يعرفوا أن الفاتيكان موجود في إيطاليا، وأن الكاثوليكية هي قوة سياسية حقيقية. إن دولة العمال، كالدولة الليبرالية، ستكون مجبرة على أن تجد نظاما للتوازن مع القوة الروحية للكنيسة<sup>(31)</sup>.

### غرامشي والحزب الاشتراكي الإيطالي والمسألة الفلاحية

كان النقص الأكبر عند الحزب الاشتراكي، في رأي غرامشي، هو ضعفه بين الفلاحين. وإلى حد ما، كان هذا النقص خلا تنظيميا. فالاتصال الوحيد مع الفلاحين جاء من خلال "الاتحاد الإيطالي للعاملين في الأرض"، وهو تنظيم نقابي يضم كل العمال الزراعيين، سواء منهم من يملك الأرض أم العاملین بالميامة. ونظرا لتضارب مصالح هذه الجماعة، فإن الكثير من صغار الملاكين ومستأجري الأراضي والعاملين بالمشاركة فضلوا الانضمام إلى المنضمات الزراعية الكاثوليكية التابعة ل"الحزب الشعبي الإيطالي"<sup>(32)</sup>.

أما السبب الأهم لعجز الاشتراكية الإيطالية في الريف فكان جهل الكثير من الإداريين الاشتراكيين بالمشاكل الفلاحية. وأكثر من ذلك، فإن نوعا من عدم الثقة تجاه الفلاحين منع الاشتراكيين من تصحيح جهلهم. وهذا الموقف يتضح بشكل جيد في رد الفعل الاشتراكي الرسمي على استيلاء العمال الزراعيين على الأراضي بالقوة، وهي ظاهرة كثيرا ما ترددت في الفترة الأولى لما بعد الحرب. وكما جاء على لسان تاسكا فإن "الحزب الاشتراكي تعامل مع [احتلال الأراضي] متأخرا جدا، وبشكل ونية سيئة بشكل عام"<sup>(33)</sup>. وعلى سبيل المثال، فإنه ما من نائب اشتراكي ذهب ليسانغ الفلاحين المعذبين في محافظة تراباني والبالغ عددهم 150 ألفا، حيث كانت هذه الاحتلالات كثيرة التردد. وكان موقف القسويين من هذه المسألة ظاهرا بوضوح عندما قال سيراتي إن "الكل يعرف أن حركة احتلال الأراضي التي تمت بشكل خاص في صقلية على أيدي المحاربين القدماء والشعوبيين، كانت حركة ديمagogية وبورجوازية صغيرة تهدف إلى اجتذاب الجماهير الزراعية"<sup>(34)</sup>.

سوء الفهم هذا أغضب غرامشي الذي رأى أن مثل هذا الجهل خطر بشكل خاص نظرا للمحاولات المتكررة لليبرالي جوليتي تشجيع التعاون بين رأس المال الشمالي و"استقراطات" الطبقة العاملة في الشمال الصناعي على حساب فلاحي الجنوب<sup>(35)</sup>. وشعر أتباع جوليتي أن تحالف ما بعد الحرب بين العمال والفلاحين إذا كان هذا التحالف قد وجد أبدا، قد ينفك نتيجة لخوف الفلاحين من أن تعيد الاشتراكية الاستيلاء على مكتسباتهم الأخيرة في الأرض والتجهيزات والمواشي<sup>(36)</sup>.

واعترف غرامشي بحرية أن الاشتراكيين لم ينظروا إلى إعادة توزيع الأراضي كحل ملائم لأوضاع الفلاحين. وقال أن شعار "الأرض للفلاحين" يجب أن يفسر على أنه سيطرة العمال الزراعيين على المؤسسات الزراعية: العمال الزراعيين المنظمون في مجالس للفلاحين الفقراء الذين لن يجمعوا أبدا رأسمالا كافيا لتطوير حيازات فردية ولتحسين أوضاع وأرباح إنتاجهم الزراعي ورفعهم إلى مستوى الإنتاج الصناعي. فقد كانت الفردية في الأرض بسوء الفردية في المصنع: "إن البروليتاريا الصناعية، التي هي أساس دولة العمال، تذهب إلى أبعد من المركز البلوتوقراطية (حكم الأثرياء) بدلا من تدميرها"<sup>(37)</sup>.

واعترف غرامشي أن كسب الفلاحين إلى جانب الاشتراكية كان ضروريا جدا، نظرا لأن الفلاحين وحدهم يملكون القوة العددية للإطاحة بالدولة البورجوازية. ولا يمكن للجماهير أن تنثور إلا عندما يفصل الفلاحون الفقراء وصغار الملاكين "بقوة عن الأحزاب السياسية للتحالف الفلاحي"، وخصوصا عندما يفصل هؤلاء عن "الحزب الشعبي الإيطالي"<sup>(38)</sup>. ويجب أن يثبت للفلاحين أن العمال الصناعيين هم الطبقة الوحيدة المهمة بزيادة الإنتاج الزراعي، والطبقة الوحيدة المهمة في النهاية بتحقيق المساواة بين الإنتاج المدني والريفي. ومرة أخرى، أشار غرامشي إلى المجالس باعتبارها وسائل للتنقيف، وأكد في الواقع أن المهمة الفورية لحركة المجالس يجب أن تكون نشر الدعاية في الريف.

وكانت مرارة غرامشي المتزايدة تجاه إداري الحزب الاشتراكي الإيطالي تقوم إلى حد ما على إيمانه بأن هؤلاء لا يفعلون شيئا في الواقع لدفع مثل هذا التحالف بين العمال والفلاحين إلى الأمام. وبعد أيلول (سبتمبر) 1920، ومع تصاعد الهجمة المضادة التي شنها الصناعيون والفاشيون، أصبح واضحا أن الفرصة الأفضل لإقامة التحالف بين العمال والفلاحين كانت قد مرت وانقضت.

### تفكك الحزب الاشتراكي الإيطالي

أدى إضراب تورينو العام، والمؤتمر الثاني للكونغرس، ونتائج احتلال المصانع، إلى تفريق الحزب الاشتراكي الإيطالي إلى عدد من الأجنحة المتعادية إلى درجة أصبح معها تجنب الانشقاق مستحيلا. واستكملت عملية التخلل هذه بين شهري أيلول (سبتمبر) وكانون الأول (ديسمبر) 1920 بالجدل حول إمكانية تكيف "النقاط الإحدى والعشرين" مع الأوضاع الإيطالية. والنقاط الإحدى والعشرين، أو شروط الانتماء إلى "الأممية الشيوعية"، كانت قد صدرت عن المؤتمر الثاني للأممية، ولكنها لم تنشر في إيطاليا حتى 21 أيلول<sup>(40)</sup>. وفي 28 أيلول (سبتمبر) صوتت إدارة الحزب بأكثرية 7 إلى 5 بقبول هذه الشروط دون تحفظ<sup>(41)</sup>.

ولم يكن سيراتي راغبا في قبول هذا القرار، وكان واثقا من أن القرار لا يمثل رأي الأكثرية داخل الحزب ككل، ومقتنعا بأن حياة الحزب نفسها تعتمد على استمرارية قبوله بوجود الإصلاحيين. وهكذا اضطر سيراتي إلى معارضة "الكومنترن" علنا، وبدأ جدلا طويلا ومعقدا مع لينين وغرامشي. وموقف سيراتي هذا شق جماعة القصويين إلى جناحين: الجناح اليساري الذي يقوده ايجيديو جيناري ونيكولا بومباشي، والجناح اليميني الذي يقوده سيراتي وأديليكي باراتونو. وهكذا أدت محاولة سيراتي للمحافظة على وحدة الحزب إلى انشقاق جديد فيه. وبعض مظاهر هذه المحاولة مهمة لفهم أصول "الحزب الشيوعي الايطالي"<sup>(42)</sup>.

في عام 1920 كان لينين يعتقد أن الأحزاب الاشتراكية الأوروبية لا يمكنها أن تنجح في مهماتها الثورية إلا إذا ظهرت صفوفها من الإصلاحيين. وفي حثه للأحزاب على اتخاذ هذا الإجراء، اتهم لينين الإصلاحيين بالخيانة، بالرغم من اعترافه أحيانا بأنهم كانوا خونة "دون معرفة ذلك"<sup>(43)</sup>. ولكن سيراتي دافع عن الإصلاحيين الايطاليين (مثل توراتي وموديليانو وأراغونا) نافيا عنهم هذه الاتهامات. وأبرز سيراتي -عن حق- أن هؤلاء الرجال، خلافا لأمثالهم في بلدان أخرى، قبلوا بالتأكيد انتماء ملتزما بالنضال الطبقي، وبالضرورة التاريخية لاستخدام العنف، وبدكتاتورية البروليتاريا، وبنظام السوفييتات كبديل للبرلمان<sup>(44)</sup>. وبرر سيراتي استمرار وجود الإصلاحيين في الحزب بحجج مختلفة. وكان يرى مساهمتهم ضرورية لانتصار الثورة في إيطاليا، إذ كان معظم مسؤولي العمال الاشتراكيين والحكومات المحلية (البلديات) التي يسيطر عليها الحزب من الإصلاحيين، وكذلك كثير من النواب. وقال سيراتي أن سياسة "الأممية" غير عادلة ومتناقضة وخطرة في مطالبته بطرد الإصلاحيين بينما تسمح، بل هي تشجع، انتماء أولئك الذين اتخذوا موقفا "اشتراكيا-قوميًا"، مثل مارسيل كاشان في فرنسا، أيام الحرب العالمية. وأخيرا، كان سيراتي يرى أن الإصلاحيين، كممثلين للوضع الراهن للكثير من العمال الايطاليين، يستحقون مكانا لهم داخل حزب الطبقة العاملة<sup>(45)</sup>.

لم يكن الاصلاحيون خونة، وحتى ايجيديو جيناري وجد نفسه مدفوعا إلى الدفاع عنهم ضد اتهام لينين لهم بالخيانة، وفضل وصف سلوكهم بأنه "فهم ناقص للوظائف الجديدة" للحزب<sup>(46)</sup>. ولكن سيراتي كان مخطئا في افتراضه كون الإصلاحيين الايطاليين مختلفين أساسا عن رفاقهم في البلدان الأخرى. فبالرغم من أن الإصلاحيين الايطاليين اتخذوا مواقف يسارية نسبيا في موضوعات عديدة، فإنهم كانوا مدفوعين إلى هذه المواقف بقوة الظروف وليس المبادئ. وكانت "اللاشرعية البورجوازية"، أو كان "عدم النضج السياسي" لرفاقهم الذين يشكلون الأكثرية، هو ما دفعهم باتجاه اليسار. وأساسا، كان الاصلاحيون اشتراكيين ديمقراطيين، وبالتالي فإنهم لم يكونوا يرون غير الطريق "الديمقراطي" وسيلة ملائمة للوصول إلى السلطة. وبالنسبة لهم، فإن الثورة الوحيدة التي تستحق النجاح هي تلك التي يتم فيها الانتصار كليا على الجماهير والتي يمكن إنجازها بالقدرات التقنية للجماهير نفسها. وكان على سيراتي إما أن يقبل الإصلاحيين ويعترف، في الوقت نفسه، بهذا المبدأ، أو أن يعترف بعدم وجود مكان لهم داخل الحزب الاشتراكي الايطالي. وكان سيراتي راغبا عن اتخاذ أي من الموقفين<sup>(47)</sup>.

وأخيرا، كان سيراتي قد دفع إلى القول بأن "الأممية" كانت هي المسؤولة الوحيدة عن طرد الإصلاحيين، لأنها لم تفهم الأوضاع الايطالية. وفي رأيه أن أي من أعضاء الحزب الاشتراكي الايطالي لم يطلب جديا طرد الإصلاحيين حتى انعقاد المؤتمر الثاني لل"كومنترن"<sup>(48)</sup>. وفي هذا كان سيراتي مغرقا في الخطأ، إذ أن بورديغا وجماعته طالبوا باتخاذ مثل هذا الإجراء منذ عام 1918<sup>(49)</sup>. وقبل صيف 1920 بمدّة طويلة كان غرامشي قد حث أيضا على اتخاذ هذا الإجراء. والواقع أن بورديغا اعتبر غرامشي مبالغا في حذره لأنه قبل باستمرار وحدة الحزب حتى شباط (فبراير) 1920<sup>(50)</sup>.

وكانت نقطة الضعف الرئيسية في موقف سيراتي هي أنه لم يرسم أي خط سياسي إيجابي في معارضته للينين. والواقع أنه وافق كليا على معظم الموضوعات التي طرحها لينين. وكان لينين قد قال أنه يمكن زيادة فرص نجاح الثورة البروليتارية إلى حد كبير إذا أصبح الحزب الاشتراكي الايطالي أكثر انضباطا وأكثر مركزية في المبادئ. وكان رد سيراتي الضعيف هو أن نجاح الثورة لا يعتمد على بقاء حفنة من الإصلاحيين في الحزب أو خارجه.

"ليست الثورة عملا سحريا يقوم به هذا "الزعيم" أو ذلك، وإن كان للتأثيرات الشخصية قيمتها بحد ذاتها. إن الثورة هي نتاج جملة من الظروف المتعددة والمختلفة، ونتاج جملة عناصر كثيرة تجتمع فتقود إلى الحل، في لحظة تاريخية معينة، لأزمة لها أسباب اقتصادية عميقة ومستعصية. والاعتقاد بأن "صفوة" الشيوعيين في إيطاليا سيقومون بالثورة عندما يتحررون من موديليانو وتوراتي... يعني إنكار أهمية ومغزى الثورة"<sup>(51)</sup>.

هذا الفهم للثورة، مهما كانت مزايه الأخرى، كان يعني أن ليس باستطاعة الحزب أن يفعل إلا القليل غير انتظار الأوضاع، وهذا في وقت بدت فيه الرجعية وكأنها القوة الوحيدة القادرة على "النضج".

كان موقف سيراتي غاية في الصعوبة لأنه شخصيا عارض سياسات الإصلاحيين، وكان مواليا كليا لأفكار "الكومنترن"، وكان، في الواقع، "ينظر إلى موسكو وكأنها المنارة الهادية"<sup>(52)</sup>. ومع ذلك، لم يكن بوسع خرق تقاليد الاشتراكية الايطالية، وتجاهل التضحيات والمساهمات التي قدمها للحزب رجال مثل توراتي وموديليانو. ربما كان باستطاعة سيراتي أن ينجح في الإبقاء على الإصلاحيين داخل الحزب، ولكن هذا كان سيؤدي إلى خروج جماعة أكبر مؤلفة من "صفوة" الشيوعيين منه. وبالتالي، فقد حافظ الحزب الاشتراكي الايطالي على وجود انفصامي له، فكان حزبا ثوريا بالاسم، بالرغم من أن قوته تراجعت.

الفضل الكبير في هذا الانتصار كان يعود إلى نفوذ سيراتي الشخصي داخل الحزب، وفي الواقع، فإن التاريخ التالي للحزب الاشتراكي الايطالي، وهو الحزب الاشتراكي الأوروبي الوحيد الذي بقي ماركسيا أساسا بالرغم من وجود حزب شيوعي كبير وديناميكي في البلد نفسه، لا يمكن فهمه إلا في ضوء موقف سيراتي خلال هذه الأشهر. ومن التناقضات المثيرة للسخرية أن سيراتي نفسه اعترف في عام 1922 بالخطأ الذي ارتكبه في تلك الأيام، وعاد فطلب طرد الإصلاحيين، ثم انضم بعد ذلك بسنتين، هو نفسه، إلى الحزب الشيوعي.

ويتضح سبب معارضة غرامشي للخط السياسي لسيراتي في مقاله "القدرة السياسية"، والذي دعا فيه غرامشي إلى إقامة "هيئة أركان" بروليتارية. وكان غرامشي أكثر عداء للإصلاحيين من لينين، مما جعله يؤيد كليا الزعيم الروسي في هذا النزاع. وأصر غرامشي بشكل خاص على رفع مستوى انضباط الحزب و"الأممية" لأنه شعر أن الثورة الايطالية ستحتاج إلى دعم بروليتاريا العالم، فالثورة ستؤدي حتما إلى مقاطعة الرأسماليين لايطاليا، وأكثر من ذلك، فإنه لا بد للاقتصاد الايطالي المحدود من الاندماج في اقتصاديات البلدان الاشتراكية الأخرى<sup>(53)</sup>. ولهذا، فإن انشقاق سيراتي عن "الأممية" زاد من غضب غرامشي أكثر فأكثر. وبالنسبة

لغرامشي، كان طرد الإصلاحيين مبررا إذا أمكن الإثبات أنهم لا يقبلون، بلا قيد أو شرط، النقاط الإحدى والعشرين، أو إذا اظهروا رغبة أو شكا بروسيا السوفيتية<sup>(54)</sup>. ومنذ أن طالب الإصلاحيون، في بداية تشرين الأول (أكتوبر) ب"استقلال تعبيرى في تطبيق النقاط الإحدى والعشرين حسب أوضاع كل بلد"، أكد غرامشي أنهم لم يعودوا أعضاء في الحزب<sup>(55)</sup>.

في نهاية تشرين الأول (أكتوبر) اجتمع في ميلانو ممثلون عن كافة المجموعات "الشيوعية" التي وافقت غرامشي على وجوب طرد الإصلاحيين من الحزب، وذلك لوضع بيان برنامج لتقديمه إلى المؤتمر المقبل للحزب. وحملت هذه الوثيقة توقيع غرامشي وتيراشيني وبورديغا وبوماتشي وبرونو وفورتيكاري وفرانشيسكو ميزيانو ولويجي بولانو ولويجي ريبوسي. وطالبت الوثيقة بتحويل الحزب الاشتراكي الإيطالي إلى حزب جديد عالي المركزية، وإلى تسميته "الحزب الشيوعي لإيطاليا (فرع الأممية شيوعية)". وكان على خط الحزب أن يلتزم كليا بتوجيهات "الكومنترن". وأمرت "المجموعات الشيوعية" بأن تبدأ عملا دعائيا في "كل النقابات والعصبات والتعاونيات والمصانع والمزارع.. الخ"، بهدف كسب الاكثريات إلى جانب الحزب الجديد. هذا البرنامج، الذي صادق عليه مؤتمر عقد في ايمولا في 28 تشرين الثاني (نوفمبر) 1920، كان الوثيقة الأولى للشيوعية الإيطالية. ووافق على هذا البرنامج في وقت لاحق الكثيرون من اليسار "القصوي، بمن فيهم ايجيديو جيناري وانطونيو غراتزايادي وأنسيلمو مارابيني<sup>(56)</sup>.

بالرغم من هذه الاضطرابات بين الأجنحة كان الحزب الاشتراكي الإيطالي ما زال يتمتع بدعم الطبقة العاملة والكثير من فلاحي الشمال، وهو ما ظهر في الانتخابات البلدية التي أجريت في 5 تشرين الأول (أكتوبر) وفي 7 تشرين الثاني (نوفمبر)، وهي الانتخابات المحلية الأولى التي أجريت منذ عام 1914. وضاعف الحزب الاشتراكي الإيطالي انتصاره الذي كان حققه في الانتخابات الوطنية (البرلمانية) عام 1919، مما كان يعني أن يلعب الحزب دورا متزايد الحجم في الحكومات البلدية والإقليمية في إيطاليا. وبينما كان الحزب الاشتراكي يسيطر على 300 بلدية قبل هذه الانتخابات، صار بعدها يسيطر على 2162 بلدية (من أصل 8059)، وحصل على الأكثرية في 25 من أصل 69 محافظة. ولكن الاشتراكيين واجهوا خسائر هامة في تورينو وجنوة وفلورنس، ناجمة إلى حد ما عن صراع الأجنحة وإلى حد آخر عن أن الأحزاب المعارضة تكافقت ضدهم<sup>(57)</sup>. وفي تورينو، كان فرع الحزب قد أعلن ترشيح أعضاء "شيوعيين" فقط. هذا القرار استبعد أليا جوليو كازاليني، وهو إصلاحى كان قد حصل في الانتخابات السابقة على أصوات كثيرة من الطبقة الوسطى. وأدت المرارة التي نجمت عن هذا القرار، مضافة إلى الإدعاء بالاحتلال، وإلى التحالف بين جماعة جوليتي والكاثوليكين، إلى هزيمة الاشتراكيين (رغم أن هذه الهزيمة بفارق 300 صوت من أصل أكثر من 100 ألف صوت)<sup>(58)</sup>.

هذه الحملة الانتخابية كانت آخر عمل سياسي قام به فرع تورينو الاشتراكي ضمن إطار الحزب. ففي 17 تشرين الأول (أكتوبر) أعلنت طبعة بيمونتي من صحيفة "أفانتي" استقلالها التام عن طبعة ميلانو، وأعربت عن نيتها التحرك على المستوى الوطني باعتبارها الناطقة بلسان "الحركة الأكثر تقدما"<sup>(59)</sup>. بعد ذلك بوقت قصير، ظهرت لدى منظمة الجناح الشيوعي في ايمولا، الذي انضم إليه اشتراكيو تورينو كتلة واحدة، الحاجة إلى صحيفة تعبر عن رأي المنظمة. لهذا، صوتت اللجنة التنفيذية لفرع تورينو بالإجماع (مع استنكاف صوت واحد) على دمج "أفانتي" و"النظام الجديد" في صحيفة يومية جديدة تحمل اسم "النظام الجديد" (أورديني نوفو). وكان للعدد الأول من هذه الصحيفة أن يصدر في أول كانون الثاني (يناير) 1921. ووصف غرامشي الذي عين رئيسا للتحريير موقف الصحيفة بأنه "شيوعي ملتزم بالخط الذي رسمه مؤتمر الأممية (الثاني) واجتماع الشيوعيين الإيطاليين (في ايمولا)، وبتقاليد الطبقة العاملة التورينية وأكثرية الفرع الاشتراكي"<sup>(60)</sup>.

### سمعة غرامشي في نهاية 1920

لقد كان تطور غرامشي كبيرا حقا منذ عام 1917. كان قد بدأ بشيء من الاهتمام "المثالي" بخلق ثقافة "اشتراكية" مستقلة لتحل محل الثقافة الانتقالية الفضلى، ذات الأصول البورجوازية، والتي كثيرا ما لمسها رفاقه. بعد ذلك، وفي مرحلة "النظام الجديد" حاول غرامشي أن يجمع بين هذه الحاجة إلى التجديد الثقافي والحركة السياسية الحقيقية. وكانت الحصيلة هي الحملة لتنظيم مجالس المصانع في تورينو.

ولم تلاق الحركة المجالسية خارج تورينو غير نجاح ضئيل، ومع ذلك فإنها ركزت انتباه اليسار الأوروبي على غرامشي، كما تؤكد تعليقات لينين وسوريل المحملة بالإشادة. وكذلك، تلقت جماعة "النظام الجديد" مديح هنري باربوس الذي ساعد الصحيفة في تسديد التزاماتها المالية بإلقاء محاضرة لجمع التبرعات<sup>(61)</sup>. وهناك "لومانيته"، صحيفة الحزب الاشتراكي الفرنسي، "النظام الجديد" على مستواها الثقافي العالي وعلى نجاحاتها التعليمية بين العمال تورينو<sup>(62)</sup>. وكذلك تركت صحيفة "النظام الجديد" انطباعا مؤثرا لدى الكثير من المثقفين الإيطاليين غير الماركسيين. وإلى جانب غوبيني، كان هنالك بينيتو كروتشي، الذي قام ذات يوم بزيارة الصحيفة، وجوزيبي برتيزولين، رئيس تحرير "لا فوتشي" (الصوت)، الذي حث غرامشي في تشرين الثاني (نوفمبر) 1920 على نشر مجموعة من افتتاحياته التي ظهرت في الأسبوعية التورينية<sup>(63)</sup>. وكان الأكثر إثارة للاهتمام -التشاؤم- هو استنهاد موسوليني بكلام غرامشي في خطاب ألقاه في كانون الأول (ديسمبر) 1921. وقال دكتاتور المستقبل: "هذا السارديني المحدودب الظهر، والأستاذ في الاقتصاد والفلسفة يتمتع بقوة عقلية لا جدال فيها"<sup>(64)</sup>.

طبعاً، غرامشي لم يكن قد وصل بعد داخل اليسار الإيطالي إلى حجم يوازي حجم سيراتي، أو حتى حجم بورديغا. خارج تورينو، لم يكن معروفا إلا لجماعة صغيرة من المثقفين والعمال<sup>(65)</sup>. وعلى العموم، ففي عام 1921، ومع تأسيس الحزب الشيوعي الإيطالي، كان لغرامشي أن يواجه فرصته الأولى لأن يصبح زعيما وطنيا للبروليتاريا الإيطالية.

الهوامش

الأرقام بين الأقواس تشير إلى المؤلفات التي تحمل الأرقام نفسها في لائحة موجودة في آخر هذا الكتاب.

الفصل الأول:

Passato e Presente(8), P.14 (1)

S.F.Romano, P.8□ (2)

هناك قرية في جنوب شرق ألبانيا اسمها "غرامشي". أنظر: Lettre(2), P.508, No.4. (3)



- (4) من أجل تفاصيل عن خلفية غرامشي، أنظر: Lombardo Radice and Carbone, P.9, S.F. Romano, PP.9-10, and the Lettere(1), P.150. :1931/10/12 Cronologia della vita di Antonio Gramisci, in Lettere(2), P.xxi. والكتاب الأهم عن السنوات المبكرة في حياة غرامشي نشر بعد الانتهاء من هذا الكتاب، وهو: Giuseppe Firio, Vitta di Antonio Gramisci(Bari: Laterza, 1966).
- (5) رسالة غرامشي إلى تاتانيا بتاريخ 1930/1/13: Lettere(1), P.86.
- (6) رسالة غرامشي إلى تاتانيا بتاريخ 1931/12/28: Ferrata and Gallo(12),π,310 وانظر أيضا رسالة غرامشي إلى والدته بتاريخ Lettere(2), P.80. :1927/4/25
- (7) رسالة غرامشي إلى تاتانيا بتاريخ 1931/9/7: Lettere(1), P.136.
- (8) انظر الإشارة غير المباشرة في رسالة غرامشي إلى يولكا بتاريخ 1933/1/16، المصدر السابق، ص19.
- (9) رسالة غرامشي إلى غرازييتا بتاريخ 1932/10/31: Lettere(2), P.686.
- (10) أخت غرامشي الكبرى، إيما، توفيت لاصابتها بالملاريا الخبيثة في كانون الأول(ديسمبر) 1920، أنظر مقدمة: Lettere(1), P.vii.
- وانظر أيضا رسالة غرامشي إلى والدته بتاريخ 1931/8/24: Lettere,P.134
- (11) S.F.Romano,PP.13---14
- (12) رسالة غرامشي إلى غرازييتا بتاريخ 1930/12/29: Lettere(1),P.108.
- (13) رسالة غرامشي إلى جوليا بتاريخ 1924/8/18: Ferrata and Gallo(12),π,55.
- (14) رسالة غرامشي إلى والدته بتاريخ 1927/2/28: Lettere(2),P.53
- (15) رسالة غرامشي إلى والدته بتاريخ 1931/6/15: Lettere(1),P.128
- (16) رسالة غرامشي إلى غرازييتا بتاريخ 1930/12/29، المصدر السابق، ص109.
- (17) رسالة غرامشي إلى تيريزينا بتاريخ 1930/11/17، المصدر السابق، ص105.
- (18) S.F.Romano,P.17.
- (19) في عام 1900، كان التعليم الرسمي في إيطاليا يتألف من خمس سنوات من الدراسة الابتدائية وثمان سنوات من الدراسة الثانوية. وهذه المرحلة الأخيرة كانت تقسم إلى خمس سنوات إعدادية(أعمار طلابها تتراوح بين 10-11 سنة و17-19 سنة) وثلاث سنوات ثانوية(تتراوح أعمار طلابها ما بين 16-18 سنة و18-19 سنة). وللاطلاع على تقييم شديد السلبية لنظام التعليم الإيطالي في هذه المرحلة انظر: Villari,PP.237-59.
- (20) رسالة غرامشي إلى تاتانيا بتاريخ 1928/1/2: Lettere(1),P.52.
- (21) "La luce che si è spenta" (20.11.1915) in Scritti giovanili(9),P.10.
- (22) رسالة غرامشي إلى والدته بتاريخ 1932/9/12: Lettere(1),P.206. وكان إيميليو سالغاري(1863-1910) كاتباً شعبياً لروايات المغامرات للأطفال.
- (23) انظر مجموعة هذه القصص في مؤلف غرامشي: L'Alberto del riccio(14) ويتضمن هذا المؤلف قصصاً لمؤلفين آخرين أشار إليهم غرامشي في رسائله.
- (24) Répaci,P.41.
- (25) رسالة غرامشي إلى ديليو بتاريخ 1932/2/22: Lettere(1),PP.167-68. وانظر أيضا: S.F.Romano,PP.21-23 الذي يحتوي على فقرات جميلة عن حب غرامشي لعالم الحيوان.
- (26) رسالة غرامشي إلى تاتانيا بتاريخ 1932/10/9: Lettere,P.61.
- (27) للاطلاع على نسخة مصورة عن شهادة غرامشي بتمامه الامتحانات انظر: S.F.Romano,P.49.
- (28) المصدر السابق، ص26-27.
- (29) رسالة غرامشي إلى تاتانيا بتاريخ 1932/10/3: Lettere(1),P.207. في أيام دراسة غرامشي كانت هناك في ساردينيا عشر مدارس إعدادية وثلاث مدارس ثانوية: (Thomas Ashby,"Sardinia", in Encyclopedia Britanica, 11th ed.,1910).
- (30) رسالة غرامشي إلى يولكا بتاريخ 1933/1/16: Lettere(1),P.220.
- (31) رسالة غرامشي إلى تاتانيا بتاريخ 1933/1/30. المصدر السابق، ص207.
- (32) رسالة غرامشي إلى تاتانيا بتاريخ 1933/1/30. المصدر السابق، ص221.
- (33) حول هذه الحادثة انظر رسالة غرامشي إلى تاتانيا بتاريخ 1932/9/12، المصدر السابق، ص206.
- (34) رسالة غرامشي إلى تاتانيا بتاريخ 1928/3/5، المصدر السابق، ص59.
- (35) رسالة غرامشي إلى جوليا بتاريخ 1923/2/13: Ferrata and Gallo(12),P.23.
- (36) رسالة غرامشي إلى جوليا بتاريخ 1924/3/6، المصدر السابق، ص33.
- (37) S.F.Romano, P.33, and"Cronologia della vitta di Antonio Gramisci", in Lettere(2),P.xxi.
- (38) رسالة غرامشي إلى تاتانيا بتاريخ 1932/9/12: Lettere(1),P.206.
- (39) انظر قصة لقائه مع عصابة من اللصوص في رسالة إلى تانيا بتاريخ 1927/12/26، المصدر السابق، ص39-50.
- (40) رسالة غرامشي إلى تاتانيا بتاريخ 1932/9/12، المصدر السابق، ص206.
- (41) رسالة غرامشي إلى تاتانيا بتاريخ 1928/4/9، المصدر السابق، ص61.
- (42) "Oppressi e oppressori", Ferrata and Gallo(12),PP.13-15.
- (43) المصدر السابق، ص15 (والتشديد من المؤلف).
- (44) King and Okey, P.112 "ما من مكان في إيطاليا تبلغ فيه الثغرة بين الأغنياء والفقراء (ما تبلغه في الجنوب الإيطالي)... والمتفقون من أهل نابولي نادرا ما يتكلمون اللهجة المحلية مثل البييمونتي أو اللومباردي أو الصقلي". والتقليد الطويل الأمد، والذي ما زال مستمرا، لانفصالية صقلية هو السبب في استخدام اللهجة المحلية هناك.
- (45) رسالة غرامشي إلى تيريزينا بتاريخ 1927/3/26: Ferrata and Gallo(12),P.114. وانظر أيضا: Togliati,"Gramisci Sardo",P.1088.
- (46) رسالة غرامشي إلى جوليا بتاريخ 1924/3/6: Ferrata and Gallo(12),P.33.
- (47) Gramisci,"Gli Scopritori"(24.v.16) in Sotto la mole(11), PP.148-50. في هذه المقالة يسخر غرامشي بحدة من بييترو ماسكاتيني أكثر مما يتنبى انطباعاته عن رحلة أخيرة له إلى ساردينيا.
- (48) كما ورد في: S.F.Romano,P.46.
- (49) انظر: Gramisci,"Lettere al'Grido"(4.iii.16) in Scritti giovanili(9),P.28, For a description of π Viandante, see Spriano, Torino opera, P.20.
- (50) رسالة غرامشي إلى جوليا بتاريخ 1924/3/6: Ferrata and Gallo(12), P.32.
- (51) Gramisci, Intelletuali(4), P.52.
- (52) Annuario statistica italiano(1912),π,96.

- (53) المصدر السابق، ص 114.
- (54) المصدر السابق، ص 222. و"غرفة العمل" هي عبارة عن مؤسسة محلية تشبه إلى حد ما "المجلس النقابي" الإنكليزي، ولكن بسلطات أوسع وأهمية أكبر نسبياً. أنظر: Rigola, PP.157-62, and Spriano *Socialismo e classe operaia*, P.40. وانظر أيضا الصفحتين 43 و 44 من الفصل الثاني من هذا الكتاب.
- (55) Michels, P.174. حتى وقت متأخر يصل إلى عام 1904 لم يكن هناك في المنظمات الاشتراكية في الجزيرة كلها غير 127 عضواً. وهذا الرقم أقل من رقم أي إقليم كان في إيطاليا، حتى لو أخذ كنسبة إلى عدد السكان.
- (56) Corsi, P.39. حتى عام 1914 كان اتحاد عمال المناجم (الجمعية العامة لعمال المناجم في ساردينيا) يشكل جزءاً من "غرفة العمل" في كالياري (المصدر السابق، ص 232)، وربما كان هذا هو السبب في أن غرامشي كان يملك معلومات جيدة عن نشاطات الاتحاد في تلك الفترة المبكرة.
- (57) المصدر السابق، ص 227. وهذا المؤلف يتضمن صورة طبق الأصل عن رسالة غرامشي التي تحمل في صدرها شعار طبعه تورينو من صحيفة "أفانتي".
- (58) Passato e presente(8), P.3.
- (59) رسالة غرامشي إلى جوليا بتاريخ 1923: Ferrata and Gallo(12)P.24.
- (60) رسالة غرامشي إلى جوليا بتاريخ 1924/3/5، المصدر السابق، ص 32. وانظر أيضا الصفحات 23 و 24 و 546، وكذلك: Lettere(1)P.43.
- (61) رسالة غرامشي إلى جوليا بتاريخ 1923/2/13: Ferrata and Gallo(12), P.23. وانظر أيضا الصفحة 24.
- (62) رسالة غرامشي إلى جوليا بتاريخ 1923/3/6، المصدر السابق، ص 32.
- (63) رسالة غرامشي إلى كارلو بتاريخ 1927/9/12: Lettere(2), P.126.
- (64) رسالة غرامشي إلى تاتيانا بتاريخ 1932/10/3: Lettere(1), P.207.
- (65) رأى غرامشي موازاة بين هذا النشاط المحدد لماكيافيلي ونشاط اليعاقبة الفرنسيين، الذين أسسوا الميليشيا الوطنية التي تضم الفلاحين للدفاع عن فرنسا في مواجهة الغزو العسكري. انظر الصفحات 537-546 للاطلاع على آراء غرامشي في ماكيافيلي.
- (66) أنظر: Gramsci, "Totalitarismo", PP.194-195. وكان غرامشي نفسه قد أشار بصورة غير مباشرة إلى تأثير جزيرة ساردينيا على طابعه: "لقد جاء في الأدب الإيطالي قول بأنه إذا كانت ساردينيا جزيرة فإن كل ساردينيا هو جزيرة في قلب جزيرة. وإني أتذكر مقالة مضحكة كتبها أحدهم في صحيفة "جورنالي ديتالي" وحاول في عام 1920 أن يفسر اتجاهاتي الفكرية والسياسية من هذه الزاوية. ولكن، ربما لم يكن هناك إلا القليل من الحقيقة في ذلك" رسالة غرامشي إلى يولكا بتاريخ 1937/1/5: Lettere(1), P.241.

#### الفصل الثاني

- (1) Solomone, *Italian Democracy*, PP.95-97. Croce, *Storia d'Italia*, PP.236-42. And King and Okey, PP.371-74. واستناداً إلى كينغ وأوكي (ص 371) فإن "التوسع منذ عام 1900 كان تقريباً لا مثيل له في تاريخ الأمم". وقد أظهر مؤلفون كثيرون حماسة مماثلة فيما يتعلق بالتوسع الاقتصادي الإيطالي في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينات من القرن الحالي.
- (2) L'Esposizione internazionale, P.494.
- (3) للاطلاع على مناقشة لآراء القوميين ووصف لمؤتمرهم التأسيسي في فلورنس (3-5 كانون الأول/ديسمبر 1910) انظر كتاب سالمون *Italian Democracy* ص 89-94. وانظر أيضاً مناقشة كروتشي البليلة والساخرة للقومية في *Storia d'Italia* ص 295-263. واستناداً إلى فرانز نيومان فإن أنريكو كوراديني، إيديولوجي القومية الإيطالية، كان أول من "استخدم القوى المكونة للصراع الطبقي في صياغة الاشتراكية الإمبريالية". انظر مؤلف نيومان Behmoth ص 162.
- (4) كما ورد في كتاب سالمون *Italian Democracy* ص 42.
- (5) جاء في تصريح جوليتي أمام البرلمان في 1913/12/15: "لقد بادرت (إلى الحرب الليبية)... بعد أن حسبت بدقة الفائدة الكبرى في امتلاك مستعمرة واسعة في البحر الأبيض المتوسط. من ناحية، والكارثة التي قد نعرض أنفسنا إليها إن لم نبادر إلى الحرب". كما ورد في المصدر السابق ص 103.
- (6) Rodolf Morandi, P.179.
- (7) من أجل إيجاز جيد للثقافة الإيطالية بين 1871 و 1951 انظر مؤلف كروتشي *Storia d'Italia* الفصول 5 و 6 و 10. وهناك مرشد ممتاز إلى التطورات الأدبية بما فيها كتابة التاريخ والثقافة عموماً، موجود في مؤلف فيتوريو روسي، المجلد الثالث، ص 218-339. ومن أجل مناقشة قصيرة من وجهة نظر الماركسية للأدب الإيطالي في هذه الحقبة انظر: Salinari, *Storia popolare*, III, 217-85.
- (8) كما ورد في: Spriano, *Torino Operaia*, P.32.
- (9) Garosci, *Totalitarismo*, P.196.
- (10) Engel, III, 28-32.
- (11) Garosci, *Totalitarismo*, P.196.
- (12) Togliati, Gramsci(1955), P.73.
- (13) Spriano, *Socialismo e classe operaia*, P.60.
- (14) Norberto Bobbio, *Perfate to Mautio*, P.x.
- (15) أنظر: Gioele Solari, "Aldo Moutino nella Tradizione Culturale Torinese da Gobitti alla resistenza", in Moutino, P.53. و Ferrera and Ferrera, P.73.
- (16) Gramsci(1955), P.77.
- (17) كانت الليرة الإيطالية تساوي 19,6 سنتاً أمريكياً في عام 1911. وللمقارنة، فإن عامل سيارات في تورينو كان يتقاضى بين 30 و 70 سنتيماً في الساعة حسب خبرته ومؤهلته. أنظر: Mantagnana ص 13.
- (18) Zucaro "Gramsci all'Universita", P.1092-93. وجاء في كتاب Ferrera and Ferrera (ص 9) أن ترتيب غرامشي في الامتحان كان السابع. أما Bellini and Galli، ص 22، فقد وضعاه في المرتبة السادسة. وعلى العموم، فإن زوكارو يقدم الوثيقة الوحيدة، وهي نتائج الامتحان كما نشرت في صحيفة "غازيتا دل بوبولو" يوم 29 تشرين الأول/أكتوبر 1911.
- (19) سيرة غرامشي الجامعية ونتائج امتحاناته وردت في Russo ص 238. ومن العجيب أن غرامشي نجح في الامتحانات. ففي نهاية السنة الأخيرة في المدرسة الثانوية كان غرامشي -كما رأينا- مصاباً بسوء تغذية حاد، ولم يستطع أن يكرس غير شهر واحد للاستعداد للامتحانات. وكتب يقول: "لست أعرف كيف استطعت النجاح في الامتحانات، فقد أغمي علي مرتين أو ثلاثاً" رسالة غرامشي إلى كارلو بتاريخ 1927/9/12: Lettere(2).
- (20) أنظر "Opere di Gramsci" Platone
- (21) رسالة غرامشي إلى تاتيانا بتاريخ 1927/3/19: Lettere(1), P.27.
- (22) De felice, PP.219-21.
- (23) Togliati, Gramsci(1955), P.27.
- (24) Ferrera and Ferrera, PP.34-35.
- (25) رسالة غرامشي إلى يولكا بتاريخ 1937/1/5: Lettere(2), P.241.

- (26) Gramsci, *Il Materialismo Storico* (3), P.199; ومع ذلك، فإن البروفسور غارين أبرز الأهمية الأكبر عند غرامشي، حتى في تلك السنوات، لشخصيات مثل دي سانكتيس ولا بريولا وريناتو سيرا. أنظر مقالة غارين: Gramsci nella cultura italiana, in studi Gramsciani, PP.398-99. وأنظر أيضا مساهمة غرامشي المحركة للمشاعر في ذكرى سيرا: La luce che si è spenta (20.xi.1915). in Scritti giovanili, PP.10-12.
- (27) Gramsci (5.xi.1920). *L'Ordine nuovo* (10), PP.362-63
- (28) Lombardo Radice and Carbone, P.25.
- (29) رسالة غرامشي إلى غراتزيينا 1916: Ferrara and Gallo (12), P.19. قبل بضع سنوات من نشر الرسالة كان تولياني قد استشهد بهذه الفقرة: Togliati, Gramsci (1955), P.81.
- (30) أنظر التقرير حول المجلس الإداري لمدرسة المحافظة كما أورده زوكارو في كتابه "غرامشي في الجامعة"، ص 1100. ولاحظ التقرير سوء الحالة الصحية لغرامشي ولكن قطع عنه راتبه حتى انتهاء الامتحانات في آذار-نيسان/مارس-أبريل 1914.
- (31) وردت تواريخ ودرجات هذه الامتحانات في كتاب روسو، ص 238. وفي مقال أحدث له بضيف زوكارو أن غرامشي أدى امتحانه الأخير، في الأدب الإيطالي، يوم 12 نيسان/أبريل 1915: P.1110 "Gramsci all'Universita", Zucaro, Review of Lombardo Radice and Carbone, P.702/ (32)
- (33) كما ورد في: Zucaro, "Gramsci all'Universita", P.1109.
- (34) Zucaro, Review of Lombardo Radice and Carbone P.1109.
- (35) Levi, PP.1039-50
- (36) Prato, P.5 ومنذ عام 1898 كان هناك بعض الإدراك لهذه المشكلة لدى اشتراكيي تورينو. أنظر: Spriano, *Socialismo e classe operaia*, P.77.
- (37) Prato, PP.8.166.
- (38) المصدر السابق، ص 216.
- (39) المصدر السابق، ص 60.
- (40) Levi, P.1041.
- (41) المصدر السابق، وأنظر أيضا Prato, PP.59-108.
- (42) Gobetti, P.111
- (43) Garosci, "Totalitarismo", P.197. الحزبان الراديكالي والجمهوري - هما "الحزبان المتقدمان" للبورجوازية الصغيرة كما يسميها سبريانو- لم يكن لهما "قاعدة انتخابية ولا تنظيم فعال ولا أي نفوذ على الشعب" في تورينو. أنظر مؤلف سبريانو *Socialismo e classe operaia* ص 43. وفي الانتخابات الإدارية للمحافظة في 6 تشرين الثاني/نوفمبر 1904 كانت الأحزاب "الملكية" قد حصلت على 48579 صوتا وحصل الحزب الاشتراكي الإيطالي على 14511، ولم يحصل الراديكاليون إلا على 3005 أصوات (المصدر نفسه، ص 139) وكذلك يشير أتزيو أفيدور إلى الانقسام الحاد بين الطبقة العاملة وبورجوازية تورينو. أنظر: P.88, n.16. "Il Movimento operaio torinese durante la prima guerra mondiale", in la Citta futura
- (44) Garosci, "Totalitarismo" P.197.
- (45) من أجل مسح معلوماتي عن الطبقة العاملة الإيطالية ومؤسساتها الاقتصادية في ذلك الوقت، أنظر: Procacci, "La Classe operaia", PP.3-76.
- (46) 63,2% في انكلترا، 46% في بلجيكا، 43,6% في ألمانيا. المصدر السابق، ص 3، رقم 2.
- (47) المصدر السابق، ص 5-6.
- (48) المصدر السابق، ص 14.
- (49) هكذا بدا الأمر لصموئيل غومبيرز الذي استشهد به بروكاتشي بهذا الشأن (المصدر السابق، ص 35).
- (50) المصدر السابق، ص 26 و64. كانت 17 نقابة من أصل النقابات العشرين الموجودة في عام 1904 قد أسست بعد بداية القرن.
- (51) في عام 1891 تُلقت غرفة عمل تورينو 5000 ليرة إيطالية من حكومة المدينة (البلدية). Spriano, *Socialismo e classe operaia*, P.41.
- (52) المصدر السابق.
- (53) Procacci, "La Classe operaia", P.56.
- (54) Rigola, PP.224-25.
- (55) Procacci, "La classe Operaia" PP.61-62.
- (56) المصدر السابق، ص 62.
- (57) Condeloro, *Il Movimento Sindacale*, P.58.
- (58) Procacci, "La classe operaia", PP.70-73.
- (59) المصدر السابق، ص 68.
- (60) Spriano, *Socialismo e classe operaia*, P.34.
- (61) المصدر السابق (ص 19) يدرج الشركات التالية: "أنسادي" (وسعت عام 1895) وهي تصنع قطع الآلات والماكينات الزراعية والمدفعية، وتوظف حوالي 300 شخص. و"فيربيري بيمونتي" (1899) وهي تصنع تجهيزات السكك الحديدية. و"سافيليانو" (1899) وهي تصنع المحركات والتجهيزات الكهربائية. و"فيات" (1899) وهي تصنع السيارات ولم تكن توظف إلا 90 شخصا في تلك السنة. و"الأخوة تيديسكس" (1888) وهي تصنع الكابلات الكهربائية وكانت توظف 250 شخصا في عام 1898.
- (62) كما ورد في المصدر السابق، ص 39. وتاريخ هذه الصحيفة هو 14 آب/أغسطس 1892، ولكن الوضع - كما سنرى - كان مختلفا بصورة واضحة في عام 1900. وقبل انتهاء القرن الماضي، لم يكن قد قام بإضرابات حقيقية في تورينو غير عمال الطباعة وعمال البناء (في عامي 1872 و1886).
- (63) Procacci, "La Classe operaia" P.56-57. في عام 1902 كان عدد أعضاء غرفة ميلانو يصل إلى 43192. وفي عام 1904 كانت غرفة نابولي تضم 12727 عضوا، وكانت غرفة روما تضم 10834 عضوا. ولم يكن في غرفة تورينو عم 1902 أكثر من 8083 عضوا. ويؤكد سبريانو، نقلا عن مصادر متعددة، أن غرفة جنوة كانت في عام 1902 تضم 28000 عضو.
- (64) Spriano, *Socialismo e classe operaia*, P.197.
- (65) المصدر السابق، ص 252.
- (66) المصدر السابق، ص 54، رقم 6.
- (67) المصدر السابق، ص 36. وقد أسست "الجمعية العامة للعمال" أول تعاونية لها للبيع بالتجزئة في عام 1854.
- (68) المصدر السابق، ص 76.
- (69) المصدر السابق، ص 75. وفي هذا الوقت أرسلت تورينو أول نائبين لها إلى البرلمان، وهما: كوير نوفري وأودينو مورغاري.
- (70) Michels, P.74. في عام 1904 كان في الاقليم أعضاء اشتراكيون أكثر من أي إقليم آخر.
- (71) Procacci, "La classe operaia" P.68.

- (72) كما ورد في: Spriano, Socialismo e classe operaia, P.253
- (73) المصدر السابق، ص 105.
- (74) "La Storia e la preistoria" in "I primi dieci Anni", P.3 وهذا المؤلف سيشار إليه فيما بعد بكلمة "La Storia"
- (75) Gramsci "Totalitarismo" P.198.
- (76) كما ورد في: Spriano, Socialismo e classe operaia, P.196
- (77) Prato, P.63.
- (78) Rodolf Marondi, PP.210-11
- (79) Spriano, Socialismo e classe operaia, PP.154-155
- (80) Prato, PP.63-64 ويضيف سبريانو أنه في عام 1907 كان مجموع الاستثمارات في صناعة السيارات يصل إلى 90 مليون ليرة، منها في صناعة تورينو مليوناً. (Socialismo e classe operaia, P.154).
- (81) Spriano, Socialismo e classe operaia, P.156
- (82) Terricini, "Gramsci e gli operai, P.1035.CF. Spriano Socialismo e classe operaia, PP.274-285(N.25).
- (83) Spriano, Socialismo e classe operaia, PP.160-61.
- (84) استناداً إلى بروكاتشي ("La Classe operaia" P.75) فإن المطالبات الأولى بـ"اللجان الداخلية" قدمت في الوقت نفسه تقريباً في ميلانو وتورينو (خلال إضراب عمال الصب في كانون الأول/ديسمبر 1900). ويبدو أن المطالبة تورينو هي الأكبر. وكان عمال مصنع بيريلي في ميلانو أول من حصل عملياً (ربيع 1902) على الاعتراف بمثل هذه اللجنة وإن لوقت قصير فقط.
- (85) Spriano, Socialismo e classe operaia, PP.64-69
- (86) المصدر السابق، ص 174-171.
- (87) المصدر السابق، ص 191، رقم 55.
- (88) المصدر السابق، ص 200.
- (89) المصدر السابق، ص 183-182.
- (90) المصدر السابق، ص 212.
- (91) يقدر سبريانو (المصدر السابق، ص 209) أن متوسط كلفة السيارة الإيطالية كان يصل إلى 10000 ليرة، وهكذا، فإنه لم يكن في إيطاليا أكثر من 7000 شخص يستطيعون تحمل هذا الترف.
- (92) المصدر السابق، ص 214-216.
- (93) المصدر السابق، ص 223-222. والأهم في إضافات تورينو إلى التنظيم الجديد كان صناعيو النسيج في بيبلا وفال سيسانا وفال ستروما، وصانعو الإسمنت في كازالي.
- (94) المصدر السابق، ص 236-245.
- (95) المصدر السابق، ص 247 و257 (رقم 35).
- (96) المصدر السابق، ص 224.
- (97) المصدر السابق، ص 268، وبراتو، ص 7. وكان هناك 93640 عاملاً صناعياً في تورينو في هذا الوقت حسب "النشرة الإحصائية الإيطالية السنوية" (1912) ص 112.
- (98) Spriano, Socialismo e classe operaia, PP.209-272
- (99) Prato, PP.72-74. وينتهي براتو في تحليله للأجور في الصناعات الرئيسية في تورينو إلى أن عمال المعادن يشكلون "فئة مميزة".
- (100) إن الرواية المعتادة للإضرابين هي طبعاً تلك التي رواها سبريانو في مؤلفه "الاشتراكية والطبقة العاملة" (ص 270-305). وقد استذكر ماريو مونتانيانا بحبوية هذين الإضرابين في مذكراته (ص 11-13)، كما شدد تاسكا على أهميتها في "La Storia" ص 3، وليونيتي في "Mouvements ouvriers et socialistes" ص 113 و116.
- (101) في تورينو كان هناك 16800 عامل يعملون في الصناعات المعدنية والميكانيكية غير المرتبطة مباشرة بصناعة السيارات. وكانت مصانع "المركبات" توظف 13607 عمال منهم حوالي 6500 يعملون مباشرة في إنتاج السيارات والشاحنات والأتوبيسات في مصانع السيارات الكبرى. أنظر:
- (102) Spriano, Socialismo e classe operaia, P.268
- (103) المصدر السابق، ص 276.
- (104) من خطاب ألقى في شباط 1912، كما ورد في المصدر السابق، ص 279.
- (105) Spriano, Torino Operaia, P.34. L'Ordine nuovo(10), P.179.
- (106) Spriano, Socialismo e classe operaia, P.299
- (107) المصدر السابق، ص 300.
- (108) Gramsci, "Il Movimento torinese" in L'ordine nuovo(10), P.1798
- (109) حول نشاطات "راكبو الدرجات الحمر" من الشباب، أنظر: Spriano, Torino operaia, P.34.
- (110) المصدر السابق، ص 37. وتاسكا "La Storia"، ص 3.
- (111) Montangana, P.24
- (112) Togliati, as quoted in Lombardo Radice and Carbone, P.25.
- (113) في عام 1931، قال غرامشي: "لقد ساهمنا، كلياً أو جزئياً، في حركة الإصلاح الثقافي والأخلاقي التي أطلقها في إيطاليا بينيدو كروتشي" رسالة غرامشي إلى تاتيانا بتاريخ 1931/8/17 (1) Lettere(1) ص 132. وكان تولياتي كذلك قد أعلن أنه مدين للمثالية: "لقد وصلنا إلى كارل ماركس عبر الطريق نفسها، وهي التي تبدأ بفلسفة هيجل". كما ورد في: Gramsci "Totalitarismo", P.198.
- (114) "La Storia", P.3. Tascas, في تورينو، انتخب الاشتراكيون ثلاثة من كل خمسة نواب وحصلوا على 44 بالمائة من الأصوات. واستناداً إلى ما ذكر غرامشي فيما بعد فإن الفلاحين الساردنيين كانت لديهم في عام 1913 "قناعات خيالية بأن كل شيء سيتغير بعد التصويت". (5) Risorgimento, P.113, n.1.
- (115) Tascas, "La Storia", P.3. في تلك السنوات المبكرة، واستناداً إلى لومباردو راديشي وكابوني(ص29)، فإن غرامشي أيضاً ساهم في تنظيم مؤسسات الإنعاش لعمال تورينو، وخصوصاً تدابير العناية بالأمومة والطفولة ومساعدة العجزة والمسنين. ويبدو أن هذا الحكم، على العموم، يستند إلى اعتقاد خاطئ بأن غرامشي كتب سلسلة من المقالات الموقعة "أ.ع" حمل هذه الموضوعات لصحيفة "أل غريديو دبل بوبولو". وتواريخ هذه المقالات وردت كلها في مؤلف Ottino ص 16، رقم 9. وأخيراً، أوضح زوكارو أن المقالات كان قد كتبها أدولفو جوستي (الكنية تبدأ أيضاً بحرف G) الذي كان يومها سكرتير "الجمعية العامة للعمال": ("Gramsci all'Universita", PP.1096-98)
- (116) Gramsci, Scritti giovanili, PP.21-22 ويلاحظ ناشرو غرامشي أن "المسؤول" الذي أشار إليه هو ج.م. سيراتي، ولكن آلدو رومانو يؤكد أنه كان موسوليني!.. أنظر مؤلفه: "Gramsci tra la guerra" P.413; 12-13 (35) PP.12-13 "Alcuni temi" وعلى العموم، فقد جرى تصحيح بعض تفاصيل هذه الرواية، أنظر: Salvemini, Questione meridionale, PP.xxiii-xxvi. و Tascas, "La Storia", P.1103-4

Storia" P.3 و Spriano, Torino operaia, PP.58-60 وهذا التصحيح مبني على رسالة من أوتافيو باستوري مؤرخة في 16 حزيران/يونيو 1958. ويقول تاسكا أنه فكر، هو وباستوري، في الأساس بمنح الترشيح لسالفاميني، رغم أنه يعترف ضمناً بأن غرامشي كان أول من شدد على أهمية المسألة بالنسبة للحزب.